(٥٢) سورة الطور مكية وآياتها تسع وأربعون

سورةُ الطور من السور المكية التي تُعنى بأصول الإيمان «الوحدانية ، الرسالة ، البعث» ومحورُ هذه السورة يدور حول الآخرة وما فيها من نعيم وجحيم ، وعن مآل السعداء والأشقياء ، وعن الحقّ والباطل ، والشبهات التي أثارها المشركون حول الرسالة والرسول .

تبتدىء السورة الكريمة بحملةٍ عنيفة على الباطل ، وعلى الشبهات والأباطيل التي تساور نفوس المشركين ، حيث استبعدوا الآخرة وأنكروا البعث والجزاء ، واستهزءوا بالعذاب الذي كان يخوّفهم به الرسول ﷺ فجاءت الآيات تقسم بمقدّسات في الأرض والسماء ، بعضُها مكشوف معلوم ، وبعضها مغيَّب مجهول بأن الآخرة حقٌّ ، وأن العذاب واقع لا محالة لا يُردُّ عن القوم المجرمين ، وقد بدأ بالقسم بمخلوقاته الدالة على قدرته العظيمة ، وذكر منها خمساً : جبلَ الطور الذي كلم الله عليه موسى ، واللوحَ المحفوظَ الذي سُجّلت فيه الأقدار ، والبيتَ المعمور الذي هو مطاف الملائكة وهو لأهل السماء كالبيت العتيق لأهل الأرض ، وأقسم بالسماء في ارتفاعها ، وبالبحر المملوء في عمقه وسعته ، أقسم على أمرٍ عظيم رهيب ، يرجُّ القلبَ رجّاً ، ويملأ النفس رُعباً ، أن العذاب الذي يسخرون منه نازلٌ لا محالة ، في ذلك اليوم العصيب الذي تنخلع له القلوب ﴿والطورِ . وكتابٍ مسطور . في رَقّ منشور . والبيتِ المعمور . والسقفِ المرفوع . والبحرِ المسجور . إنَّ عذابَ ربك لواقع . ماله من دافع . يومَ تَمور السماء مَوْراً . وتسيرَ الجبال سيراً﴾ ثم يأتي الوعيدُ المفزع المرعب ، في مشهد سوق

المجرمين إلى الجحيم ، ومعه ما يزلزل ويُرعب من ويلٍ وهول ، وتقريعٍ وتفزيعٍ ﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ للمكذبينَ. الَّذينَ هُمْ في خَوْضٍ يَلْعَبون. يَوْمَ يُدَعُّونَ إلى نار جهنَّم دَعًّا - أي يُدفعون إليها دفعاً بشدة وعنف - هذهِ النارُ التي كنتم بها تكذِّبون. أفسحرٌ هذا أم أنتم لا تُبصرونَ. إصْلَوْهَا فاصْبِرُوا أو لا تصبروا سَوَاءٌ عليكُمْ ، إنّمَا تُجْزَون ما كُنْتُم تَعْملون﴾ وفي مقابلة ألوان العذاب التي أعدها الله للمجرمين ، يأتي الحديثُ عن ألوان النعيم وصفوفِ التكريم التي أعدها الله للمؤمنين ، للمقارنة بين حال السعداء والأشقياء ، والأبرار والفجار ، على طريقة القرآن في الجمع بين الترغيب والترهيب ﴿إنَّ المتقين في جناتٍ ونعيم. فاكهين بما آتاهم ربهم ، ووقاهم ربهم عذاب الجحيم. كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون. متكئين على سرر مصفوفة ، وزوجناهم بحورٍ عين. والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمانٍ ألحقنا بهم ذريتهم ، وما ألتناهم - أي أنقصناهم - من عملهم من شيء ، كلُّ امرىءٍ بما كسب رهين. وأمددناهم بفاكهةٍ ولحمٍ مما يشتهون. يتنازعون فيها كأساً لا لغوٌ فيها ولا تأثيم .. إلى قوله إنا كنّا من قبلُ ندعوه إنه هو البَرُّ الرحيم﴾.

ثم يأتي الشوط الثالث يلاحق الباطل ويطارده - في الشبهات والأباطيل التي أثارها المشركون حول القرآن والرسول - يأتيهم بأسئلةٍ متلاحقة متتابعة ، أشبه ما تكون بالقذائف الصاعقة ، التي تنسف الباطل نسفاً ، وتخرس كل معاند مكابر ، يزيغ عن الحق أو يجادل فيه ﴿فذكّرْ فما أنت بنعمة ربك بكاهنٍ ولا مجنون. أم يقولون شاعرٌ نتربص به ريب المنون قل تربصوا فإني معكم من المتربصين﴾ وفي أسلوب تهكمي لاذع يتساءل عن موقفهم النابي من القرآن والرسول فقد كان شيوخ قريش يلقَّبون بذوي الاحلام اشارة الى رجاحة عقولهم وحكمتهم في تصريف الامور فهو يتهكم بهم وباحلامهم ويتساءل : هل

كان رأيهم في القرآن والرسول من وحي احلامهم أم هم طغاة ظالمون ﴿ أم تأمرهم احلامهم بهذا أم هم قوم طاغون أم يقولون تقوّله بل لا يؤمنون. فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين﴾ ؟ ويتكرر التهكم بعرض أسئلةٍ ثلاث لا تحتاج إلى جدلٍ كثير ، لأنها بمنطق الفطرة واضحة كل الوضوح : هل هم خَلَقُوا أنفسهم؟ أم هم خُلقوا من غير خالق؟ أم هم الذين خلقوا السمواتِ والأرضٍ؟ والجواب عن ذلك كلِهِ واضح لا يحتاج إلى مكابرة أو عناد ﴿ أم خُلِقُوا من غير شيءٍ؟ أم هم الخالقون؟ أم خَلَقُوا السمواتِ والأرض؟ بل يوقنون﴾ فإن أحداً منهم لا يستطيع أن يقول إنه خلق نفسه ، ولا إنه مخلوق من غير شيء ، ولا انه خلق السموات والأرض ، فثبت أن الخالق هو الله العلي الكبير رب العالَمين ، وبهذه الحجة الدامغة قصم القرآن ظهر الباطل . وانتقلت السورة – بعد ذكر الخلق والإبداع لأنفسهم أو للسموات والأرض – لتسألهم مع السخرية والتهكم : هل يملكون خزائن الله؟ أم هم يستطيعون الاستماع إلى وحي الله . حتى يمنعوا تنزل الرسالة على محمد ﷺ ؟ ﴿ أم عندهم خزائن رحمة ربك أم هم المسيطرون؟ أم لهم سلّم يستمعون فيه ؟ فليأتِ مستمعُهم بسلطان مبين﴾ وبعد تلك الأسئلة المتلاحقة تصور السورة تعنتهم وعنادهم صورة الذي يكابر في الأمر المحسوس ، فلو رأوا العذاب نازلاً عليهم كأنه قطعة من جبل لقالوا هذا سحاب وما هو عذاب ﴿ وإن يروا كِسْفاً من السماء ساقطاً يقولوا سحاب مركوم﴾ وتختم السورة الكريمة بذلك الإنذار الرهيب ﴿ فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذي فيه يُصْعقون . يوم لا يغني عنهم كيدهم شيئاً ولا هم يُنصرون . وإنّ للذين ظلموا عذاباً دون ذلك ولكن أكثرهم لا يعلمون . واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا وسبح بحمد ربك حين تقوم ۝ ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم .﴾ .

سورة الطور

[٨٧٢] أخرج ابن جرير عن ابن عباس أن قريشاً لما اجتمعوا في دار الندوة في أمر النبي [ﷺ] قال قائل منهم احبسوه في وثاق ثم تربصوا به المنون حتى يهلك كما هلك من قبله من الشعراء زهير والنابغة فإنما هو كأحدهم فأنزل الله في ذلك: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ۝٣٠﴾[1].

* * *

[٨٧٢] (١) سورة الطور: الآية (٣٠).

سورة الطور

اربعون وتسع آيات مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالطُّورِ ۝ وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ ۝ فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ ۝ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ۝ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ۝ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ۝﴾

هذه السورة مناسبة للسورة المتقدمة من حيث الافتتاح بالقسم وبيان الحشر فيهما، وأول هذه السورة مناسب لآخر ما قبلها؛ لأن في آخرها قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الذاريات: ٦٠] وهذه السورة في أولها: ﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [الطور: ١١] وفي آخر تلك السورة قال: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا﴾ [الذاريات: ٥٩] إشارة إلى العذاب وقال هنا: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ [الطور: ٧].

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: ما الطور، وما الكتاب المسطور؟ نقول: فيه وجوه: الأول: الطور هو جبل معروف كلم الله تعالى موسى عليه السلام عليه. الثاني: هو الجبل الذي قال الله تعالى: ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ [التين: ٢] الثالث: هو اسم الجنس والمراد القسم بالجبل غير أن الطور الجبل العظيم كالطود.

وأما الكتاب ففيه أيضًا وجوه: أحدها: كتاب موسى عليه السلام. ثانيها: الكتاب الذي في السماء. ثالثها: صحائف أعمال الخلق. رابعها: القرآن. وكيفما كان فهي في رقوق، وسنبين فائدة قوله تعالى: ﴿فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ﴾.

وأما البيت المعمور ففيه وجوه: الأول: هو بيت في السماء العليا عند العرش ووصفه بالعمارة لكثرة الطائفين به من الملائكة. الثاني: هو بيت الله الحرام وهو معمور بالحاج الطائفين به العاكفين. الثالث: البيت المعمور اللام فيه لتعريف الجنس، كأنه يقسم بالبيوت المعمورة والعمائر المشهورة، ﴿وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ﴾ السماء، ﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾، قيل: المُوقَد، يقال: سجرت التنور، وقيل: هو البحر المملوء ماءً المتموج، وقيل: هو بحر معروف في السماء يسمى بحر الحيوان.

المسألة الثانية: ما الحكمة في اختيار هذه الأشياء؟ نقول: هي تحتمل وجوهًا: أحدها: أن الأماكن الثلاثة وهي: الطور، والبيت المعمور، والبحر المسجور، أماكن كانت لثلاثة أنبياء ينفردون فيها للخلوة بربهم والخلاص من الخلق والخطاب مع الله، أما الطور فانتقل إليه موسى عليه السلام، والبيت محمد ﷺ، والبحر المسجور يونس عليه السلام، والكل خاطبوا الله

هناك فقال موسى: ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ﴾ [الأعراف: ١٥٥] وقال: ﴿أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣] وأما محمد ﷺ فقال: «السَّلامُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ، لا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ، أنت كَمَا أَثْنَيتَ عَلَى نَفْسِكَ»(١) وأما يونس فقال: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧] فصارت الأماكن شريفة بهذه الأسباب، فحلف الله تعالى بها، وأما ذكر الكتاب فإن الأنبياء كان لهم في هذه الأماكن مع الله تعالى كلام والكلام في الكتاب، واقترانه بالطور أدل على ذلك؛ لأن موسى عليه السلام كان له مكتوب ينزل عليه وهو بالطور، وأما ذكر السقف المرفوع ومعه البيت المعمور ليعلم عظمة شأن محمد ﷺ ثانيها: وهو أن القسم لما كان على وقوع العذاب وعلى أنه لا دافع له، وذلك لأن لا مهرب من عذاب الله لأن من يريد دفع العذاب عن نفسه، ففي بعض الأوقات يتحصن بمثل الجبال الشاهقة التي ليس لها طرف وهي متضايقة، بَيَّن أنه لا ينفع التحصن بها من أمر الله تعالى كما قال ابن نوح عليه السلام: ﴿سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ [هود: ٤٣] حكاية عن نوح عليه السلام.

المسألة الثالثة: ما الحكمة في تنكير الكتاب وتعريف باقي الأشياء؟ نقول: ما يحتمل الخفاء من الأمور الملتبسة بأمثالها من الأجناس يعرف باللام، فيقال: رأيت الأمير ودخلت على الوزير، فإذا بلغ الأمير الشهرة بحيث يؤمن الالتباس مع شهرته، ويريد الواصف وصفه بالعظمة، يقول: اليوم رأيت أميرًا ما له نظير جالسًا وعليه سيما الملوك. وأنت تريد ذلك الأمير المعلوم، والسبب فيه أنك بالتنكير تشير إلى أنه خرج عن أن يُعلم ويُعرف بكنه عظمته، فيكون كقوله تعالى: ﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾ [الحاقة: ١-٣] فاللام وإن كانت معرفة لكن أخرجها عن المعرفة كون شدة هولها غير معروف، فكذلك ههنا الطور ليس في الشهرة بحيث يؤمن اللبس عند التنكير، وكذلك البيت المعمور، وأما الكتاب الكريم فقد تميز عن سائر الكتب، بحيث لا يسبق إلى أفهام السامعين من النبي ﷺ لفظ الكتاب إلا ذلك، فلما أمن اللبس وحصلت فائدة التعريف سواء ذُكر باللام أو لم يذكر قصدًا للفائدة الأخرى وهي في الذكر بالتنكير، وفي تلك الأشياء لما لم تحصل فائدة التعريف إلا بآلة التعريف استعملها، وهذا يؤيد كون المراد منه القرآن، وكذلك اللوح المحفوظ مشهور.

المسألة الرابعة: ما الفائدة في قوله تعالى: ﴿فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ﴾ وعظمة الكتاب بلفظه ومعناه لا

---

(١) الشطر الثاني من الحديث في الصحيح وغيره.

صحيح: أخرجه مسلم في كتاب (الصلاة)، باب: (ما يقال في الركوع والسجود) (١/ ٢٢٢/ ٣٥٢)، وأبو داود في كتاب (الصلاة)، باب: (في الدعاء في الركوع والسجود) (١/ ٣٨٩)، حديث رقم (٨٧٩)، وابن ماجه في كتاب (الدعاء)، باب: (ما تعوذ منه النبي) (٢/ ١٢٦٢/ ١٢٦٣) حديث رقم (٣٨٤١)، والنسائي في كتاب (الطهارة)، باب: (ترك الوضوء من مس رجل) (١/ ١١١)، حديث رقم (١٦٩)، وأحمد في (مسنده) (٦/ ٢٠١)، وابن خزيمة باب (نصب القدمين في السجود)، حديث رقم (٦٥٥)، جميعًا من طريق عبد الله بن عمر... به.

بخطه ورقِّه؟ نقول: هو إشارة إلى الوضوح، وذلك لأن الكتاب المطوي لا يُعلم ما فيه فقال: هو في رق منشور وليس كالكتب المطوية، وعلى هذا: المراد اللوح المحفوظ، فمعناه هو منشور لكم لا يمنعكم أحد من مطالعته، وإن قلنا بأن المراد كتاب أعمال كل أحد فالتنكير لعدم المعرفة بعينه. وفي رق منشور لبيان وصفه، كما قال تعالى: ﴿كِتَٰبًا يَلۡقَىٰهُ مَنشُورًا﴾ [الإسراء: ١٣] وذلك لأن غير المعروف إذا وُصف كان إلى المعرفة أقرب شبهًا.

المسألة الخامسة: في بعض السور أقسم بجموع كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ﴾ وقوله: ﴿وَٱلۡمُرۡسَلَٰتِ﴾ وقوله ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ﴾ وفي بعضها بأفراد كما في هذه السورة حيث قال: ﴿وَٱلطُّورِ﴾ ولم يقل والأطوار والبحار، ولا سيما إذا قلنا: المراد من الطور: الجبل العظيم كالطود، كما في قوله تعالى: ﴿وَرَفَعۡنَا فَوۡقَهُمُ ٱلطُّورَ﴾ [النساء: ١٥٤] أي الجبل فما الحكمة فيه؟ نقول: في الجموع في أكثرها أقسم بالمتحركات والريح الواحدة ليست بثابتة مستمرة حتى يقع القسم بها، بل هي متبدلة بأفرادها مستمرة بأنواعها، والمقصود منها لا يحصل إلا بالتبدل والتغير فقال: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ﴾ إشارة إلى النوع المستمر إلى الفرد المعين المستقر، وأما الجبل فهو ثابت قليل التغير والواحد من الجبال دائم زمانًا ودهرًا، فأقسم في ذلك بالواحد وكذلك قوله: ﴿وَٱلنَّجۡمِ﴾ والريح ما علم القسم به وفي الطور علم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٞ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٖ ۝٨﴾

إشارة إلى المقسم عليه، وفيه مباحث: الأول: في حرف ﴿إِنَّ﴾ وفيه مقامات:

الأول: هي تنصب الاسم وترفع الخبر، والسبب فيه هو أنها شُبهت بالفعل من حيث اللفظ والمعنى، أما اللفظ فلكون الفتح لازمًا فيها واختصاصها بالدخول على الأسماء والمنصوب منها على وزن إن أنينًا، وأما المعنى، فنقول: اعلم أن الجملة الإثباتية قبل الجملة الانتفائية، ولهذا استغنوا عن حرف يدل على الإثبات، فإذا قالوا: زيد منطلق فُهم منه إرادة إثبات الانطلاق لزيد، والانتفائية لما كانت بعد المثبتة زِيد فيها حرف يغيرها عن الأصل وهو الإثبات فقيل: ليس زيد منطلقًا، فصار ليس زيد منطلقًا بعد قول القائل زيد منطلق، ثم إن قول القائل: (إن زيدًا منطلق) مستنبط من قوله: ليس زيد منطلقًا، كأن الواضع لما وضع أولاً (زيد منطلق) للإثبات وعند النفي يحتاج إلى ما يغيره أتى بلفظ مغير وهو فعل من وجه لأنك قد تبقى مكانه (ما) النافية ولهذا قيل لست وليسوا، فألحق به ضمير الفاعل، ولولا أنه فعل لما جاز ذلك، ثم أراد أن يضع في مقابلة (ليس زيد منطلقًا) جملة إثباتية فيها لفظ الإثبات، كما أن في النافية لفظ النفي فقال: (إنّ) ولم يقصد أن (إنّ) فعل لأن ليس يشبه بالفعل لما فيه من معنى الفعل وهو التغيير، فإنها غيرت الجملة من أصلها الذي هو الإثبات وأما (إنّ) فلم تغيره فالجملة على ما كانت عليه إثباتية فصارت مشبهة بالمشبهة بالفعل وهي ليس، وهذا ما يقوله النحويون في إن وأن وكأن وليت

ولعلّ: إنها حروف مشبهة بالأفعال.

إذا علمت هذا فنقول: كما أن (ليس) لها اسم كالفاعل وخبر كالمفعول، تقول: ليس زيد لئيمًا، بالرفع والنصب كما تقول: بات زيد كريمًا، فكذلك (إنّ) لها اسم وخبر، لكن اسمها يخالف اسم ليس وخبرها خبرها، فإن اسم (إنّ) منصوب وخبرها مرفوع، لأن (إنّ) لما كانت زيادة على خلاف الأصل لأنها لا تفيد إلا الإثبات الذي كان مستفادًا من غير حرف، و(ليس) لما كانت زيادة على الأصل لأنها تغير الأصل ولولاها لما حصل المقصود جُعل المرفوع والمنصوب في ليس على الأصل؛ لأن الأصل تقديم الفاعل، وفي إنّ جُعل ذلك على خلاف الأصل وقدم المشبه بالمفعول على المشبه بالفاعل تقديمًا لازمًا، فلا يجوز أن يقال (إن منطلق زيدًا) وهو في (ليس منطلقًا زيد) جائز كما في الفعل لأنها فعل.

المقام الثاني: هي لـِمَ تُكسر تارة وتُفتح أخرى؟ نقول: الأصل فيها الكسرة والعارض، وإن كان هذا في الظاهر يخالف قول النحاة لكن في الحقيقة هي كذلك.

المقام الثالث: لـِمَ تدخل اللام على خبر (إنّ) المكسورة دون المفتوحة؟ قلنا: قد خرج مما سبق أن قول القائل: (زيد منطلق) أصل؛ لأن المثبتات هي المحتاجة إلى الإخبار عنها فإن التغير في ذلك، وأما العدميات فعلى أصولها مستمرة، ولهذا يقال: الأصل في الأشياء البقاء، ثم إن السامع له قد يحتاج إلى الرد عليه فيقول: (ليس زيد منطلقًا) فيقول هو: (إن زيدًا منطلق) فيقول هو ردًّا عليه: (ليس زيد بمنطلق) فيقول ردًّا عليه: (إن زيدًا لمنطلق) و(أنّ) ليست في مقابلة ليس وإنما هي متفرعة عن المكسورة.

المبحث الثاني: قوله تعالى: ﴿عَذَابَ رَبِّكَ﴾ فيه لطيفة عزيزة وهي أنه تعالى لو قال: إن عذاب الله لواقع، والله اسم منبئ عن العظمة والهيبة، كان يخاف المؤمن بل النبي ﷺ من أن يلحقه ذلك لكونه تعالى مستغنيًا عن العالم بأسره، فضلاً عن واحد فيه فآمنه بقوله: ﴿رَبِّكَ﴾ فإنه حين يسمع لفظ الرب يأمن.

المبحث الثالث: قوله ﴿لَوَٰقِعٌ﴾ فيه إشارة إلى الشدة، فإن الواقع والوقوع من باب واحد، فالواقع أدل على الشدة من الكائن. ثم قال تعالى: ﴿مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ﴾ والبحث فيه قد تقدم في قوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦] وقد ذكرنا أن قوله: ﴿وَٱلطُّورِ﴾ .. ﴿وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ﴾ .. ﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ﴾ فيه دلالة على عدم الدافع، فإن من يدفع عن نفسه عذابًا قد يدفع بالتحصن بقُلل الجبال ولُجج البحار، ولا ينفع ذلك، بل الوصول إلى السقف المرفوع ودخول البيت المعمور لا يدفع.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ۝٩ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ۝١٠﴾

فيه مسائل:

المسألة الأولى: ما الناصب ليوم؟ نقول: المشهور أن ذلك هو الفعل الذي يدل عليه واقع،

أي يقع العذاب ﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا﴾ والذي أظنه أنه هو الفعل المدلول عليه بقوله: ﴿مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ﴾ [الطور: ٨] وإنما قلت ذلك لأن العذاب الواقع على هذا ينبغي أن يقع في ذلك اليوم، لكن العذاب الذي به التخويف هو الذي بعد الحشر، ومور السماء قبل الحشر، وأما إذا قلنا: معناه ﴿لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ﴾ [المعارج: ٢] يوم تمور فيكون في معنى قوله: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَـٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا﴾ [غافر: ٨٥] كأنه تعالى يقول: ما له من دافع في ذلك اليوم، وهو ما إذا صارت السماء تمور في أعينكم والجبال تسير، وتتحققون أن الأمر لا ينفع شيئًا ولا يدفع.

المسألة الثانية: ما مور السماء؟ نقول: خروجها عن مكانها تتردد وتموج، والذي تقوله الفلاسفة قد علمت ضعفه مرارًا، وقوله تعالى: ﴿وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا﴾ يدل على خلاف قولهم، وذلك لأنهم وافقوا على أن خروج الجبل العظيم من مكانه جائز، وكيف لا وهم يقولون بأن زلزلة الأرض مع ما فيها من الجبال ببخار يجتمع تحت الأرض فيحركها، وإذا كان كذلك فنقول: السماء قابلة للحركة بإخراجها خارجة عن السمتيات والجبل ساكن يقتضي طبعه السكون، وإذا قبل جسم الحركة مع أنها على خلاف طبعه، فلأن يقبلها جرم آخر مع أنها على موافقته أَوْلى، وقولهم: (القابل للحركة المستديرة لا يقبل الحركة المستقيمة) في غاية الضعف، وقوله: ﴿مَوْرًا﴾ يفيد فائدة جليلة وهي أن قوله تعالى: ﴿وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ﴾ يحتمل أن يكون بيانًا لكيفية مور السماء، وذلك لأن الجبال إذا سارت وسيرت معها سكانها يظهر أن السماء كالسيارة إلى خلاف تلك الجهة، كما يشاهده راكب السفينة فإنه يرى الجبل الساكن متحركًا، فكان لقائل أن يقول: السماء تمور في رأي العين بسبب سير الجبال، كما يرى القمر سائرًا راكب السفينة، والسماء إذا مارت كذلك فلا يبقى مهرب ولا مفزع لا في السماء ولا في الأرض.

المسألة الثالثة: ما السبب في مورها وسيرها؟ قلنا: قدرة الله تعالى، وأما الحكمة فالإيذان والإعلام بأن لا عود إلى الدنيا، وذلك لأن الأرض والجبال والسماء والنجوم كلها لعمارة الدنيا والانتفاع لبني آدم بها، فإن لم يتفق لهم عود لم يبق فيها نفع فأعدمها الله تعالى.

المسألة الرابعة: لو قال قائل: كنتَ وعدتَ ببحث في الزمان يستفيد العاقل منه فوائد في اللفظ والمعنى، وهذا موضعه، فإن الفعل لا يضاف إليه شيء غير الزمان فيقال: يوم يخرج فلان وحين يدخل فلان، وقال الله تعالى: ﴿يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ [المائدة: ١١٩] وقال: ﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ﴾ وقال: ﴿يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [التوبة: ٣٦] وكذلك يضاف إلى الجملة، فما السبب في ذلك؟

فنقول: الزمان ظرف الأفعال، كما أن المكان ظرف الأعيان، وكما أن جوهرًا من الجواهر لا يوجد إلا في مكان، فكذلك عَرَض من الأعراض لا يتجدد إلا في زمان، وفيهما تحير خلق عظيم، فقالوا: إن كان المكان جوهرًا فله مكان آخر ويتسلسل الأمر، وإن كان عَرَضًا فالعَرَض لا بد له من جوهر، والجوهر لا بد له من مكان، فيدور الأمر أو يتسلسل، وإن لم يكن جوهرًا ولا عَرَضًا، فالجوهر يكون حاصلاً فيما لا وجود له أو فيما لا إشارة إليه، وليس كذلك. وقالوا

في الزمان: إن كان الزمان غير متجدد فيكون كالأمور المستمرة فلا يثبت فيه المضي والاستقبال، وإن كان متجددًا وكل متجدد فهو في زمان، فللزمان زمان آخر فيتسلسل الأمر. ثم إن الفلاسفة التزموا التسلسل في الأزمنة، ووقعوا بسبب هذا في القول بقدم العالم ولم يلتزموا التسلسل في الأمكنة وفرَّقوا بينهما من غير فارق وقوم التزموا التسلسل فيهما جميعًا، وقالوا بالقدم وأزمان لا نهاية لها وبالامتداد وأبعاد لا نهاية لها، وهم وإن خالفونا في المسألتين جميعًا والفلاسفة وافقونا في إحداهما دون الأخرى، لكنهم سلكوا جادة الوهم ولم يتركوا على أنفسهم سبيل الالتزام في الأزمان، فإن قيل: فالمتجدد الأول قبله ماذا؟ نقول: ليس قبله شيء. فإن قيل: فعدمه قبله أو قبله عدمه؟ نقول قولنا ليس قبله شيء أعم من قولك قبله عدمه، لأنا إذا قلنا: ليس قبل آدم حيوان بألف رأس، صدقنا ولا يستلزم ذلك صدق قولنا آدم قبل حيوان بألف رأس أو حيوان بألف رأس بعد آدم؛ لانتفاء ذلك الحيوان أولاً وآخرًا وعدم دخوله في الوجود أزلاً وأبدًا، فكذلك ما قلنا، فإن قيل: هذا لا يصح؛ لأن الله تعالى شيء موجود وهو قبل العالم، نقول: قولنا: (ليس قبل المتجدد الأول شيء) معناه ليس قبله شيء بالزمان، وأما الله تعالى فليس قبله بالزمان إذ كان الله ولا زمان، والزمان وُجد مع المتجدد الأول، فإن قيل: فما معنى وجود الله قبل كل شيء غيره؟ نقول: معناه كان الله ولم يكن شيء غيره. لا يقال: ما ذكرتم إثبات شيء بشيء ولا يثبت ذلك الشيء إلا بما ترومون إثباته، فإن بداية الزمان غرضكم وهو مبني على المتجدد الأول، والنزاع في المتجدد، فإن عند الخصم ليس في الوجود متجدد أول بل قبل كل متجدد؛ لأنا نقول: نحن ما ذكرنا ذلك دليلاً، وإنما ذكرناه بيانًا لعدم الإلزام، وأنه لا يرد علينا شيء إذا قلنا بالحدوث ونهاية الأبعاد واللزم والإلزام، فيسلم الكلام الأول، ثم يلزم ويقول: ألست تقول: إن لنا متجددًا أولاً فكذلك قل: له عدم. فنقول: لا، بل ليس قبله أمر بالزمان، فيكون ذلك نفيًا عامًّا، وإنما يكون ذلك لانتفاء الزمان، كما ذكرنا في المثال، إذا علمت هذا فصار الزمان تارة موجودًا مع عرض وأخرى موجودًا بعد عرض؛ لأن يومنا هذا وغيره من الأيام كلها صارت متميزة بالمتجدد الأول، والمتجدد الأول له زمان هو معه. إذا عرفت أن الزمان والمكان أمرهما مشكل بالنسبة إلى بعض الأفهام والأمر الخفي يُعرف بالوصف والإضافة، فإنك إذا قلت: (غلام) لم يُعرف، فإذا وصفته أو أضفته وقلت: (غلام صغير أو كبير، وأبيض أو أسود) قرب من الفهم، وكذلك إذا قلت (غلام زيد) قرب، ولم يكن بد من معرفة الزمان، ولا يُعرف الشيء إلا بما يختص به، فإنك إذا قلت في الإنسان (حيوان موجود) بعدته عن الفهم، وإذا قلت (حيوان طويل القامة) قربته منه، ففي الزمان كان يجب أن يُعرف بما يختص به لأن الفعل الماضي والمستقبل والحال يختص بأزمنة، والمصدر له زمان مطلق، فلو قلت: (زمان الخروج) تميز عن زمان الدخول وغيره، فإذا قلت: (يوم خرج) أفاد ما أفاد قولك يوم الخروج مع زيادة هو أنه تميز عن يوم يخرج، والإضافة إلى ما هو أشد تمييزًا أَوْلى، كما

أنك إذا قلت (غلام رجل) ميزته عن غلام امرأة، وإذا قلت (غلام زيد) زدت عليه في الإفادة وكان أحسن، كذلك قولنا (يوم خرج) لتعريف ذلك اليوم خير من قولك (يوم الخروج)، فظهر من هذا البحث أن الزمان يضاف إلى الفعل، وغيره لا يضاف لاختصاص الفعل بالزمان دون غيره إلا المكان في قوله: (اجلس حيث يجلس)، فإن (حيث) يضاف إلى الجمل لمشابهة ظرف المكان لظرف الزمان، وأما الجمل فهي إنما يصح بواسطة تضمنها الفعل، فلا يقال (يوم زيد) أخوك، ويقال: يوم زيد فيه خارج.

ومن جملة الفوائد اللفظية: أن (لات) يختص استعمالها بالزمان، قال الله تعالى: ﴿وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ [ص: ٣] ولا يقال: لات الرجل سوء، وذلك لأن الزمان تجدد بعد تجدد ولا يبقى بعد الفناء حياة أخرى، وبعد كل حركة حركة أخرى، وبعد كل زمان زمان، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩] أي قبل الخلق لم يخلق شيئًا، لكنه بعد ما خلق فهو أبدًا دائمًا يخلق شيئًا بعد شيء، فبعد حياتنا موت، وبعد موتنا حياة، وبعد حياتنا حساب، وبعد الحساب ثواب دائم أو عقاب لازم، ولا يترك الله الفعل، فلما بعُد الزمان عن النفي زِيد في الحروف النافية زيادة، فإن قيل: فالله تعالى أبعد عن الانتفاء فكان ينبغي أن لا تقرن التاء بكلمة (لا) هناك. نقول: ﴿وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ [ص: ٣] تأويل وعليه لا يرد ما ذكرتم وهو أن لا هي المشبهة بليس تقديره: ليس الحين حين مناص. وهو المشهور، ولذلك اختص بالحين دون اليوم والليل لأن الحين أدوم من الليل والنهار، فالليل والنهار قد لا يكون والحين يكون.

قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾﴾

أي إذا علم أن عذاب الله واقع وأنه ليس له دافع، فويل إذًا للمكذبين. فالفاء لاتصال المعنى، وهو الإيذان بأمان أهل الإيمان، وذلك لأنه لما قال: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ﴾ [الطور: ٧] لم يبين بأن موقعه بمَن، فلما قال: ﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ عُلم المخصوص به وهو المكذب.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: إذا قلت بأن قوله: ﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ بيان لمن يقع به العذاب وينزل عليه، فمن لا يكذب لا يعذب، فأهل الكبائر لا يعذبون لأنهم لا يكذبون. نقول: ذلك العذاب لا يقع على أهل الكبائر، وهذا كما في قوله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُواْ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا﴾ [الملك: ٨، ٩] فنقول: المؤمن لا يلقى فيها إلقاء بهوان، وإنما يدخل فيها ليظهر إدخال مع نوع إكرام، فكذلك الويل للمكذبين، والويل ينبئ عن الشدة وتركيب حروف الواو والياء واللام لا ينفك عن نوع شدة، منه (لوى) إذا دفع ولوى يلوي إذا كان قويًا والولي فيه القوة على المولى عليه، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿يُدَعُّونَ﴾ [الطور: ١٣] فإن المكذب يُدَعّ والمصدق لا يُدَعّ، وقد ذكرنا جواز التنكير في قوله: ﴿فَوَيْلٌ﴾ مع كونه مبتدأ لأنه في تقدير

المنصوب لأنه دعاء، ومضى وجهه في قوله تعالى: ﴿قَالَ سَلَٰمٌ﴾ [الذاريات: ٢٥] والخوض نفسه خص في استعمال القرآن بالاندفاع في الأباطيل؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟﴾ [التوبة: ٦٩] وقال تعالى: ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ﴾ [المدثر: ٤٥] وتنكير الخوض يحتمل وجهين:

أحدهما: أن يكون للتكثير، أي في خوض كامل عظيم.

ثانيهما: أن يكون التنوين تعويضًا عن المضاف إليه، كما في قوله تعالى: ﴿إِلًّا﴾ [التوبة: ٨] وقوله: ﴿وَكُلًّا﴾ [هود: ١١١] و﴿بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ [الحج: ٤٠]. والأصل في خوضهم المعروف منهم.

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ﴾ ليس وصفًا للمكذبين بما يميزهم، وإنما هو للذم، كما أنك تقول: (الشيطان الرجيم) ولا تريد فصله عن الشيطان الذي ليس برجيم، بخلاف قولك: (أكرِم الرجل العالم)، فالوصف بالرجيم للذم به لا للتعريف وتقول في المدح: الله الذي خلق، والله العظيم للمدح لا للتمييز ولا للتعريف عن إله لم يخلق أو إله ليس بعظيم، فإن الله واحد لا غير.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ۝١٣ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝١٤﴾

ثم قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ وفيه مباحث لفظية ومعنوية:

أما اللفظية ففيها مسائل:

المسألة الأولى: ﴿يَوْمَ﴾ منصوب بماذا؟ نقول: الظاهر أنه منصوب بما بعده، وهو ما يدل عليه قوله تعالى: ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ﴾ تقديره: يوم يُدَعُّون يقال لهم: هذه النار التي كنتم بها تكذبون. ويحتمل غير هذا وهو أن يكون يوم بدلاً عن يوم في يومئذٍ، تقريره: فويل يومئذٍ للمكذبين ويوم يُدَعُّون أي المكذبون وذلك أن قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ [الطور: ١١] معناه يوم يقع العذاب، وذلك اليوم هو يوم يُدَعُّون فيه إلى النار.

المسألة الثانية: قوله: ﴿يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ﴾ يدل على هول نار جهنم؛ لأن خزنتها لا يقربون منها، وإنما يدفعون أهلها إليها من بعيد ويلقونهم فيها، وهم لا يقربونها.

المسألة الثالثة: ﴿دَعًّا﴾ مصدر، وقد ذكرت فائدة ذكر المصادر وهي الإيذان بأن الدع دعٌّ معتبر يقال: له: دع ولا يقال فيه: ليس بدعّ، كما يقول القائل في الضرب الخفيف مستحقرًا له: هذا ليس بضرب. والعدو المهين: هذا ليس بعدو. في غير المصادر، والرجل الحقير ليس برجل إلا على قراءة من قرأ: (يوم يُدْعَون إلى نار جهنم دعاء) فإن دعاء حينئذٍ يكون منصوبًا على الحال، تقديره: يقال لهم: هلموا إلى النار مدعوين إليها.

أما المعنوية فنقول: قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ﴾ يدل على أن خزنتها يقذفونهم فيها وهم بعداء عنها، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ﴾ [القمر: ٤٨] نقول: الجواب عنه من وجوه: أحدها: أن الملائكة يسحبونهم في النار، ثم إذا قربوا من نار مخصوصة هي نار جهنم يقذفونهم فيها من بعيد، فيكون السحب في النار والدفع في نار أشد وأقوى، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿يُسْحَبُونَ﴾ [غافر: ٧١، ٧٢] أي يكون لهم سَحْب في حموة النار، ثم بعد ذلك يكون لهم إدخال.

الثاني: جاز أن يكون في كل زمان يتولى أمرهم ملائكة، فإلى النار يدفعهم ملك، وفي النار يسحبهم آخر.

الثالث: جاز أن يكون السحب بسلاسل يسحبون في النار، والساحب خارج النار.

الرابع: يحتمل أن يكون الملائكة يدفعون أهل النار إلى النار إهانة واستخفافًا بهم، ثم يدخلون معهم النار ويسحبونهم فيها.

ثم قال تعالى: ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ على تقدير: يقال.

قوله تعالى: ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ۝١٥ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝١٦ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ۝١٧﴾

ثم قال تعالى: ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ تحقيقًا للأمر، وذلك لأن من يرى شيئًا ولا يكون الأمر على ما يراه، فذلك الخطأ يكون لأجل أحد أمرين: إما لأمر عائد إلى المرئي وإما لأمر عائد إلى الرائي، فقوله: ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ﴾ أي هل في المرئي شك أم هل في بصركم خلل؟ استفهام إنكار، أي لا واحد منها ثابت، فالذي ترونه حق وقد كنتم تقولون: إنه ليس بحق، وإنما قال: ﴿أَفَسِحْرٌ﴾ وذلك أنهم كانوا ينسبون المرئيات إلى السحر، فكانوا يقولون بأن انشقاق القمر وأمثاله: سِحر، وفي ذلك اليوم لما تعلق بهم مع البصر الألم المدرك بحس اللمس وبلغ الإيلام الغاية، لم يمكنهم أن يقولوا هذا سحر، وإلا لما صح منهم طلب الخلاص من النار.

ثم قال تعالى: ﴿ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي إذا لم يمكنكم إنكارها وتحقق أنه ليس بسحر ولا خلل في أبصاركم، فاصلوها.

وقوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ﴾ فيه فائدتان: إحداهما: بيان عدم الخلاص وانتفاء المناص، فإن من لا يصبر يدفع الشيء عن نفسه إما بأن يدفع المعذِّب فيمنعه وإما بأن يغضبه فيقتله ويريحه، ولا شيء من ذلك يفيد في عذاب الآخرة، فإن من لا يغلب المعذِّب فيدفعه ولا يتخلص بالإعدام فإنه لا يقضى عليه فيموت، فإذن الصبر كعدمه؛ لأن من يصبر يدوم فيه، ومن لا يصبر يدوم فيه. الثانية: بيان ما يتفاوت به عذاب الآخرة عن عذاب الدنيا، فإن المُعذِّب في الدنيا إن صبر ربما انتفع بالصبر إما بالجزاء في الآخرة، وإما بالحمد في الدنيا، فيقال له ما أشجعه وما أقوى قلبه!! وإن جزع يُذم، فيقال: يجزع كالصبيان والنسوان، وأما في الآخرة لا مدح ولا ثواب على الصبر.

وقوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ﴾ ﴿سَوَآءٌ﴾ خبر، ومبتدأه مدلول عليه بقوله: ﴿فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ﴾ كأنه يقول: الصبر وعدمه سواء، فإن قيل يلزم الزيادة في التعذيب، ويلزم التعذيب على المنوي الذي لم يفعله. نقول: فيه لطيفة، وهي أن المؤمن بإيمانه استفاد أن الخير الذي ينويه يثاب عليه، والشر الذي ينويه ولا يحققه لا يعاقب عليه، والكافر بكفره صار على الضد، فالخير الذي ينويه ولا يعمله لا يثاب عليه، والشر الذي يقصده ولا يقع منه يعاقب عليه ولا ظلم، فإن الله

تعالى أخبره به، وهو اختار ذلك ودخل فيه باختياره، كأن الله تعالى قال: فإن من كفر ومات كافرًا أُعذبه أبدًا فاحذروا، ومن آمن أثيبه دائمًا، فمن ارتكب الكفر ودام عليه بعد ما سمع ذلك، فإذا عاقبه المعاقب دائمًا تحقيقًا لما أوعده به، لا يكون ظالمًا.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ﴾ على ما هو عادة القرآن من بيان حال المؤمن بعد بيان حال الكافر، وذِكر الثواب عقيب ذكر العقاب ليتم أمر الترهيب والترغيب، وقد ذكرنا تفسير المتقين في مواضع، والجنة وإن كانت موضع السرور، لكن الناطور قد يكون في البستان الذي هو غاية الطيبة وهو غير متنعم، فقوله: ﴿وَنَعِيمٍ﴾ يفيد أنهم فيها يتنعمون، كما يكون المتفرج لا كما يكون الناطور.

قوله تعالى: ﴿فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾﴾

وقوله: ﴿فَٰكِهِينَ﴾ يزيد في ذلك لأن المتنعم قد يكون آثار التنعم على ظاهره وقلبه مشغول، فلما قال: ﴿فَٰكِهِينَ﴾ يدل على غاية الطيبة، وقوله: ﴿بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ يفيد زيادة في ذلك؛ لأن الفكه قد يكون خسيس النفس فيسره أدنى شيء ويفرح بأقل سبب، فقال: ﴿فَٰكِهِينَ﴾ لا لدنو هِممهم بل لعلو نِعمهم حيث هي من عند ربهم.

وقوله تعالى: ﴿وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ يحتمل وجهين: أحدهما: أن يكون المراد أنهم فاكهون بأمرين: أحدهما: بما آتاهم، والثاني: بأنه وقاهم. وثانيهما: أن يكون ذلك جملة أخرى منسوقة على الجملة الأولى، كأنه بيّن أنه أدخلهم جنّات ونعيمًا ﴿وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ فيه بيان أسباب التنعيم على الترتيب، فأول ما يكون المسكن وهو الجنّات، ثم الأكل والشرب، ثم الفرش والبُسُط ثم الأزواج، فهذه أمور أربعة ذكرها الله على الترتيب، وذكر في كل واحد منها ما يدل على كماله قوله: ﴿جَنَّٰتٍ﴾ إشارة إلى المسكن والمسكن للجسم ضروري وهو المكان، فقال: ﴿فَٰكِهِينَ﴾ لأن مكان التنعيم قد ينتغص بأمور، وبين سبب الفكاهة وعلو المرتبة يكون مما آتاهم الله، وقد ذكرنا هذا، وأما في الأكل والشرب والإذن المطلق فترك ذكر المأكول والمشروب لتنوعهما وكثرتهما، وقوله تعالى: ﴿هَنِيٓـًٔۢا﴾ إشارة إلى خلوهما عما يكون فيهما من المفاسد في الدنيا، منها أن الآكل يخاف من المرض فلا يهنأ له الطعام، ومنها أنه يخاف النفاد فلا يسخو بالأكل، والكل منتفٍ في الجنة فلا مرض ولا انقطاع، فإن كل أحد عنده ما يفضل عنه، ولا إثم ولا تعب في تحصيله، فإن الإنسان في الدنيا ربما يترك لذة الأكل لما فيه من تهيئة المأكول بالطبخ والتحصيل من التعب أو المنة أو ما فيه من قضاء الحاجة واستقذار ما فيه، فلا يتهنأ، وكل ذلك في الجنة منتفٍ. وقوله تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ إشارة إلى أنه تعالى يقول أي مع أني ربكم وخالقكم وأدخلتكم بفضلي الجنة، وإنما منتي عليكم في الدنيا إذ هديتكم

ووفقتكم للأعمال الصالحة. كما قال تعالى: ﴿بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ [الحجرات: ١٧]. وأما اليوم فلا من عليكم لأن هذا إنجاز الوعد. فإن قيل: قال في حق الكفار: ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التحريم: ٧] وقال في حق المؤمنين: ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فهل بينهما فرق؟ قلت: بينهما بون عظيم من وجوه: الأول: كلمة ﴿إِنَّمَا﴾ للحصر، أي لا تُجزون إلا ذلك، ولم يذكر هذا في حق المؤمن فإنه يجزيه أضعاف ما عمل ويزيده من فضله، وحينئذٍ إن كان يمن الله على عبده فيمن بذلك لا بالأكل والشرب. الثاني: قال هنا: ﴿بِمَا كُنْتُمْ﴾ وقال هناك: ﴿مَا كُنْتُمْ﴾ [التحريم: ٧] أي تُجزون عين أعمالكم. إشارة إلى المبالغة في المماثلة كما تقول: (هذا عين ما عملت) وقد تقدم بيان هذا وقال في حق المؤمن: ﴿بِمَا كُنْتُمْ﴾ كأن ذلك أمر ثابت مستمر بعملكم هذا. الثالث: ذكر الجزاء هناك وقال هاهنا: ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ لأن الجزاء ينبئ عن الانقطاع فإن مَن أحسن إلى أحد فأتى بجزائه لا يتوقع المحسن منه شيئًا آخر. فإن قيل: فالله تعالى قال في مواضع: ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأحقاف: ١٤] في الثواب. نقول: في تلك المواضع لما لم يخاطب المجزي لم يقل تجزى وإنما أتى بما يفيد العالم بالدوام وعدم الانقطاع. وأما في السرر، فذكر أمورًا أيضًا: أحدها: الاتكاء فإنه هيئة تختص بالمنعم والفارغ الذي لا كلفة عليه ولا تكلف لديه، فإن من يكون عنده من يتكلف له يجلس له ولا يتكئ عنده، ومن يكون في مهم لا يتفرغ للاتكاء، فالهيئة دليل خير. ثم الجمع يحتمل أمرين: أحدهما: أن يكون لكل واحد سرر، وهو الظاهر لأن قوله: ﴿مَصْفُوفَةٍ﴾ يدل على أنها لواحد لأن سرر الكل لا تكون في موضع واحد مصطفة، ولفظ السرير فيه حروف السرور بخلاف التخت وغيره، وقوله: ﴿مَصْفُوفَةٍ﴾ دليل على أنه لمجرد العظم فإنها لو كانت متفرقة لقيل في كل موضع واحد ليتكئ عليه صاحبه إذا حضر في هذا الموضع.

وقوله تعالى: ﴿وَزَوَّجْنَاهُم﴾ إشارة إلى النعمة الرابعة وفيها أيضًا ما يدل على كمال الحال من وجوه:

أحدها: أنه تعالى هو المزوج وهو يتولى الطرفين، يزوج عباده بإمائه، ومن يكون كذلك لا يفعل إلا ما فيه راحة العباد والإماء. ثانيها: قال: ﴿وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ﴾ ولم يقل (وزوجناهم حورًا) مع أن لفظة التزويج يتعدى فعله إلى مفعولين بغير حرف يقال (زوجتكها) قال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا﴾ [الأحزاب: ٣٧] وذلك إشارة إلى أن المنفعة في التزويج لهم وإنما زوجوا للذتهم بالحور لا للذة الحور بهم، وذلك لأن المفعول بغير حرف يعلق الفعل به، كذلك التزويج تعلق بهم ثم بالحور، لأن ذلك بمعنى جعلنا ازدواجهم بهذا الطريق وهو الحور. ثالثها: عدم الاقتصار على الزوجات بل وصفهن بالحسن، واختار الأحسن من الأحسن، فإن أحسن ما في صورة الآدمي وجهه، وأحسن ما في الوجه العين، ولأن الحور والعين يدلان على حسن المزاج في الأعضاء ووفرة المادة في الأرواح، أما حسن المزاج فعلامته الحور، وأما وفرة الروح فإن سعة العين بسبب كثرة الروح المصوبة إليها، فإن قيل: قوله: ﴿وَزَوَّجْنَاهُم﴾ ذكره بفعل

ماض و ﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾ حال ولم يسبق ذكر فعل ماضٍ يعطف عليه ذلك، وعطف الماضي على الماضي والمستقبل على المستقبل أحسن، نقول: الجواب من وجوه: اثنان لفظيان ومعنوي: أحدها: أن ذلك حسن في كثير من المواضع، تقول: جاء زيد ويجيء عمرو وخرج زيد. ثانيها: أن قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَنَعِيمٍ﴾ تقديره: أدخلناهم في جنات، وذلك لأن الكلام على تقدير أن في اليوم الذي يُدَعّ الكافر في النار في ذلك الوقت يكون المؤمن قد أُدخل مكانه، فكأنه تعالى يقول: في يوم يُدَعُّون إلى نار جهنم إن المتقين كائنون في جنّات. والثالث: المعنوي، وهو أنه تعالى ذكر مجزاة الحكم، فهو في هذا اليوم زَوَّج عباده حورًا عينًا، وهن منتظرات الزفاف يوم الآزفة.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَـٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَـٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ۚ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَـٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ **وفيه لطائف:**

الأولى: أن شفقة الأبوة كما هي في الدنيا متوفرة كذلك في الآخرة، ولهذا طيَّب الله تعالى قلوب عباده بأنه لا يولههم بأولادهم بل يجمع بينهم، فإن قيل: قد ذكرت في تفسير بعض الآيات أن الله تعالى يسلي الآباء عن الأبناء وبالعكس، ولا يتذكر الأب الذي هو من أهل الجنة الابن الذي هو من أهل النار، نقول: الولد الصغير وُجد في والده الأبوة الحسنة ولم يوجد لها مُعارض ولهذا ألحق الله الولد بالوالد في الإسلام في دار الدنيا عند الصغر، وإذا كبر استقل، فإن كفر ينسب إلى غير أبيه، وذلك لأن الإسلام للمسلمين كالأب؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠] جمع أخ بمعنى أخوة الولادة، والإخوان جمعه بمعنى أخوة الصداقة والمحبة، فإذن الكفر من حيث الحس والعرف أب، فإن خالف دينه دين أبيه صار له من حيث الشرع أب آخر، وفيه إرشاد الآباء إلى أن لا يشغلهم شيء عن الشفقة على الولد فيكون من القبيح الفاحش أن يشتغل الإنسان بالتفرج في البستان مع الأحبة الإخوان وعن تحصيل قوت الولدان، وكيف لا يشتغل أهل الجنة بما في الجنة من الحور العين عن أولادهم حتى ذكروهم فأراح الله قلوبهم بقوله: ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ وإذا كان كذلك فما ظنك بالفاسق الذي يبذر ماله في الحرام ويترك أولاده يتكففون وجوه اللئام والكرام، نعوذ بالله منه، وهذا يدل على أن من يورث أولاده مالاً حلالاً يُكتب له به صدقة، ولهذا لمَ يُجوز للمريض التصرف في أكثر من الثلث.

اللطيفة الثانية: قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم﴾ (١) فهذا ينبغي أن يكون دليلاً على أنا في الآخرة

---

(١) في الطبعة الأميرية (وأتبعناهم ذرياتهم) في الموضعين، وهي قراءة، وعليها جرى المفسر في تفسيره، وهي لا تفيد إيمان الذرية، بخلاف قراءة حفص (وابتعتهم ذريتهم) فهي تفيد إيمان الذرية، مع أن الذرية تابعة لأصلها لسقوط التكليف بل إن أولاد غير المؤمنين هم على فطرة الإيمان، بدليل الحديث: «كل مولود يولد على الفطرة، وأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه» (هامش).

نلحق بهم لأن في دار الدنيا مراعاة الأسباب أكثر. ولهذا لم يجر الله عادته على أن يقدم بين يدي الإنسان طعامًا من السماء، فما يتسبب له بالزراعة والطحن والعجن لا يأكله، وفي الآخرة يؤتيه ذلك من غير سعي جزاء له على ما سعى له من قبل، فينبغي أن يجعل ذلك دليلاً ظاهرًا على أن الله تعالى يلحق به ولده وإن لم يعمل عملاً صالحًا كما أتبعه، وإن لم يشهد ولم يعتقد شيئًا.

اللطيفة الثالثة: في قوله تعالى: ﴿بِإِيمَٰنٍ﴾ فإن الله تعالى أتبع الولد الوالدين في الإيمان ولم يتبعه أباه في الكفر، بدليل أن من أسلم من الكفار حكم بإسلام أولاده، ومن ارتد من المسلمين والعياذ بالله لا يُحكم بكفر ولده.

اللطيفة الرابعة: قال في الدنيا: ﴿وَٱتَّبَعَتْهُمْ﴾ وقال في الآخرة: ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ﴾ وذلك لأن في الدنيا لا يدرك الصغير التبع مساواة المتبوع، وإنما يكون هو تبعًا والأب أصلاً لفضل الساعي على غير الساعي، وأما في الآخرة فإذا ألحق الله بفضله ولده به، جعل له من الدرجة مثل ما لأبيه.

اللطيفة الخامسة: في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَلَتْنَٰهُم﴾ تطييب لقلبهم وإزالة وهم المتوهم أن ثواب عمل الأب يوزع على الوالد والولد، بل للوالد أجر عمله بفضل السعي، ولأولاده مثل ذلك فضلاً من الله ورحمة.

اللطيفة السادسة: في قوله تعالى: ﴿مِّنْ عَمَلِهِم﴾ ولم يقل من أجرهم، وذلك لأن قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم﴾ دليل على بقاء عملهم كما كان والأجر على العمل مع الزيادة، فيكون فيه الإشارة إلى بقاء العمل الذي له الأجر الكبير الزائد عليه العظيم العائد إليه، ولو قال: ما ألتناهم من أجرهم، لكان ذلك حاصلاً بأدنى شيء لأن كل ما يعطي الله عبده على عمله فهو أجر كامل، ولأنه لو قال تعالى (ما ألتناهم من أجرهم)، كان مع ذلك يحتمل أن يقال: إن الله تعالى تفضّل عليه بالأجر الكامل على العمل الناقص، وأعطاه الأجر الجزيل، مع أن عمله كان له ولولده جميعًا.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ عطف على ماذا؟ نقول: على قوله ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الطور: ١٧].

المسألة الثانية: إذا كان كذلك فلمَ أعاد لفظ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ وكان المقصود يحصل بقوله تعالى: ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ بعد قوله: ﴿وَزَوَّجْنَٰهُم﴾ [الطور: ٢٠] وكان يصير التقدير: وزوجناهم وألحقنا بهم؟ نقول: فيه فائدة وهو أن المتقين هم الذين اتقوا الشرك والمعصية، وهم الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وقال هاهنا ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي بوجود الإيمان يصير ولده من أهل الجنة، ثم إن ارتكب الأب كبيرة أو صغيرة على صغيرة لا يعاقب به ولده بل الوالد، وربما يدخل الجنة الابن قبل الأب، وفيه لطيفة معنوية، وهو أنه ورد في الأخبار أن الولد الصغير يشفع لأبيه وذلك إشارة إلى الجزاء.

المسألة الثالثة: هل يجوز غير ذلك؟ نقول: نعم يجوز أن يكون قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾

عطفًا على ﴿بِحُورٍ عِينٍ﴾ [الطور: ٢٠] تقديره: زوجناهم بحور عين، أي قرناهم بهن، وبالذين آمنوا، إشارة إلى قوله تعالى: ﴿إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧] أي جمعنا شملهم بالأزواج والإخوان والأولاد بقوله تعالى: ﴿وَأَتْبَعْنَاهُمْ﴾ [القصص: ٤٠] وهذا الوجه ذكره الزمخشري والأول أحسن وأصح، فإن قيل: كيف يصح على هذا الوجه الإخبار بلفظ الماضي مع أنه سبحانه وتعالى بعد ما قرن بينهم؟ قلنا: صح في (وزوجناهم) على ما ذكر الله تعالى من تزويجهن منا من يوم خلقهن وإن تأخر زمان الاقتران.

المسألة الرابعة: قرئ (ذرياتهم) في الموضعين بالجمع و(ذريتهم) فيهما بالفرد، وقرئ في الأول (ذرياتهم) وفي الثانية ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ فهل للثالث وجه؟ نقول: نعم معنوي لا لفظي وذلك لأن المؤمن تتبعه ذرياته في الإيمان، وإن لم توجد على معنى أنه لو وجد له ألف ولد لكانوا أتباعه في الإيمان حكمًا، وأما الإلحاق فلا يكون حكمًا إنما هو حقيقة وذلك في الموجود، فالتابع أكثر من الملحوق فجمع في الأول وأفرد الثاني.

المسألة الخامسة: ما الفائدة في تنكير الإيمان في قوله: ﴿وَأَتْبَعْنَاهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ﴾؟ نقول: هو إما التخصيص أو التنكير، كأنه يقول: أتبعناهم ذرياتهم بإيمان مخلص كامل، أو يقول: أتبعناهم بإيمان ما أي شيء منه، فإن الإيمان كاملاً لا يوجد في الولد بدليل أن من له ولد صغير حُكم بإيمانه فإذا بلغ وصرّح بالكفر وأنكر التبعية قيل بأنه لا يكون مرتدًا وتبين بقول إنه لم يتبع وقيل بأنه يكون مرتدًا لأنه كفر بعد ما حكم بإيمانه كالمسلم الأصلي، فإذن بهذا الخلاف تبين أن إيمانه يقوى، وهذان الوجهان ذكرهما الزمخشري، ويحتمل أن يكون المراد غير هذا، وهو أن يكون التنوين للعوض عن المضاف إليه كما في قوله تعالى: ﴿بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ [البقرة: ٢٥١] وقوله تعالى: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾ [النساء: ٩٥] وبيانه هو أن التقدير: أتبعناهم ذرياتهم بإيمان، أي بسبب إيمانهم لأن الاتباع ليس بإيمان كيف كان وممن كان، وإنما هو إيمان الآباء لكن الإضافة تنبئ عن تقييد وعدم كون الإيمان إيمانًا على الإطلاق، فإن قول القائل: ماء الشجر وماء الرمان، يصح وإطلاق اسم الماء من غير إضافة لا يصح فقوله: ﴿بِإِيمَانٍ﴾ يوهم أنه إيمان مضاف إليهم، كما قال تعالى: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ [غافر: ٨٥] حيث أثبت الإيمان المضاف ولم يكن إيمانًا، فقطع الإضافة مع إرادتها ليعلم أنه إيمان صحيح، وعوض التنوين ليعلم أنه لا يوجب الأمان في الدنيا إلا إيمان الآباء، وهذا وجه حسن.

ثم قال تعالى: ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ قال الواحدي: هذا عود إلى ذكر أهل النار فإنهم مرتهنون في النار، وأما المؤمن فلا يكون مرتهنًا، قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ﴾ [المدثر: ٣٨، ٣٩] وهو قول مجاهد، وقال الزمخشري ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ عام في كل أحد مرهون عند الله بالكسب، فإن كسب خيرًا فك رقبته وإلا أربق بالرهن. والذي يظهر منه أنه عام في حق كل أحد، وفي الآية وجه آخر وهو أن يكون الرهين فعيلاً بمعنى الفاعل، فيكون

المعنى، والله أعلم: كل امرئ بما كسب راهن أي دائم، إن أحسن ففي الجنة مؤبدًا، وإن أساء ففي النار مخلدًا. وقد ذكرنا أن في الدنيا دوام الأعمال بدوام الأعيان، فإن العَرَض لا يبقى إلا في جوهر ولا يوجد إلا فيه، وفي الآخرة دوام الأعيان بدوام الأعمال، فإن الله يبقي أعمالهم لكونها عند الله تعالى من الباقيات الصالحات، وما عند الله باقٍ والباقي يبقى مع عامله.

قوله تعالى: ﴿وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾

أي زدناهم مأكولاً ومشروبًا، أما المأكول فالفاكهة واللحم، وأما المشروب فالكأس الذي يتنازعون فيها. **وفي تفسيرها لطائف:**

اللطيفة الأولى: لما قال: ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الطور: ٢١] بيّن الزيادة ليكون ذلك جاريًا على عادة الملوك في الدنيا إذا زادوا في حق عبد من عبيدهم يزيدون في أقدار أخبازهم وأقطاعهم، واختار من المأكول أرفع الأنواع وهو الفاكهة واللحم فإنهما طعام المتنعمين، وجَمَع أوصافًا حسنة في قوله: ﴿مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ لأنه لو ذكر نوعًا فربما يكون ذلك النوع غير مشتهى عند بعض الناس فقال: كل أحد يعطى ما يشتهي، فإن قيل: الاشتهاء كالجوع وفيه نوع ألم. نقول: ليس كذلك، بل الاشتهاء به اللذة، والله تعالى لا يتركه في الاشتهاء بدون المشتهى حتى يتألم، بل المشتهى حاصل مع الشهوة والإنسان في الدنيا لا يتألم إلا بأحد أمرين: إما باشتهاء صادق وعجزه عن الوصول إلى المشتهى، وإما بحصول أنواع الأطعمة والأشربة عنده وسقوط شهوته، وكلاهما منتفٍ في الآخرة.

اللطيفة الثانية: لما قال: ﴿وَمَآ أَلَتْنَٰهُم﴾ ونفي النقصان يصدق بحصول المساوي، فقال: ليس عدم النقصان بالاقتصار على المساوي، بطريق آخر وهو الزيادة والإمداد، فإن قيل: أكثر الله من ذكر الأكل والشرب، وبعض العارفين يقولون لخاصة الله: بالله شغل شاغل عن الأكل والشرب وكل ما سوى الله. نقول: هذا على العمل، ولهذا قال تعالى: ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الواقعة: ٢٤] وقال: ﴿مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٦] وأما على العلم بذلك فذلك، ولهذا قال: ﴿لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس: ٥٧، ٥٨] أي للنفوس ما تتفكه به، وللأرواح ما تتمناه من القربة والزلفى.

وقوله تعالى: ﴿يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا﴾ فيكون ذلك على عادة الملوك إذا جلسوا في مجالسهم للشرب، يدخل عليهم بفواكه ولحوم وهم على الشرب.

وقوله تعالى: ﴿يَتَنَٰزَعُونَ﴾ أي يتعاطون. ويحتمل أن يقال: التنازع: التجاذب، وحينئذٍ يكون تجاذبهم تجاذب ملاعبة لا تجاذب منازعة، وفيه نوع لذة وهو بيان ما هو عليه حال الشراب في الدنيا فإنهم يتفاخرون بكثرة الشرب ولا يتفاخرون بكثرة الأكل؛ ولهذا إذا شرب أحدهم يرى الآخر واجبًا أن يشرب مثل ما شربه حريفه، ولا يرى واجبًا أن يأكل مثل ما أكل نديمه وجليسه.

وقوله تعالى: ﴿لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾ وسواء قلنا: (فيها) عائدة إلى الجنة أو إلى الكأس، فذكرهما لجريان ذكر الشراب وحكايته على ما في الدنيا، فقال تعالى: ليس في الشرب في الآخرة كل ما فيه في الدنيا من اللغو بسبب زوال العقل، ومن التأثيم الذي بسبب نهوض الشهوة والغضب عند وفور العقل والفهم. وفيه وجه ثالث، وهو أن يقال: لا يعتريه كما يعتري الشارب بالشرب في الدنيا فلا يؤثم، أي لا يُنسب إلى إثم. وفيه وجه رابع، وهو أن يكون المراد من التأثيم: السُّكْر، وحينئذٍ يكون فيه ترتيب حسن وذلك لأن من الناس من يسكر ويكون رزين العقل عديم اعتياد العربدة، فيسكن وينام ولا يؤذي ولا يتأذى ولا يهذي ولا يسمع إلى من هذى، ومنهم من يعربد فقال: ﴿لَّا لَغْوٌ فِيهَا﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾﴾ أي بالكؤوس، وقال تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ [الواقعة: ١٧، ١٨] وقوله: ﴿لَّهُمْ﴾ أي ملكهم إعلامًا لهم بقدرتهم على التصرف فيهم بالأمر والنهي والاستخدام وهذا هو المشهور، ويحتمل وجهًا آخر وهو أنه تعالى لما بيّن امتياز خمر الآخرة عن خمر الدنيا، بيَّن امتياز غلمان الآخرة عن غلمان الدنيا، فإن الغلمان في الدنيا إذا طافوا على السادة الملوك يطوفون عليهم لحظ أنفسهم إما لتوقع النفع أو لتوفر الصفح، وأما في الآخرة فطوفهم عليهم متمخض لهم ولنفعهم ولا حاجة لهم إليهم، والغلام الذي هذا شأنه له مزية على غيره وربما يبلغ درجة الأولاد. وقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ﴾ أي في الصفاء، و﴿مَّكْنُونٌ﴾ ليفيد زيادة في صفاء ألوانهم، أو لبيان أنهم كالمُخدَّرات لا بروز لهم ولا خروج من عندهم فهم في أكنافهم.

ثم قال تعالى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾﴾ إشارة إلى أنهم يعلمون ما جرى عليهم في الدنيا ويذكرونه، وكذلك الكافر لا ينسى ما كان له من النعيم في الدنيا، فتزداد لذة المؤمن من حيث يرى نفسه انتقلت من السجن إلى الجنة ومن الضيق إلى السعة، ويزداد الكافر ألمًا حيث يرى نفسه منتقلة من الشرف إلى التلف ومن النعيم إلى الجحيم، ثم يتذكرون ما كانوا عليه في الدنيا من الخشية والخوف، فيقولون ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ وهو أنهم يكون تساؤلهم عن سبب ما وصلوا إليه فيقولون: خشية الله، كنا نخاف الله ﴿فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾ وفيه لطيفة وهو أن يكون إشفاقهم على فوات الدنيا والخروج منها ومفارقة الإخوان، ثم لما نزلوا الجنة علموا خطأهم.

قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾﴾

وتعلق الآية بما قبلها ظاهر؛ لأنه تعالى بيّن أن في الوجود قومًا يخافون الله ويشفقون في أهليهم، والنبي ﷺ مأمور بتذكير من يخاف الله تعالى بقوله: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥] فحقق من يذكره فوجب التذكير، وأما الرسول عليه السلام فليس له إلا الإتيان بما أُمر به.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: في الفاء في قوله: ﴿فَذَكِّرْ﴾ قد علم تعلقه بما قبله فحسن ذكره بالفاء.

المسألة الثانية: معنى الفاء في قوله: ﴿فَمَآ أَنتَ﴾ أيضًا قد علم، أي أنك لست بكاهن فلا تتغير ولا تتبع أهواءهم، فإن ذلك سيرة المزور فذكر فإنك لست بمزور، وذلك سبب التذكير.

المسألة الثالثة: ما وجه تعلق قوله: ﴿نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ بقوله: ﴿شَاعِرٌ﴾؟ نقول: فيه وجهان: الأول: أن العرب كانت تحترز عن إيذاء الشعراء وتتقي ألسنتهم، فإن الشعر كان عندهم يُحفظ ويُدون، وقالوا: لا نعارضه في الحال مخافة أن يغلبنا بقوة شعره، وإنما سبيلنا الصبر وتربص موته. الثاني: أنه ﷺ كان يقول: إن الحق دين الله، وإن الشرع الذي أتيت به يبقى أبد الدهر، وكتابي يتلى إلى قيام الساعة. فقالوا: ليس كذلك إنما هو شاعر، والذي يذكره في حق آلهتنا شعر، ولا ناصر له وسيصيبه من بعض آلهتنا الهلاك فنتربص به ذلك.

المسألة الرابعة: ما معنى ريب المنون؟ نقول: قيل: هو اسم للموت فعَول من المن وهو القطع والموت قَطوع، ولهذا سمي بمنون، وقيل: المنون الدهر، وريبه: حوادثه، وعلى هذا قولهم ﴿نَّتَرَبَّصُ﴾ يحتمل وجهًا آخر، وهو أن يكون المراد أنه إذا كان شاعرًا فصروف الزمان ربما تُضعف ذهنه وتورث وهنه فيتبين لكلٍّ فساد أمره وكساد شعره.

المسألة الخامسة: كيف قال: ﴿تَرَبَّصُوا۟﴾[الطور: ٣١] بلفظ الأمر وأمر النبي ﷺ يوجب المأمور (به) أو يفيد جوازه، وتربصهم ذلك كان حرامًا؟ نقول: ذلك ليس بأمر وإنما هو تهديد، معناه تربصوا ذلك فإنا نتربص الهلاك بكم، على حد ما يقول السيد الغضبان لعبده: (افعل ما شئت فإني لست عنك بغافل) وهو أمر لتهوين الأمر على النفس، كما يقول القائل لمن يهدده برجل ويقول: أشكوك إلى زيد فيقول: (اشكني) أي لا يهمني ذلك، وفيه زيادة فائدة، وذلك لأنه لو قال: (لا تشكني) لكان ذلك دليل الخوف وينافيه معناه، فأتى بجواب تام من حيث اللفظ والمعنى، فإن قيل: لو كان كذلك لقال: (تربصوا أو لا تربصوا) كما قال: ﴿فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟﴾[الطور: ١٦] نقول: ليس كذلك لأنه إذا قال القائل فيما ذكرناه من المثال: (اشكني أو لا تشكني) يكون ذلك مفيدًا عدم خوفه منه، فإذا قال: (اشكني) يكون أدل على عدم الخوف، فكأنه يقول أنا فارغ عنه، وإنما أنت تتوهم أنه يفيد فافعل حتى يبطل اعتقادك.

المسألة السادسة: في قوله تعالى: ﴿فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ﴾ وهو يحتمل وجوهًا: أحدها: إني معكم من المتربصين أتربص هلاككم. وقد أهلكوا يوم بدر وفي غيره من الأيام، هذا ما عليه الأكثرون. والذي نقوله في هذا المقام هو أن الكلام يحتمل وجوهًا، وبيانها هو أن قوله تعالى: ﴿نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ إن كان المراد من المنون الموت فقوله: ﴿فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ﴾ معناه إني أخاف الموت ولا أتمناه لا لنفسي ولا لأحد؛ لعدم علمي بما قدمت يداه وإنما أنا نذير وأنا أقول ما قال ربي: ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٤٤] فتربصوا موتي وأنا متربصه، ولا يسركم ذلك لعدم حصول ما تتوقعون بعدي. ويحتمل أن يكون كما قيل تربصوا موتي فإني متربص موتكم بالعذاب. وإن قلنا: المراد من ريب المنون صروف الدهر، فمعناه إنكار كون صروف الدهر مؤثرة، فكأنه يقول: أنا من المتربصين حتى أبصر ماذا يأتي به دهركم الذي تجعلونه مهلكًا وماذا يصيبني منه. وعلى التقديرين فنقول: النبي ﷺ يتربص ما يتربصون، غير أن في الأول تربصه مع اعتقاد الوقوع، وفي الثاني تربصه مع اعتقاد عدم التأثير، على طريقة من يقول أنا أيضًا أنتظر ما ينتظره حتى أرى ماذا يكون منكرًا عليه وقوع ما يتوقع وقوعه، وإنما هذا لأن ترك المفعول في قوله: ﴿فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ﴾ لكونه مذكورًا وهو ريب المنون أوْلى من تركه وإرادة غير المذكور وهو العذاب. الثاني: أتربص صروف الدهر ليظهر عدم تأثيرها فهو لم يتربص بهم شيئًا على الوجهين، وعلى هذا الوجه يتربص بقاءه بعدهم وارتفاع كلمته، فلم يتربص بهم شيئًا على الوجوه التي اخترناها فقال: ﴿فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾﴾

و(أم) هذه أيضًا على ما ذكرنا متصلة، تقديرها: أُنزل عليهم ذكر؟ أم تأمرهم أحلامهم بهذا؟ وذلك لأن الأشياء إما أن تثبت بسمع وإما أن تثبت بعقل، فقال: هل ورد أمر سمعي؟ أم عقولهم تأمرهم بما كانوا يقولون؟ أم هم قوم طاغون يغترون، ويقولون ما لا دليل عليه سمعًا ولا مقتضى له عقلاً؟ والطغيان مجاوزة الحد في العصيان، وكذلك كل شيء ظاهره مكروه، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ﴾ [الحاقة: ١١].

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: إذا كان المراد ما ذكرت فلمَ أسقط ما يصدر به؟ تقول: لأن كون ما يقولون به مسندًا إلى نقل معلوم عدمه لا ينفى، وأما كونه معقولاً فهم كانوا يدعون أنه معقول، وأما كونهم طاغين فهو حق، فخص الله تعالى بالذكر ما قالوا به وقال الله به، فهم قالوا نحن نتبع العقل. والله تعالى قال: هم طاغون. فذكر الأمرين اللذين وقع فيهما الخلاف.

المسألة الثانية: قوله: ﴿تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم﴾ إشارة إلى أن كل ما لا يكون على وفق العقل لا ينبغي

أن يقال، وإنما ينبغي أن يقال ما يجب قوله عقلاً، فهل صار (كل) واجب عقلاً مأمورًا به؟

المسألة الثالثة: ما الأحلام؟ نقول: جمع حلم وهو العقل، وهما من باب واحد من حيث المعنى؛ لأن العقل يضبط المرء فيكون كالبعير المعقول لا يتحرك من مكانه، والحلم من الحلم وهو أيضًا سبب وقار المرء وثباته، وكذلك يقال للعقول النُّهى من النَّهي وهو المنع، وفيه معنى لطيف وهو أن الحلم في أصل اللغة هو ما يراه النائم فيُنزل ويلزمه الغسل، وهو سبب البلوغ وعنده يصير الإنسان مكلفًا، وكأن الله تعالى من لطيف حكمته قرن الشهوة بالعقل وعند ظهور الشهوة كمل العقل فأشار إلى العقل بالإشارة إلى ما يقارنه وهو الحلم؛ ليعلم أنه نذير كمال العقل، لا العقل الذي به يحترز الإنسان الشرك ودخول النار، وعلى هذا ففيه تأكيد لما ذكرنا أن الإنسان لا ينبغي أن يقول كل معقول، بل لا يقول إلا ما يأمر به العقل الرزين الذي يصحح التكليف.

المسألة الرابعة: (هذا) إشارة إلى ماذا؟ نقول: فيه وجوه: الأول: أن يكون هذا إشارة مهمة، أي بهذا الذي يظهر منهم قولاً وفعلاً حيث يعبدون الأصنام والأوثان ويقولون الهذيان من الكلام. الثاني: هذا إشارة إلى قولهم هو كاهن هو شاعر هو مجنون. الثالث: هذا إشارة إلى التربص فإنهم لما قالوا: (نتربص) قال الله تعالى: أعقولهم تأمرهم بتربص هلاكهم؟! فإن أحدًا لم يتوقع هلاك نبيه إلا وهلك.

المسألة الخامسة: هل يصح أن تكون (أم) في هذا الموضع بمعنى بل؟ نقول: نعم، تقديره يقولون: إنه شاعر قولاً بل يعتقدونه عقلاً ويدخل في عقولهم ذلك، أي ليس ذلك قولاً منهم من غير عقل بل يعتقدون كونه كاهنًا ومجنونًا، ويدل عليه قراءة من قرأ: (بل هم قوم طاغون)، لكن بل هاهنا واضح وفي قوله: (بل تأمرهم أحلامهم) خفي.

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ وهو متصل بقوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ﴾ [الطور: ٣٠] وتقديره على ما ذكرنا: أتقولون كاهن، أم تقولون شاعر، أم تقوَّله.

ثم قال لبطلان جميع الأقسام: ﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ﴾ أي إن كان هو شاعرًا ففيكم الشعراء البلغاء والكهنة الأذكياء ومن يرتجل الخُطب والقصائد، ويقص القصص ولا يختلف الناقص والزائد، فليأتوا بمثل ما أتى به، والتقول يراد به الكذب. وفيه إشارة إلى معنى لطيف وهو أن التفعل للتكلف وإراءة الشيء وهو ليس على ما يرى، يقال تَمَرَّض فلان، أي لم يكون مريضًا وأرى من نفسه المرض، وحينئذٍ كأنهم كانوا يقولون كذب وليس بقول إنما هو تقول صورة القول وليس في الحقيقة به ليعلم أن المكذب هو الصادق.

وقوله تعالى: ﴿بَل لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ بيان هذا أنهم كانوا في زمان نزول الوحي وحصول المعجزة كانوا يشاهدونها، وكان ذلك يقتضي أن يشهدوا له عند غيرهم ويكونوا كالنجوم للمؤمنين كما كانت الصحابة رضي الله عنهم، وهم لم يكونوا كذلك بل أقل من ذلك لم يكونوا أيضًا، وهو أن يكونوا من آحاد المؤمنين الذين لم يشهدوا تلك الأمور ولم يظهر الأمر عندهم ذلك الظهور.

وقوله تعالى: ﴿فَلْيَأْتُوا﴾ الفاء للتعقيب، أي إذا كان كذلك فيجب عليهم أن يأتوا بمثل ما أتى به ليصحح كلامهم ويبطل كلامه. **وفيه مباحث:**

الأول: قال بعض العلماء: ﴿فَلْيَأْتُوا﴾ أمر تعجيز، بقوله القائل لمن يدعي أمرًا أو فعلاً ويكون غرضه إظهار عجزه، والظاهر أن الأمر ههنا مبقي على حقيقته لأنه لم يقل: ائتوا مطلقًا بل إنما قال: ائتوا إن كنتم صادقين، وعلى هذا التقدير ووجود ذلك الشرط يجب الإتيان به، وأمر التعجيز في كلام الله تعالى قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَ﴾[البقرة: ٢٥٨] وليس هذا بحثًا يورث خللاً في كلامهم.

الثاني: قالت المعتزلة: الحديث محدث والقرآن سماه حديثًا فيكون محدثًا. نقول: الحديث اسم مشترك، يقال للمحدث والقديم، ولهذا يصح أن يقال: هذا حديث قديم، بمعنى متقادم العهد، لا بمعنى سلب الأولية، وذلك لا نزاع فيه.

الثالث: النحاة يقولون: الصفة تتبع الموصوف في التعريف والتنكير، لكن الموصوف حديث وهو منكر و(مثل) مضاف إلى القرآن والمضاف إلى المعرف معرف، فكيف هذا؟ نقول: مثل وغير لا يتعرفان بالإضافة، وكذلك كل ما هو مثلهما، والسبب أن غيرًا أو مثلاً وأمثالهما في غاية التنكير، فإنك إذا قلت: (ما رأيت شيئًا مثل زيد) يتناول كل شيء فإن كل شيء مثل زيد في كونه شيئًا، فالجماد مثله في الجسم والحجم والإمكان، والنبات مثله في النشوء والنماء والذبول والفناء، والحيوان مثله في الحركة والإدراك وغيرهما من الأوصاف، وأما (غير) فهو عند الإضافة ينكر وعند قطع الإضافة ربما يتعرف فإنك إذا قلت: (غير زيد) صار في غاية الإيهام فإنه يتناول أمورًا لا حصر لها، وأما إذا قطعته عن الإضافة ربما تقول الغير والمغايرة من باب واحد وكذلك التغير، فتجعل الغير كأسماء الأجناس، أو تجعله مبتدأ وتريد به معنى معينًا.

الرابع: ﴿إِن كَانُوا صَٰدِقِينَ﴾ أي في قولهم: ﴿تَقَوَّلَهُۥ﴾[الطور: ٣٣] وقد ذكرنا أن ذلك راجع إلى ما سبق من أنه كاهن وأنه مجنون، وأنه شاعر، وأنه متقول، ولو كانوا صادقين في شيء من ذلك لهان عليهم الإتيان بمثل القرآن، ولما امتنع كذبوا في الكل.

البحث الخامس: قد ذكرنا أن القرآن معجز، ولا شك فيه، فإن الخلق عجزوا عن الإتيان بمثل ما يقرب منه عند التحدي، فإما أن يكون كونه معجزًا لفصاحته وهو مذهب أكثر أهل السنة، وإما أن يكون معجزًا لصرف الله عقول العقلاء عن الإتيان بمثله، وعَقْله ألسنتهم عن النطق بما يقرب منه، ومَنْع القادر من الإتيان بالمقدور كإتيان الواحد بفعل لا يقدر عليه غيره، فإن من قال لغيره:

أنا أحرك هذا الجبل. يستبعد منه، وكذا إذا قال إني أفعل فعلاً لا يقدر الخلق (معه) على حمل تفاحة من موضعها. يستبعد منه على أن كل واحد فعل معجز إذا اتصل بالدعوى، وهذا مذهب بعض المتكلمين ولا فساد فيه وعلى أن يقال: هو معجز بهما جميعًا.

قوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾

ومن هنا لا خلاف أن ﴿أَمْ﴾ ليست بمعنى بل، لكن أكثر المفسرين على أن المراد ما يقع في صدر الكلام من الاستفهام، إما بالهمزة فكأنه يقول: أخُلقوا من غير شيء أو هل، ويحتمل أن يقال: هو على أصل الوضع للاستفهام الذي يقع في أثناء الكلام وتقديره: أما خلقوا، أم خلقوا من غير شيء، أم هم الخالقون؟

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: ما وجه تعلق الآية بما قبلها؟ نقول: لما كذبوا النبي ﷺ ونسبوه إلى الكهانة والجنون والشعر وبرأه الله من ذلك، ذكر الدليل على صدقه إبطالاً لتكذيبهم وبدأ بأنفسهم، كأنه يقول: كيف يكذبونه وفي أنفسهم دليل صدقه؟! لأن قوله في ثلاثة أشياء في التوحيد والحشر والرسالة. ففي أنفسهم ما يُعلم به صدقه، وبيانه هو أنهم خُلقوا وذلك دليل التوحيد لِما بينا أن في كل شيء له آية، تدل على أنه واحد، وقد بينا وجهه مرارًا فلا نعيده.

وأما الحشر فلأن الخلق الأول دليل على جواز الخلق الثاني وإمكانه، ويدل على ما ذكرنا أن الله تعالى ختم الاستفهامات بقوله: ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الطور: ٤٣].

المسألة الثانية: إذا كان الأمر على ما ذكرت فلمَ حذف قوله: أما خلقوا؟ نقول: لظهور انتفاء ذلك ظهورًا لا يبقى معه للخلاف وجه، فإن قيل: فلمَ لم يصدر بقوله: أما خلقوا ويقول: أم خلقوا من غير شيء؟ نقول: ليعلم أن قبل هذا أمرًا منفيًا ظاهرًا، وهذا المذكور قريب منه في ظهور البطلان فإن قيل: قوله: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ﴾ أيضًا ظاهر البطلان؛ لأنهم علموا أنهم مخلوقون من تراب وماء ونطفة، نقول: الأول أظهر في البطلان لأن كونهم غير مخلوقين أمر يكون مدعيه منكرًا للضرورة، فمنكره منكر لأمر ضروري.

المسألة الثالثة: ما المراد من قوله تعالى: ﴿مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ﴾؟ نقول: فيه وجوه، المنقول منها أنهم خُلقوا من غير خالق. وقيل: إنهم خُلقوا لا لشيء عبثًا. وقيل: إنهم خُلقوا من غير أب وأم، ويحتمل أن يقال: أم خُلقوا من غير شيء، أي ألم يُخلقوا من تراب أو من ماء؟ ودليله قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ [المرسلات: ٢٠] ويحتمل أن يقال: الاستفهام الثاني ليس بمعنى النفي بل هو بمعنى الإثبات، قال الله تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ [الواقعة: ٥٩] و﴿ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾ [الواقعة: ٦٤] ﴿ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ﴾ [الواقعة: ٧٢] كل ذلك في الأول منفي وفي الثاني مثبت، كذلك هاهنا قال الله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ﴾ أي الصادق

هو هذا الثاني حينئذٍ، وهذا كما في قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١] فإن قيل: كيف يكون ذلك الإثبات والآدمي خُلق من تراب؟ نقول: والتراب خُلق من غير شيء، فالإنسان إذا نظرت إلى خلقه وأسندت النظر إلى ابتداء أمره، وجدته خُلق من غير شيء، أو نقول: المراد: أم خُلقوا من غير شيء مذكور أو معتبر وهو الماء المهين.

المسألة الرابعة: ما الوجه في ذكر الأمور الثلاثة التي في الآية؟ نقول: هي أمور مرتبة كل واحد منها يمنع القول بالوحدانية والحشر فاستفهم بها، وقال أما خلقوا أصلاً، ولذلك ينكرون القول بالتوحيد لانتفاء الإيجاد وهو الخلق، وينكرون الحشر لانتفاء الخلق الأول. أم خلقوا من غير شيء، أي أم يقولون بأنهم خلقوا لا لشيء فلا إعادة، كما قال: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا﴾ [المؤمنون: ١١٥]. وعلى قولنا: (إن المراد خُلقوا لا من تراب ولا من ماء) فله وجه ظاهر، وهو أن الخلق إذا لم يكن من شيء بل يكون إيداعيًّا يخفى كونه مخلوقًا على بعض الأغبياء، ولهذا قال بعضهم السماء رفع اتفاقًا ووجد من غير خالق، وأما الإنسان الذي يكون أولاً نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم لحمًا وعظمًا لا يتمكن أحد من إنكاره بعد مشاهدة تغير أحواله فقال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟﴾ بحيث يخفى عليهم وجه خلقهم بأن خُلقوا ابتداء من غير سبق حالة عليهم يكونون فيها ترابًا ولا ماء ولا نطفة، ليس كذلك بل هم كانوا شيئًا من تلك الأشياء خُلقوا منه خلقًا، فما خُلقوا من غير شيء حتى ينكروا الوحدانية ولهذا قال تعالى: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ [الزمر: ٦] ولهذا أكثر الله من قوله: ﴿خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ﴾ [الإنسان: ٢] وقوله: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ [المرسلات: ٢٠] يتناول الأمرين المذكورين في هذا الموضع لأن قوله: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ﴾ [المرسلات: ٢٠] يحتمل أن يكون نفي المجموع بنفي الخلق، فيكون كأنه قال: أخُلقتم لا من ماء، وعلى قول من قال: (المراد منه أم خُلقوا من غير شيء، أي من غير خالق) ففيه ترتيب حسن أيضًا وذلك لأن نفي الصانع إما أن يكون بنفي كون العالم مخلوقًا فلا يكون ممكنًا، وإما أن يكون ممكنًا لكن الممكن لا يكون محتاجًا، فيقع الممكن من غير مؤثر، وكلاهما محال.

وأما قوله تعالى: ﴿أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ فمعناه أهم الخالقون للخلق فيعجز الخالق بكثرة العمل، فإن دأب الإنسان أنه يعيا بالخلق، فما قولهم أما خلقوا فلا يثبت لهم إله ألبتة، أم خلقوا وخفي عليهم وجه الخلق أم جعلوا الخالق مثلهم فنسبوا إليه العجز، ومثله قوله تعالى: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ﴾ [ق: ١٥] هذا بالنسبة إلى الحشر. وأما بالنسبة إلى التوحيد فهو رد عليهم حيث قالوا الأمور مختلفة واختلاف الآثار يدل على اختلاف المؤثرات وقالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ [ص: ٥] فقال تعالى: ﴿أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ حيث لا يقدر الخباز على الخياطة والخياط على البناء، وكل واحد يشغله شأن عن شأن.

قوله تعالى: ﴿ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ۝٣٦ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ۝٣٧ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ۖ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۝٣٨ ﴾

ثم قال تعالى: ﴿أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ **وفيه وجوه:** أحدها: ما اختاره الزمخشري وهو أنهم لا يوقنون بأنهم خُلقوا، وهو حينئذٍ في معنى قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥] أي هم معترفون بأنه خلق الله وليس خلق أنفسهم. وثانيها: المراد بل لا يوقنون بأن الله واحد، وتقديره: ليس الأمر كذلك، أي ما خُلقوا وإنما لا يوقنون بوحدة الله. وثالثها: لا يوقنون أصلاً من غير ذكر مفعول، يقال: فلان ليس بمؤمن وفلان ليس بكافر، لبيان مذهبه وإن لم ينو مفعولاً، وكذلك قول القائل فلان يؤذي ويؤدي، لبيان ما فيه لا مع القصد إلى ذكر مفعول، وحينئذٍ يكون تقديره أنهم ما خلقوا السموات والأرض ولا يوقنون بهذه الدلائل، بل لا يوقنون أصلاً وإن جئتهم بكل آية، يدل عليه قوله تعالى بعد ذلك: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ [الطور: ٤٤] وهذه الآية إشارة إلى دليل الآفاق، وقوله من قبل: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟﴾ [الطور: ٣٥] دليل الأنفس.

ثم قال تعالى: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ﴾ . **وفيه وجوه:** أحدها: المراد من الخزائن خزائن الرحمة. ثانيها: خزائن الغيب. ثالثها: أنه إشارة إلى الأسرار الإلهية المخفية عن الأعيان. رابعها: خزائن المخلوقات التي لم يرها الإنسان ولم يسمع بها. وهذه الوجوه الأول والثاني منقول، والثالث والرابع مستنبط.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ﴾ تتمة للرد عليهم، وذلك لأنه لما قال: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ﴾ إشارة إلى أنهم ليسوا بخزنة (رحمة) الله فيعلموا خزائن الله، وليس بمجرد انتفاء كونهم خزنة ينتفي العلم لجواز أن يكون مشرفًا على الخزانة، فإن العلم بالخزائن عند الخازن والكاتب في الخزانة، فقال: لستم بخزنة ولا بكتبة الخزانة المسلطين عليها، ولا يبعد تفسير المسيطرين بكتبة الخزانة؛ لأن التركيب يدل على السطر وهو يستعمل في الكتاب، وقيل: المسيطر المسلط، وقُرئ بالصاد، وكذلك في كثير من السينات التي مع الطاء، كما في قوله تعالى: ﴿بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية: ٢٢] وقد قُرئ: (مُصَيْطِرٌ).

ثم قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ۖ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ وهو أيضًا تتميم للدليل، فإن من لا يكون خازنًا ولا كاتبًا قد يطلع على الأمر بالسماع من الخازن أو الكاتب، فقال: أنتم لستم بخزنة ولا كتبة ولا اجتمعتم بهم؛ لأنهم ملائكة ولا صعود لكم إليهم.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: المقصود نفي الصعود، ولا يلزم من نفي السُّلم لهم نفي الصعود، فما

الجواب عنه؟ نقول: النفي أبلغ من نفي الصعود، وهو نفي الاستماع، وآخر الآية شامل للكل، قال تعالى: ﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾.

المسألة الثانية: السلم لا يستمع فيه، وإنما يستمع عليه، فما الجواب؟ نقول: من وجهين: أحدهما: ما ذكره الزمخشري أن المراد ﴿يَسْتَمِعُونَ﴾ صاعدين فيه. وثانيهما: ما ذكره الواحدي أن (في) بمعنى (على)، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ [طه: ٧١] أي على جذوع النخل، وكلاهما ضعيف لما فيه من الإضمار والتغيير.

المسألة الثالثة: لمَ ترك ذكر مفعول ﴿يَسْتَمِعُونَ﴾ وماذا هو؟ نقول: فيه وجوه: أحدها: المستمع هو الوحي، أي هل لهم سُلم يستمعون فيه الوحي. ثانيها: يستمعون ما يقولون من أنه شاعر، وأن لله شريكًا، وأن الحشر لا يكون. ثالثها: تركُ المفعول رأسًا، كأنه يقول: هل لهم قوة الاستماع من السماء حتى يعلموا أنه ليس برسول، وكلامه ليس بمرسل؟

المسألة الرابعة: قال: ﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم﴾ ولم يقل فليأتوا، كما قال تعالى: ﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ﴾ [الطور: ٣٤] نقول: طلب منهم ما يكون أهون على تقدير صدقهم؛ ليكون اجتماعهم عليه أدل على بطلان قولهم، فقال هناك: ﴿فَلْيَأْتُوا۟﴾ أي اجتمعوا عليه وتعاونوا، وأتوا بمثله، فإن ذلك عند الاجتماع أهون، وأما الارتقاء في السلم بالاجتماع (فإنه) متعذر لأنه لا يرتقي إلا واحد بعد واحد، ولا يحصل في الدرجة العليا إلا واحد فقال: ﴿فَلْيَأْتِ﴾ ذلك الواحد الذي كان أشد رقيًّا بما سمعه.

المسألة الخامسة: قوله: ﴿بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ ما المراد به؟ نقول: هو إشارة إلى لطيفة، وهي أنه لو طلب منهم ما سمعوه، وقيل لهم: ﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم﴾ بما سمع، لكان لواحد أن يقول: أنا سمعت كذا وكذا. فيفتري كذبًا، فقال: لا، بل الواجب أن يأتي بدليل يدل عليه.

قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾﴾

إشارة إلى نفي الشريك، وفساد ما يقولون بطريق آخر، وهو أن المتصرف إنما يحتاج إلى الشريك لعجزه، والله قادر فلا شريك له، فإنهم قالوا: نحن لا نجعل هذه الأصنام وغيرها شركاء، وإنما نعظمها لأنها بنات الله، فقال تعالى: كيف تجعلون لله البنات، وخَلْق البنات والبنين إنما كان لجواز الفناء على الشخص، ولولا التوالد لانقطع النسل وارتفع الأصل، من غير أن يقوم مقامه الفصل، فقدَّر الله التوالد؛ ولهذا لا يكون في الجنة ولادة؛ لأن الدار دار البقاء، لا موت فيها للآباء، حتى تقام العمارة بحدوث الأبناء.

إذا ثبت هذا فالولد إنما يكون في صورة إمكان فناء الأب؛ ولهذا قال تعالى في أوائل سورة آل عمران: ﴿ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [آل عمران: ٢] أي حي لا يموت فيحتاج إلى ولد يرثه، وهو قيوم لا يتغير ولا يضعف، فيفتقر إلى ولد ليقوم مقامه؛ لأنه ورد في نصارى نجران. ثم إن الله تعالى بيّن هذا

بأبلغ الوجوه، وقال: إنهم يجعلون له بنات، ويجعلون لأنفسهم بنين، مع أن جعل البنات لهم أَوْلى، وذلك لأن كثرة البنات تعين عل كثرة الأولاد؛ لأن الإناث الكثيرة يمكن منهن الولادة بأولاد كثيرة من واحد. وأما الذكور الكثيرة لا يمكن منهم إحبال أنثى واحدة بأولاد، ألا ترى أن الغنم لا يذبح منها الإناث إلا نادرًا، وذلك لما ثبت أن إبقاء النوع بالأنثى أنفع نظرًا إلى التكثير، فقال تعالى: أنا القيوم الذي لا فناء لي، ولا حاجة لي في بقاء النوع في حدوث الشخص، وأنتم معرضون للموت العاجل، وبقاء العالم بالإناث أكثر، وتتبرءون منهن والله تعالى مستغنٍ عن ذلك وتجعلون له البنات، وعلى هذا فما تقدم كان إشارة إلى نفي الشريك نظرًا إلى أنه لابتداء لله، وهذا إشارة إلى نفي الشريك نظرًا إلى أنه لا فناء له، فإن قيل: كيف وقع لهم نسبة البنات إلى الله تعالى مع أن هذا أمر في غاية القبح لا يخفى على عاقل، والقوم كان لهم العقول التي هي مناط التكليف، وذلك القدر كافٍ في العلم بفساد هذا القول؟ نقول: ذلك القول دعاهم إليه اتباع العقل، وعدم اعتبار النقل، ومذهبهم في ذلك مذهب الفلاسفة حيث يقولون: يجب اتباع العقل الصريح. ويقولون: النقل بمعزل لا يُتبع إلا إذا وافق العقل، وإذا وافق فلا اعتبار للنقل؛ لأن العقل هناك كافٍ. ثم قالوا: الوالد يسمى والدًا؛ لأنه سبب وجود الولد؛ ولهذا يقال إذا ظهر شيء من شيء، هذا تولد من ذلك. فيقولون: الحمى تتولد من عفونة الخلط. فقالوا: الله تعالى سبب وجود الملائكة سببًا واجبًا لا اختيار له فسموه بالوالد. ولم يلتفتوا إلى وجوب تنزيه الله في تسميته بذلك عن التسمية بما يوهم النقص، ووجوب الاقتصار في أسمائه على الأسماء الحسنى التي ورد بها الشرع لعدم اعتبارهم النقل، فقالوا: يجوز إطلاق الأسماء المجازية والحقيقية على الله تعالى وصفاته. فسموه عاشقًا ومعشوقًا، وسموه أبًا ووالدًا، ولم يسموه ابنًا ولا مولودًا باتفاقهم، وذلك ضلالة.

قوله تعالى: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ۝٤٠﴾

وجه التعلق هو أن المشركين لما اطرحوا الشرع واتبعوا ما ظنوه عقلاً، وسموا الموجود بعد العدم مولودًا ومتولدًا، والموجد والدًا - لزمهم الكفر بسببه والإشراك، فقال لهم: ما الذي يحملكم على اطراح الشرع، وترك اتباع الرسول ﷺ؟ هل ذلك لطلبه منكم شيئًا؟ فما كان يسعهم أن يقولوا: نعم، فلم يبق لهم إلا أن يقولوا: لا، فنقول لهم: كيف اتبعتم قول الفلسفي الذي يسوغ لكم الزور وما يوجب الاستخفاف بجانب الله تعالى لفظًا إن لم يكن معنى كما تقولون، ولا تتبعون الذي يأمركم بالعدل في المعنى والإحسان في اللفظ، ويقول لكم: اتبعوا المعنى الحق الواضح واستعمِلوا اللفظ الحسن المؤدب؟ وهذا في غاية الحسن من التفسير.

ففيه مسائل:

المسألة الأولى: ما الفائدة في سؤال النبي ﷺ حيث قال: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ﴾ ولم يقل: أم يُسألون

أجرًا؟ كما قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾[يونس: ٣٨] وقال تعالى: ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا﴾[الطور: ٤٢] إلى غير ذلك؟ نقول: فيه فائدتان:

إحداهما: تسلية قلب النبي ﷺ، وذلك لأنهم لما امتنعوا من الاستماع واستنكفوا من الاتباع، صَعُب على النبي ﷺ، فقال له ربه: أنت أتيت بما عليك فلا يضيق صدرك حيث لم يؤمنوا، فأنت غير ملوم، وإنما كنت تلام لو كنت طلبت منهم أجرًا فهل طلبت ذلك فأثقلهم؟ لا فلا حرج عليك إذًا.

ثانيهما: أنه لو قال (أم يُسألون) لزم نفي أجر مطلقًا وليس كذلك، وذلك لأنهم كانوا يشركون ويطالبون بالأجر من رؤسائهم، وأما النبي ﷺ فقال له: أنت لا تسألهم أجرًا فهم لا يتبعونك، وغيرك يَسألهم وهم يُسألون ويتبعون السائلين، وهذا غاية الضلال.

المسألة الثانية: إن قال قائل: أُلزمت أن تبين أن (أم) لا تقع إلا متوسطة حقيقة أو تقديرًا فكيف ذلك هاهنا؟ نقول: كأنه تعالى يقول: أتهديهم لوجه الله أم تسألهم أجرًا، وترك الأول لعدم وقوع الإنكار عليه كما قلنا في قوله: ﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ﴾[الطور: ٣٩] إن المقدار هو واحد أم له البنات، وترك ذكر الأول لعدم وقوع الإنكار عليه من الله تعالى وكونهم قائلين بأنه لا يريد وجه الله تعالى، وإنما يريد الرياسة والأجر في الدنيا.

المسألة الثالثة: هل في خصوص قوله تعالى: ﴿أَجْرًا﴾ فائدة لا توجد في غيره لو قال: أم تسألهم شيئًا أو مالاً أو غير ذلك؟ نقول: نعم، وقد تقدم القول مني أن كل لفظ في القرآن فيه فائدة وإن كنا لا نعلمها، والذي يظهر ههنا أن ذلك إشارة إلى أن ما يأتي به النبي ﷺ فيه مصلحتهم وذلك لأن الأجر لا يُطلب إلا عند فعل شيء يفيد المطلوب منه الأجر، فقال: أنت أتيتهم بما لو طلبت عليه أجرًا وعلموا كمال ما في دعوتك من المنفعة لهم وبهم، لأتوك بجميع أموالهم ولفدوك بأنفسهم، ومع هذا لا تطلب منهم أجرًا، ولو قال (شيئًا أو مالاً) لما حصلت هذه الفائدة، والله أعلم.

المسألة الرابعة: هذا يدل على أنه لم يطلب منهم أجرًا ما، وقوله تعالى: ﴿قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾[الشورى: ٢٣] يدل على أنه طلب أجرًا ما فكيف الجمع بينهما؟ نقول: لا تفرقة بينهما بل الكل حق وكلاهما ككلام واحد، وبيانه هو أن المراد من قوله: ﴿إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾[الشورى: ٢٣] هو أني لا أسألكم عليه أجرًا يعود إلى الدنيا، وإنما أجري المحبة في الزلفى إلى الله تعالى، وأن عباد الله الكاملين أقرب إلى الله تعالى من عباده الناقصين، وعباد الله الذين كلمهم الله وكلموه وأرسلهم لتكميل عباده فكملوا - أقرب إلى الله من الذين لم يكلمهم ولم يرسلهم الله ولم يكملوا، وعلى هذا فهو في معنى قوله: ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾[يونس: ٧٢] وإليه أنتمي وقوله ﷺ: «فَإِنِّي أُبَاهِي بِكُمُ الْأُمَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[1] وقوله: ﴿فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾ وبين

---

(١) ضعيف: رواه عبد الرزاق في (مصنفه) (٦/ ١٧٣)، حديث رقم (١٠٣٩١) من طريق هشام بن سعد، عن=

ما ذكرنا أن قوله: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا﴾ المراد أجر الدنيا وقوله: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ [الأنعام: ٩٠] المراد العموم ثم استثنى، ولا حاجة إلى ما قاله الواحدي إن ذلك منقطع معناه لكن المودة في القربى، وقد ذكرناه هناك فليطلب منه.

المسألة الخامسة: قوله تعالى: ﴿فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾ إشارة إلى أنه ﷺ ما طلب منهم شيئًا، ولو طالبهم بأجر ما كان لهم أن يتركوا اتباعه بأدنى شيء، اللّهم إلا إن أثقلهم التكليف ويأخذ كل مالهم ويمنعهم التخليف، فيثقلهم الدَّين بعد ما لا يبقى لهم العين.

قوله تعالى: ﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ۝٤١﴾

وهو على الترتيب الذي ذكرناه، كأنه تعالى قال لهم: بِمَ اطرحتم الشرع ومحاسنه، وقلتم ما قلتم بناء على اتباعكم الأوهام الفاسدة التي تسمونها المعقولات، والنبي ﷺ لا يطلب منكم أجرًا وأنتم لا تعلمون فلا عذر لكم؛ لأن العذر إما في الغرامة وإما في عدم الحاجة إلى ما جاء به، ولا غرامة عليكم فيه ولا غنى لكم عنه.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: كيف التقدير؟ قلنا: لا حاجة إلى التقدير بل هو استفهام متوسط على ما ذكرنا، كأنه قال: أتهديهم لوجه الله تعالى، أم تسألهم أجرًا فيمتنعون، أم لا حاجة لهم إلى ما تقول لكونهم عندهم الغيب فلا يتبعون.

المسألة الثانية: الألف واللام في الغيب لتعريف ماذا ألجنس أو لعهد؟ نقول: الظاهر أن المراد نوع الغيب كما يقول القائل: (اشترى اللحم) يريد بيان الحقيقة لأكل لحم ولا لحمًا معينًا، والمراد في قوله تعالى: ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ﴾ [الأنعام: ٧٣] الجنس واستغراقه لكل غيب.

المسألة الثالثة: على هذا كيف يصح عندهم الغيب وما عند الشخص لا يكون غيبًا؟ نقول: معناه حضر عندهم ما غاب عن غيرهم، وقيل: هذا متعلق بقوله: ﴿نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ [الطور: ٣٠] أي أعندكم الغيب تعلمون أنه يموت قبلكم. وهو ضعيف؛ لبعد ذلك ذكر، أو لأن قوله تعالى: ﴿قُلْ تَرَبَّصُوا۟﴾ [الطور: ٣١] متصل به وذلك يمنع اتصال هذا بذلك.

المسألة الرابعة: ما الفائدة في قوله: ﴿فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾؟ نقول: وضوح الأمر، وإشارة إلى أن ما عند النبي ﷺ من علم الغيب علم بالوحي أمورًا وأسرارًا وأحكامًا وأخبارًا كثيرة كلها هو جازم بها وليس كما يقول المتفرس: الأمر كذا وكذا، فإن قيل: اكتب به خطك أنه يكون يمتنع ويقول: أنا لا أدعي فيه الجزم والقطع ولكن أذكره كذا وكذا على سبيل الظن والاستنباط. وإن

=سعيد بن أبي هلال أن النبي ﷺ... فذكره، وهذا مرسل، وأورده العجلوني في (كشف الخفا) (١/ ٣١٨)، وقال: رواه البيهقي وعبد الرزاق عن سعيد بن أبي هلال مرسلاً. وأورده الألباني في (ضعيف الجامع) (٦٢٣٣)، وقال: ضعيف.

كان قاطعًا يقول اكتبوا هذا عني، وأثبتوا في الدواوين أن في اليوم الفلاني يقع كذا وكذا. فقوله: ﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ يعني هل صاروا في درجة محمد ﷺ حتى استغنوا عنه وأعرضوا، ونُقل عن ابن قتيبة أن المراد من الكتابة الحكم، معناه يحكمون. وتمسَّك بقوله ﷺ: «اقْضِ بَيْنَنَا بِكِتَابِ اللَّهِ» (١) أي حكم الله، وليس المراد ذلك، بل هو من باب الإضمار معناه بما في كتاب الله تعالى، يقال: فلان يقضي بمذهب الشافعي، أي بما فيه، ويقول الرسول الذي معه كتاب الملك للرعية: اعملوا بكتاب الملك.

قوله تعالى: ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ۝﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: ما وجه التعلق والمناسبة بين الكلامين؟ قلنا: يبين ذلك ببيان المراد من قوله: ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا﴾ فبعض المفسرين قال: أم يريدون أن يكيدوك فهم المكيدون، أي لا يقدرون على الكيد فإن الله يصونك بعينه وينصرك بصونه. وعلى هذا إذا قلنا بقول من يقول: ﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ﴾ [الطور: ٤١] متصل بقوله تعالى: ﴿نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ [الطور: ٣٠] فيه ترتيب في غاية الحسن وهو أنهم لما قالوا: ﴿نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ [الطور: ٣٠] قيل لهم: أتعلمون الغيب فتعلمون أنه يموت قبلكم أم تريدون كيدًا فتقولون نقتله فيموت قبلنا. فإن كنتم تدعون الغيب فأنتم كاذبون، وإن كنتم تظنون أنكم تقدرون عليه فأنتم غالطون فإن الله يصونه عنكم وينصره عليكم. وأما على ما قلنا إن المراد منه أنه ﷺ لا يسألكم على الهداية مالاً وأنتم لا تعلمون ما جاء به لولا هدايته لكونه من الغيوب، فنقول: فيه وجوه: الأول: أن المراد من قوله تعالى: ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا﴾ أي من الشيطان وإزاغته فيحصل مرادهم، كأنه تعالى قال: أنت لا تسألهم أجرًا وهم يعلمون الغيب فهم محتاجون إليك وأعرضوا، فقد اختاروا كيد الشيطان ورضوا بإزاغته، والإرادة بمعنى الاختيار والمحبة، كما قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾ [الشورى: ٢٠] وكما قال: ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ [الصافات: ٨٦] وأظهر من ذلك قوله تعالى: ﴿إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ﴾ [المائدة: ٢٩] الوجه الثاني: أن يقال: إن المراد والله أعلم: أم يريدون كيدًا لله فهو واصل إليهم وهم عن قريب مكيدون، وترتيب الكلام هو أنهم لما لم يبق حجة في الإعراض فهم يريدون نزول العذاب بهم، والله أرسل إليهم رسولاً لا يسألهم أجرًا ويهديهم إلى ما لا علم لهم ولا كتاب عندهم وهم يعرضون، فهم يريدون إذًا أن يهلكهم ويكيدهم؛ لأن الاستدراج كيد والإملاء لازدياد الإثم، كذلك لا يقال هو فاسد لأن الكيد والإساءة لا يطلق على فعل الله تعالى إلا بطريق المقابلة، وكذلك المكر فلا يقال: أساء الله إلى الكفار ولا اعتدى الله، إلا إذا ذكر أولاً فيهم شيء من ذلك، ثم قال بعد ذلك بسببه لفظًا في

(١) تقدم تخريجه في حديث العسيف الزاني.

حق الله تعالى، كما في قوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ [الشورى: ٤٠] وقال: ﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ﴾ [البقرة: ١٩٤] وقال: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ﴾ [آل عمران: ٥٤] وقال: ﴿يَكِيدُونَ كَيۡدٗا﴾ [الطارق: ١٥، ١٦] لأنا نقول: الكيد ما يسوء من نزل به وإن حسن ممن وُجد منه، ألا ترى أن إبراهيم عليه السلام قال: ﴿لَأَكِيدَنَّ أَصۡنَٰمَكُم بَعۡدَ أَن تُوَلُّواْ مُدۡبِرِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٧] من غير مقابلة؟

المسألة الثانية: ما الفائدة في قوله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هُمُ ٱلۡمَكِيدُونَ﴾ وما الفرق بين معنى هذا الكلام ومعنى قول القائل: أم يريدون كيدًا فهم المكيدون؟ نقول: الفائدة كون الكافر مكيدًا في مقابلة كفره لا في مقابلة إرادته الكيد، ولو قال: (أم يريدون كيدًا فهم المكيدون)، كان يُفهم منه أنهم إن لم يريدوه لا يكونوا مكيدين، وهذا يؤيد ما ذكرناه أن المراد من الكيد كيد الشيطان أو كيد الله، بمعنى عذابه إياهم لأن قوله: ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هُمُ ٱلۡمَكِيدُونَ﴾ عام في كل كافر كاده الشيطان ويكيده الله، أي يعذبه، وصار المعنى على ما ذكرناه: أتهديهم لوجه الله أم تسألهم أجرًا فتثقلهم فيمتنعون عن الاتباع، أم عندهم الغيب فلا يحتاجون إليك فيُعرضون عنك، أم ليس شيء من هذين الأمرين الأخيرين فيريدون العذاب، والعذاب غير مدفوع عنهم بوجه من الوجوه لكفرهم فالذين كفروا معذبون.

المسألة الثالثة: ما الفائدة في تنكير الكيد حيث لم يقل أم يريدون كيدك أو الكيد أو غير ذلك ليزول الإبهام؟ نقول: فيه فائدة، وهي الإشارة إلى وقوع العذاب من حيث لا يشعرون، فكأنه قال: يأتيهم بغتة ولا يكون لهم به علم أو يكون إيرادًا لعظمته كما ذكرنا مرارًا.

قوله تعالى: ﴿أَمۡ لَهُمۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٤٣﴾ وَإِن يَرَوۡاْ كِسۡفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطٗا يَقُولُواْ سَحَابٞ مَّرۡكُومٞ ﴿٤٤﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿أَمۡ لَهُمۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ أعاد التوحيد وهو يفيد فائدة قوله تعالى: ﴿أَمۡ لَهُ ٱلۡبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلۡبَنُونَ﴾ [الطور: ٣٩] وفي ﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ بحث شريف وهو أهل اللغة قالوا: سبحان اسم علم للتسبيح، وقد ذكرنا ذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمۡسُونَ وَحِينَ تُصۡبِحُونَ﴾ [الروم: ١٧] وأكثرنا من الفوائد، فإن قيل: يجوز أن نقول: (سبحان الله) اسم مصدر، ونقول: (سبحان) على وزن فُعلان فنذكر سبحان من غير مواضع الإيقاع لله كما يقال في التسبيح، نقول ذلك مثل قول القائل: (مِن حرف جار) و(في كلمة ظرف حيث يخبر عنه) مع أن الحرف لا يخبر عنه. فيجاب بأن (مِن وفي) حينئذٍ جُعلا كالاسم ولم يُتركا على أصلهما المستعمل في مثل قولك: أخذت من زيد، والدرهم في الكيس، فكذلك (سبحان) فيما ذُكر من المواضع لم يُترك على مواضع استعماله فإنه حينئذٍ لم يُترك علمًا كما يقال: زيد على وزن فَعْل بخلاف التسبيح فيما ذكرنا.

المسألة الرابعة: (ما) في قوله تعالى: ﴿عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ يحتمل وجهين: أحدهما: أن تكون

مصدرية معناه سبحانه عن إشراكهم. ثانيهما: خبرية معناه عن الذين يشركون، وعلى هذا فيحتمل أن يكون عن الولد لأنهم كانوا يقولون: البنات لله. فقال: سبحان الله على البنات والبنين، ويحتمل أن يكون عن مثل الآلهة لأنهم كانوا يقولون هو مثل ما يعبدونه فقال: سبحان الله عن مثل ما يعبدونه.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ وجه الترتيب فيه هو أنه تعالى لما بيّن فساد أقوالهم وسقوطها عن درجة الاعتبار، أشار إلى أنه لم يبق لهم شيء من وجه الاعتذار، فإن الآيات ظهرت والحجج تميزت، ولم يؤمنوا، وبعد ذلك ﴿يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ﴾ أي ينكرون الآية، لكن الآية إذا أظهرت في أظهر الأشياء كانت أظهر، وبيانه هو أن من يأتي بجسم من الأجسام من بيته وادعى فيه أنه فعل به كذا، فربما يخطر ببال السامع أنه في بيته ولما يبدعه، فإذا قال للناس: هاتوا جسمًا تريدون حتى أجعل لكم منه كذا. يزول ذلك الوهم، لكن أظهر الأشياء عند الإنسان الأرض التي هي مهده وفرشه، والسماء التي هي سقفه وعرشه، وكانت العرب على مذهب الفلاسفة في أصل المذهب، ولا يلتفت إلى قول الفلسفي: نحن ننزه غاية التنزيه حتى لا نجوز رؤيته واتصافه بوصف زائد على ذاته ليكون واحدًا في الحقيقة، فكيف يكون مذهبنا مذهب من يشرك بالله صنمًا منحوتًا؟ نقول: أنتم لما نسبتم الحوادث إلى الكواكب وشرعتم في دعوة الكواكب، أخذ الجهال عنكم ذلك واتخذوه مذهبًا، وإذا ثبت أن العرب في الجاهلية كانت في الأصل على مذهب الفلاسفة وهم يقولون بالطبائع فيقولون: الأرض طبعها التكوين والسماء طبعها يمنع الانفصال والانفكاك، فقال الله تعالى ردًا عليهم في مواضع: ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [سبا: ٩] إبطالاً للطبائع وإيثارًا للاختيار في الوقائع، فقال هاهنا: إن أتينا بشيء غريب في غاية الغرابة في أظهر الأشياء وهو السماء التي يرونها أبدًا، ويعلمون أن أحدًا لا يصل إليها ليعمل بالأدوية وغيرها ما يجب سقوطها لأنكروا ذلك، فكيف فيما دون ذلك من الأمور، والذي يؤيد ما ذكرناه وأنهم كانوا على مذهب الفلاسفة في أمر السماء أنهم قالوا: ﴿أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾ [الإسراء: ٩٢] أي ذلك في زعمك ممكن، فأما عندنا فلا، والكسفة: القطعة، يقال: كسفة من ثوب، أي قطعة.

وفيه مباحث:

البحث الأول: استعمل في السماء لفظة الكسف، واللغويون ذكروا استعمالها في الثوب لأن الله تعالى شبَّه السماء بالثوب المنشور، ولهذا ذكره فيما مضى فقال: ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ﴾ [الزمر: ٦٧] وقال تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

البحث الثاني: استعمل الكسف في السماء والخسف في الأرض فقال تعالى: ﴿نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ﴾ [سبا: ٩] وهو يدل على قول من قال: (يقال في القمر خسوف، وفي الشمس كسوف) ووجهه أن مخرج الخاء دون مخرج الكاف ومخرج الكاف فوقه متصل به، فاستعمل وصف

الأسفل للأسفل والأعلى للأعلى، فقالوا في الشمس والسماء: (الكسوف والكسف)، وفي القمر والأرض: (الخسوف والخسف)، وهذا من قبيل قولهم في الماتح والمايح: إن ما نقطه فوق لمن فوق البئر وما نقطه من أسفل - عند من يجوز نقطه من أسفل - لمن تحت في أسفل البئر.

البحث الثالث: قال في السحاب: ﴿وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا﴾ [الروم: ٤٨] مع أنه تحت القمر، وقال في القمر: ﴿وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ [القمر: ١] وذلك لأن القمر عند الخسوف له نظير فوقه وهو الشمس عند الكسوف، والسحاب اعتبر فيه نسبته إلى أهل الأرض حيث ينظرون إليه، فلم يقل في القمر خسف بالنسبة إلى السحاب وإنما قيل ذلك بالنسبة إلى الشمس، وفي السحاب قيل بالنسبة إلى الأرض.

المسألة الثانية: ساقطًا يحتمل وجهين: أحدهما: أن يكون مفعولاً ثانيًا، يقال: رأيت زيدًا عالمًا. وثانيهما: أن يكون حالاً كما يقال: ضربته قائمًا. والثاني أولى لأن الرؤية عند التعدي إلى مفعولين في أكثر الأمر تكون بمعنى العلم، تقول: أرى هذا المذهب صحيحًا، وهذا الوجه ظاهرًا. وعند التعدي إلى واحد تكون بمعنى رأي العين في الأكثر، تقول: رأيت زيدًا. وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ [غافر: ٨٤]، وقال: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا﴾ [مريم: ٢٦] والمراد في الآية رؤية العين.

المسألة الثالثة: في قوله: ﴿سَاقِطًا﴾ فائدة لا تحصل في غير السقوط، وذلك لأن عندهم لا يجوز الانفصال على السموات ولا يمكن نزولها وهبوطها، فقال: (ساقطًا) ليكون مخالفًا لما يعتقدونه من وجهين: أحدهما: الانفصال. والآخر: السقوط، ولو قال: (وإن يروا كسفًا منفصلاً أو معلقًا) لما حصلت هذه الفائدة.

المسألة الرابعة: في قوله: ﴿يَقُولُوا۟﴾ فائدة أخرى، وذلك لأنه يفيد بيان العناد الذي هو مقصود سرد الآية، وذلك لأنهم في ذلك الوقت يستخرجون وجوهًا حتى لا يلزمهم التسليم فيقولون: (سحاب) قولاً من غير عقيدة، وعلى هذا يحتمل أن يقال: ﴿وَإِن يَرَوْا۟﴾ المراد العلم ليكون أدخل في العناد، أي إذا علموا وتيقنوا أن السماء ساقطة غيَّروا وعاندوا، وقالوا: هذا سحاب مركوم.

المسألة الخامسة: قوله تعالى: ﴿يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ إشارة إلى أنهم حين يعجزون عن التكذيب ولا يمكنهم أن يقولوا لم يقع شيء على الأرض، يرجعون إلى التأويل والتخييل، وقوله: ﴿مَّرْكُومٌ﴾ أي مركب بعضه على بعض، كأنهم يدفعون عن أنفسهم ما يورد عليهم بأن السحاب كالهواء لا يمنع نفوذ الجسم فيه، وهذا أقوى مانع فيقولون: إنه ركام فصار صلبًا قويًّا.

المسألة السادسة: في إسقاط كلمة الإشارة حيث لم يقل: (يقولوا هذا)، إشارة إلى وضوح الأمر وظهور العناد، فلا يستحسنون أن يأتوا بما لا يبقى معه مراء فيقولون: ﴿سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ مع حذف المبتدأ ليبقى للقائل فيه مجال فيقول عند تكذيب الخلق إياهم، قلنا: ﴿سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ شبهه ومثله، وأن يتمشى الأمر مع عوامهم استمروا، وهذا مجال من يخاف من كلام ولا يعلم أنه يُقبل منه أو لا يُقبل، فيجعله ذا وجهين، فإن رأى النكر على أحدهما فسّره بالآخر وإن رأى القبول خرج بمراده.

قوله تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ۝٤٥﴾

أي إذا تبين أنهم لا يرجعون فدعهم حتى يلاقوا.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: ﴿فَذَرْهُمْ﴾ أمر، وكان يجب أن يقال: لم يبق للنبي ﷺ جواز دعائهم إلى الإسلام. وليس كذلك، والجواب عنه من وجوه: أحدها: أن هذه الآيات مثل قوله تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ﴾ [النساء: ٦٣] ﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ [الصافات: ١٧٨] إلى غير ذلك، كلها منسوخة بآية القتال. وهو ضعيف، ثانيها: ليس المراد الأمر وإنما المراد التهديد، كما يقول سيد العبد الجاني لمن ينصحه: (دعه فإنه سينال وبال جنايته) ثالثها: أن المراد من يعاند وهو غير معين والنبي ﷺ كان يدعو الخلق على سبيل العموم، ويجوز أن يكون المراد بالخطاب من لم يظهر عناده لا من ظهر عناده فلم يقل الله في حقه: ﴿فَذَرْهُمْ﴾ ويدل على هذا أنه تعالى قال من قبل: ﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ [الطور: ٢٩] وقال هاهنا ﴿فَذَرْهُمْ﴾ فمن يذكرهم هم المشفقون الذين ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ [الطور: ٢٦] ومن يذرهم الذين قالوا: ﴿شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ [الطور: ٣٠] إلى غير ذلك.

المسألة الثانية: ﴿حَتَّىٰ﴾ للغاية فيكون كأنه تعالى قال: ذرهم إلى ذلك اليوم ولا تكلمهم، ثم ذلك اليوم تُجدد الكلام وتقول: ألم أقل لكم إن الساعة آتية وإن الحساب يقوم والعذاب يدوم؟ فلا تكلمهم إلى ذلك اليوم ثم كلمهم لتعلمهم. ثانيها: أن المراد من حتى الغاية التي يستعمل فيها اللام كما يقول القائل: (لا تطعمه حتى يموت) أي ليموت؛ لأن اللام التي للغرض عندها ينتهي الفعل الذي للغرض فيوجد فيها معنى الغاية ومعنى التعليل ويجوز استعمال الكلمتين فيها، ولعلّ المراد من قوله تعالى: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩] هذا، أي إلى أن يأتيك اليقين، فإن قيل: فمن لا يذره أيضًا يلاقي ذلك اليوم. نقول: المراد من قوله: ﴿يُصْعَقُونَ﴾ يُهلكون، فالمذكّر المشفق لا يهلك ويكون مستثنى منهم كما قال تعالى: ﴿فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الزمر: ٦٨] وقد ذكرنا هناك أن من اعترف بالحق، وعلم أن يوم الحساب كائن، فإذا وقعت الصيحة يكون كمن يعلم أن الرعد يرعد ويستعد لسماعه، ومن لا يعلم يكون كالغافل، فإذا وقعت الصيحة ارتجف الغافل ولم يرتجف العالم، وحينئذٍ يكون التوعد بملاقاة يومهم لأن كل أحد يلاقي يومه، وإنما يكون بملاقاة يومهم الذي فيه يُصعقون، أي اليوم الموصوف بهذه الصفة، وهذا كما قال تعالى: ﴿لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ [القلم: ٤٩] فإن المنفي ليس النبذ بالعراء لأنه تحقق بدليل قوله تعالى: ﴿فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ١٤٥] وإنما المنفي النبذ الذي يكون معه مذمومًا، وهذا لم يوجد.

المسألة الثالثة: ﴿حَتَّىٰ﴾ ينصب ما بعدها من الفعل المستقبل تارة ويرفع أخرى، والفاصل

بينهما أن الفعل إذا كان مستقبلاً منتظرًا لا يقع في الحال ينصب، تقول: (تعلمت الفقه حتى ترتفع درجتي) فإنك تنتظره وإن كان حالاً يرفع تقول (أكرر حتى تسقط قوتي ثم أنام)، والسبب فيه هو أن (حتى) المستقبل للغاية ولام التعليل للغرض والغرض غاية الفعل، تقول: لمَ تبني الدار؟ يقول: للسكنى: فصار قوله (حتى ترفع) كقوله (لأرفع) وفيهما إضمار (أن)، فإن قيل: ما قلت شيئًا وما ذكرت السبب في النصب عند إرادة الاستقبال والرفع عند إرادة الحال. نقول: الفعل المستقبل إذا كان منتظرًا وكان نصب العين ومنصوبًا لدى الذهن يرقبه يفعل بلفظه ما كان في معناه، ولهذا قالوا في الإضافة: إن المضاف لما جر أمرًا إلى أمر في المعنى جزء في اللفظ، والذي يؤيد ما ذكرنا أن الفعل إنما ينصب بأن ولن وكي وإذن، وخلوص الفعل للاستقبال في هذه المواضع لازم؛ والحرف الذي يجعل الفعل للحال يمنع النصب حيث لا يجوز أن تقول (إن فلانًا ليضرب) فإن قيل: السين وسوف مع أنهما يخلصان الفعل للاستقبال لا ينصبان ويمنعان النصب بالناصب كما في قوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ﴾ [المزمل: ٢٠]نقول: سوف والسين ليسا بمعنى غير اختصاص الفعل بالاستقبال وأن ولن بمعنى لا يصح إلا في الاستقبال، فلم يثبت بالسين إلا الاستقبال ولم يثبت به معنى في الاستقبال، والمنتظر هو ما في الاستقبال لا نفس الاستقبال، مثاله إذا قلت (أعبد الله كي يغفر لي أو ليغفر لي) أثبتت (كي) غرضًا وهو المغفرة، وهي في المستقبل من الزمان، وإذا قلت: (أستغفرك ربي) أثبتت السين استقبال المغفرة، وفرق بين ما يكون المقصود من الكلام بيان الاستقبال، لكن الاستقبال لا يوجد إلا في معنى فأتى بالمعنى ليبين به الاستقبال، وبين ما يكون المقصود منه معنى في المستقبل فتذكر الاستقبال لتبين محل مقصودك.

قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾

لما قال: ﴿يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ﴾ [الطور: ٤٥] وكل بر وفاجر يلاقي يومه، أعاد صفة يومهم وذكر ما يتميز به يومهم عن يوم المؤمنين فقال: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي﴾ وهو يخالف يوم المؤمنين فإنه تعالى قال فيه: ﴿يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [المائدة: ١١٩].

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: في ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي﴾ وجهان: الأول: بدل عن قوله: ﴿يَوْمَهُمُ﴾ [الطور: ٤٥] ثانيهما: ظرف ﴿يُلَٰقُوا۟﴾ [الطور: ٤٥] أي يلاقوا يومهم يوم، فإن قيل: هذا يلزم منه أن يكون اليوم في يوم فيكون اليوم ظرف اليوم. نقول: هو على حد قول من يقول (يأتي يوم قتل فلان يوم تبين جرائمه) ولا مانع منه، وقد ذكرنا بحث الزمان وجواز كونه ظرفًا في قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ وجواز إضافة اليوم إلى الزمان مع أنه زمان.

المسألة الثانية: قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ﴾ ولم يقل: (يوم لا يغنيهم كيدهم) مع

أن الإغناء يتعدى بنفسه؛ لفائدة جليلة وهي أن قول القائل (أغناني كذا) يفهم منه أنه نفعني، وقوله: (أغنى عني) يُفهم منه أنه دفع عني الضرر، وذلك لأن قوله (أغناني) معناه في الحقيقة أفادني غير مستفيد، وقوله: (أغنى عني)، أي لم يحوجني إلى الحضور فأغنى غيري عن حضوري، يقول من يُطلب لأمر: (خذوا عني ولدي، فإنه يغني عني) أي يغنيكم عني فيدفع عني أيضًا مشقة الحضور. فقوله: ﴿لَا يُغْنِي عَنْهُمْ﴾ أي لا يدفع عنهم الضرر، ولا شك أن قوله: (لا يدفع عنهم ضررًا) أبلغ من قوله: لا ينفعهم نفعًا، وإنما في المؤمن لو قال (يوم يغني عنهم صدقهم) لما فُهم منه نفعهم فقال: ﴿يَوْمُ يَنفَعُ﴾ [المائدة: ١١٩] كأنه قال: (يوم يغنيهم صدقهم)، فكأنه استعمل في المؤمن (يغنيهم) وفي الكافر (لا يغني عنهم) وهو مما لا يطلع عليه إلا من يكون عنده من علم البيان طرف ويتفكر بقريحة وقادة آيات الله ووفقه الله.

المسألة الثالثة: الأصل تقديم الفاعل على المفعول، والأصل تقديم المضمر على المظهر، أما في الأول فلأن الفاعل متصل بالفعل ولهذا قالوا: (فعلت) فأسكنوا اللام لئلا يلزم أربع متحركات في كلمة واحدة، وقالوا (ضَرَبَك) ولم يسكنوا لأن الكاف ضمير المفعول وهو منفصل، وأما تقديم المضمر فلأنه يكون أشد اختصارًا، فإنك إذا قلت (ضربني زيد) يكون أقرب إلى الاختصار من قولك (ضرب زيد إياي) فإن لم يكن هناك اختصار كقولك (مربي زيد ومربي) فالأَوْلى تقديم الفاعل، وهاهنا لو قال (يوم لا يغنيهم كيدهم) كان الأحسن تقديم المفعول، فإذا قال (يوم لا يغني عنهم) صار كما قلنا فِي (مر زيد بي) فلمَ لم يقدم الفاعل؟ نقول: فيه فائدة مستفادة من علم البيان، وهو أن تقديم الأهم أَوْلى فلو قال (يوم لا يغني كيدهم) كان السامع لهذا الكلام ربما يقول: لا يغني كيدهم غيرهم فيرجو الخير في حقهم، وإذا سمع (لا يغني عنهم) انقطع رجاؤه وانتظر الأمر الذي ليس بمغنٍ.

المسألة الرابعة: قد ذكرنا أن معنى الكيد هو فعل يسوء من نزل به وإن حسن ممن صدر منه، فما الفائدة في تخصيص العمل الذي يسوء بالذكر ولم يقل (يوم لا يغني عنهم أفعالهم) على الإطلاق؟ نقول: هو قياس بالطريق الأَوْلى لأنهم كانوا يأتون بفعل النبي ﷺ والمؤمنين وكانوا يعتقدون أنه أحسن أعمالهم فقال: (ما أغنى أحسن أعمالهم الذي كانوا يعتقدون فيه) ليقطع رجاءهم عما دونه، وفيه وجه آخر وهو أنه تعالى لما قال من قبل: ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا﴾ [الطور: ٤٢] وقد قلنا: إن أكثر المفسرين على أن المراد به تدبيرهم في قتل النبي ﷺ قال: ﴿هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾ أي لا ينفعهم كيدهم في الدنيا فماذا يفعلون يوم لا ينفعهم ذلك الكيد بل يضرهم؟ وقوله: ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ فيه وجوه: أحدها: أنه متمم، بيان وجهه هو أن الداعي أولاً يرتب أمورًا لدفع المكروه بحيث لا يحتاج إلى الانتصار بالغير والمنة، ثم إذا لم ينفعه ذلك ينتصر بالأغيار، فقال: لا ينفعهم أفعال أنفسهم ولا ينصرهم عند اليأس وحصول اليأس عن إقبالهم. ثانيها: أن المراد منه ما هو المراد من قوله تعالى: ﴿لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنقِذُونِ﴾ [يس: ٢٣]، فقوله:

﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ أي عبادتهم الأصنام، وقولهم: ﴿هَٰؤُلَاءِ شُفَعَٰٓؤُنَا﴾ [يونس: ١٨] وقولهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ﴾ [الزمر: ٣] وقوله: ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾، أي لا نصير لهم كما لا شفيع، ودفع العذاب إما بشفاعة شفيع أو بنصر ناصر. ثالثها: أن نقول: الإضافة في (كيدهم) إضافة المصدر إلى المفعول، لا إضافته إلى الفاعل، فكأنه قال: لا يغني عنهم كيد الشيطان إياهم. وبيانه هو أنك تقول: أعجبني ضرب زيدًا عَمْرًا، وأعجبني ضرب عمرو، فإذا اقتصرت على المصدر والمضاف إليه لا يعلم إلا بالقرينة والنية، فإذا سمعت قول القائل: (أعجبني ضرب زيد) يحتمل أن يكون زيد ضاربًا ويحتمل أن يكون مضروبًا، فإذا سمعت قول القائل: (أعجبني قطع اللص على سرقته) دلّت القرينة على أنه مضاف إلى المفعول، فإن قيل: هذا فاسد من حيث إنه إيضاح واضح لأن كيد المكيد لا ينفع قطعًا، ولا يخفى على أحد، فلا يحتاج إلى بيان، لكن كيد الكائد يظن أنه ينفع فقال تعالى: ذلك لا ينفع، نقول: كيد الشيطان إياهم على عبادة الأصنام وهم كانوا يظنون أنها تنفع، وأما كيدهم النبي ﷺ كانوا يعلمون أنه لا ينفع في الآخرة، وإنما طلبوا أن ينفعهم في الدنيا لا في الآخرة، فالإشكال ينقلب على صاحب الوجه الأول، ولا إشكال على الوجهين جميعًا إذا تفكرت فيما قلناه.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾﴾

في اتصال الكلام وجهان: أحدهما: متصل بقوله تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ﴾ [الطور: ٤٥] وذلك لأنه يدل على عدم جواز القتال، وقد قيل: إنه نازل قبل شرع القتال، وحينئذٍ كأنه قال: فذرهم ولا تذرهم مطلقًا من غير قتال، بل لهم قبل يوم القيامة عذاب يوم بدر حيث تؤمر بقتالهم. فيكون بيانًا وعدًا ينسخ فذرهم بالعذاب يوم بدر. ثانيهما: هو متصل بقوله تعالى: ﴿لَا يُغْنِي﴾ [الطور: ٤٦] وذلك لأنه لما بيّن أن كيدهم لا يغني عنهم قال: ولا يقتصر على عدم الإغناء بل لهم مع أن كيدهم لا يغني ويل آخر وهو العذاب المعد لهم. ولو قال (لا يغني عنهم كيدهم) كان يوهم أنه لا ينفع ولكن لا يضر، ولما قال مع ذلك: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا﴾ زال ذلك. **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: الذين ظلموا هم أهل مكة، إن قلنا: العذاب هو عذاب يوم بدر، وإن قلنا: العذاب هو عذاب القبر فالذين ظلموا عام في كل ظالم.

المسألة الثانية: ما المراد من الظلم هاهنا؟ نقول: فيه وجوه: الأول: هو كيدهم نبيهم. والثاني: عبادتهم الأوثان، والثالث: كفرهم. وهذا مناسب للوجه الثاني.

المسألة الثالثة: (دُونَ ذَٰلِكَ) على قول أكثر المفسرين معناه (قبل) ويؤيده قوله تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾ [السجدة: ٢١] ويحتمل وجهين آخرين: أحدهما: دون ذلك، أي أقل من ذلك في الدوام والشدة، يقال: الضرب دون القتل في الإيلام. ولا شك أن عذاب الدنيا دون عذاب الآخرة على هذا المعنى، وعلى هذا ففيه فائدة التنبيه على عذاب الآخرة العظيم، وذلك لأنه إذا قال عذابًا دون ذلك أي قتلاً وعذابًا في القبر، فيتفكر

المتفكر ويقول: ما يكون القتل دونه لا يكون إلا عظيمًا، فإن قيل: فهذا المعنى لا يمكن أن يقال في قوله تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾ [السجدة: ٢١] قلنا: نسلِّم ذلك ولكن لا مانع من أن يكون المراد هاهنا هذا الثاني على طريقة قول القائل: تحت لجاجك مفاسد ودون غرضك متاعب، وبيانه هو أنهم لما عبدوا غير الله ظلموا أنفسهم حيث وضعوها في غير موضعها الذي خُلقت له، فقيل لهم: إن لكم دون ذلك الظلم عذابًا.

المسألة الرابعة: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ماذا؟ نقول: الظاهر أنه إشارة إلى اليوم، وفيه وجهان آخران: أحدهما: في قوله: ﴿يُصْعَقُونَ﴾ [الطور: ٤٥] وقوله: ﴿يُغْنِي عَنْهُمْ﴾ [الطور: ٤٦] إشارة إلى عذاب واقع فقوله (ذلك) إشارة إليه، ويمكن أن يقال: قد تقدم قوله: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ [الطور: ٧] وقوله: ﴿دُونَ ذَٰلِكَ﴾، أي دون ذلك العذاب. ثانيهما: ﴿دُونَ ذَٰلِكَ﴾، أي كيدهم، فذلك إشارة إلى الكيد، وقد بينا وجهه في المثال الذي مثلنا، وهو قول القائل: (تحت لجاجك حرمانك)، والله أعلم.

المسألة الخامسة: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذكرنا فيه وجوهًا: أحدها: أنه جرى على عادة العرب حيث تعبر عن الكل بالأكثر، كما قال تعالى: ﴿أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ [سبأ: ٤١] ثم إن الله تعالى تكلم على تلك العادة ليعلم أن الله استحسنها من المتكلم حيث يكون ذلك بعيدًا عن الخلف. ثانيها: منهم من آمن فلم يكن ممن لا يعلم. ثالثها: هم في أكثر الأحوال لم يعلموا، وفي بعض الأحوال علموا، وأقله أنهم علموا حال الكشف وإن لم ينفعهم.

المسألة السادسة: مفعول ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ جاز أن يكون هو ما تقدم من الأمر: وهو أن لهم عذابًا دون ذلك، وجاز أن لا يكون له مفعول أصلاً، فيكون المراد أكثرهم غافلون جاهلون.

قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾﴾

وقد ذكرناه في تفسير قوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ﴾ [ق: ٣٩] ونشير إلى بعضه هاهنا فإن طول العهد يُنسي، فنقول: لما قال تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ﴾ [الطور: ٤٥] كان فيه الإشارة إلى أنه لم يبق في نصحهم نفع، ولا سيما وقد تقدم قوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الطور: ٤٤] وكان ذلك مما يحمل النبي ﷺ على الدعاء، كما قال نوح عليه السلام: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦] وكما دعا يونس عليه السلام فقال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ﴾ وبدل اللعن بالتسبيح ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ بدل قولك: (اللّهم أهلِكهم) ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ [القلم: ٤٨].

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ فيه وجوه: الأول: أنه تعالى لما بيّن أنهم يكيدونه كان ذلك مما يقتضي في العرف المبادرة إلى إهلاكهم لئلا يتم كيدهم فقال: اصبر ولا تخف؛ فإنك محفوظ بأعيننا. ثانيها: أنه تعالى قال: فاصبر ولا تدعُ عليهم فإنك بمرأى منا نراك، وهذه الحالة تقتضي أن تكون على أفضل ما يكون من الأحوال، لكن كونك مسبحًا لنا أفضل من كونك داعيًا على عباد خلقناهم، فاختر

الأفضل فإنك بمرأى منا. ثالثها: أن من يشكو حاله عند غيره يكون فيه إنباء عن عدم علم المشكو إليه بحال الشاكي، فقال تعالى: اصبر ولا تشكُ حالك فإنك بأعيننا نراك، فلا فائدة في شكواك.

وفيه مسائل مختصة بهذا الموضع لا توجد في قوله: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ [طه: ١٣٠].

المسألة الأولى: اللام في قوله: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ﴾ تحتمل وجوهًا: الأول: هي بمعنى (إلى) أي اصبر إلى أن يحكم الله. الثاني: الصبر فيه معنى الثبات، فكأنه يقول: فاثبت لحكم ربك، يقال: ثبت فلان لحمل قرنه. الثالث: هي اللام التي تستعمل بمعنى السبب، يقال: لمَ خرجت؟ فيقال: لحكم فلان عليَّ بالخروج. فقال: ﴿وَٱصْبِرْ﴾ واجعل سبب الصبر امتثال الأمر حيث قال: واصبر لهذا الحكم عليك لا لشيء آخر.

المسألة الثانية: قال هاهنا: ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ وقال في مواضع آخر: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾ [طه: ٣٩] نقول: لما وحَّد الضمير هناك وهو ياء المتكلم وحده وحّد العين، ولما ذكر هاهنا ضمير الجمع في قوله: ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ وهو النون جَمَع العين، وقال: ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ هذا من حيث اللفظ، وأما من حيث المعنى فلأن الحفظ ههنا أتم لأن الصبر مطية الرحمة بالنبي ﷺ حيث اجتمع له الناس وجمعوا له مكايد وتشاوروا في أمره، وكذلك أمره بالفلك وأمره بالاتخاذ عند عدم الماء وحفظه من الغرق مع كون كل البقاع مغمورة تحت الماء تحتاج إلى حفظ عظيم في نظر الخلق فقال: ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾.

المسألة الثالثة: ما وجه تعلق الباء هاهنا قلنا: قد ظهر من جميع الوجوه، أما إن قلنا بأنه للحفظ فتقديره: محفوظ بأعيننا. وإن قلنا: للعلم فمعناه بمرأى منا، أي بمكان نراك، وتقديره: فإنك بأعيننا مرئي. وحينئذٍ هو كقول القائل: (رأيته بعيني) كما يقال: (كتب بالقلم الآلة) وإن كان رؤية الله ليست بآلة، فإن قيل: فما الفرق في الموضعين حيث قال في طه: ﴿عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾ [طه: ٣٩] وقال هاهنا: ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ وما الفرق بين على وبين الباء؟ نقول: معنى (على) هناك هو أنه يرى على ما يرضاه الله تعالى، كما يقول: (أفعله على عيني) أي على رضاي، تقديره: على وجه يدخل في عيني وألتفت إليه. فإن من يفعل شيئًا لغيره ولا يرتضيه لا ينظر فيه ولا يقلب عينه إليه. والباء في قوله: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ قد ذكرناها.

وقوله: ﴿حِينَ تَقُومُ﴾ فيه وجوه: الأول: تقوم من موضعك، والمراد: قبل القيام حين ما تعزم على القيام وحين مجيء القيام، وقد ورد في الخبر أن من قال: «**سُبْحَانَ اللَّهِ**» من قبل أن يقوم من مجلسه يُكتب ذلك كفارة لما يكون قد صدر منه من اللفظ واللغو في ذلك المجلس. الثاني: حين تقوم من النوم، وقد ورد أيضًا فيه خبر يدل على أنه ﷺ كان يسبح بعد الانتباه. الثالث: حين تقوم إلى الصلاة، وقد ورد في الخبر أنه ﷺ كان يقول في افتتاح الصلاة: «**سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، وَتَبَارَكَ اسْمُكَ وَتَعَالَى جَدُّكَ، وَلاَ إِلَهَ غَيْرُكَ**»[1]. الرابع: حين تقوم لأمر ما ولا سيما إذا

(١) صحيح: أخرجه أبو داود في كتاب (الصلاة)، باب: (الاستفتاح بسبحانك اللهم وبحمدك) (١/ ٢٠٤)، حديث رقم (٧٧٥)، قال: حدثنا عبد السلام بن مظهر... به، والترمذي في كتاب (الصلاة)، باب: (ما يقول=

قمت منتصبًا لمجاهدة قومك ومعاداتهم والدعاء عليهم ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ وبدِّل قيامك للمعاداة وانتصابك للانتقام بقيامك لذكر الله وتسبيحه. الخامس: ﴿حِينَ تَقُومُ﴾ أي بالنهار، فإن الليل محل السكون والنهار محل الابتغاء وهو بالقيام أَوْلى، ويكون كقوله: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ إشارة إلى ما بقي من الزمان، وكذلك ﴿وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾ [الطور: ٤٩] وهو أول الصبح.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ۝٤٩﴾

وقد تقدم تفسيره، وهو كقوله تعالى: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ [الروم: ١٧] وقد ذكرنا فائدة الاختصاص بهذه الأوقات ومعناه.

ونختم هذه السورة بفائدة وهي أنه تعالى قال هاهنا: ﴿وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾ وقال في ق: ﴿وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ [ق: ٤٠] ويحتمل أن يقال: المعنى واحد والمراد من السجود جمع ساجد وللنجوم سجود، قال تعالى: ﴿وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ [الرحمن: ٦] وقيل: المراد من النجم نجوم السماء، وقيل: النجم ما لا ساق له من النبات، قال الله تعالى: ﴿يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الحج: ١٨] أو المراد من النجوم الوظائف، وكل وظيفة نجم في اللغة، أي إذا فرغت من وظائف الصلاة فقل سبحان الله، وقد ورد في الحديث: «مَنْ قَالَ عَقِيبَ الصَّلاَةِ: سُبْحَانَ اللَّهِ عَشْرَ مَرَّاتٍ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَشْرَ مَرَّاتٍ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ عَشْرَ مَرَّاتٍ، كُتِبَ لَهُ أَلْفُ حَسَنَةٍ» فيكون المعنى في الموضعين واحدًا لأن السجود من الوظائف، والمشهور والظاهر أن المراد من إدبار النجوم وقت الصبح حيث يدبر النجم ويخفى ويذهب ضياؤه بضوء الشمس، وحينئذٍ تبيَّن ما ذكرنا من الوجه الخامس في قوله: ﴿حِينَ تَقُومُ﴾ [الطور: ٤٨] أن المراد منه النهار لأنه محل القيام ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ﴾ القدر الذي يكون الإنسان يقظان فيه ﴿وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾ وقت الصبح فلا يخرج عن التسبيح إلا وقت النوم.

وهذا آخر تفسير هذه السورة، والله أعلم، والحمد لله ربّ العالمين، وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وسلّم.

=عند افتتاح الصلاة) (٢/ ٩)، حديث رقم (٢٤٢)، وابن ماجه في كتاب (إقامة الصلاة)، باب: (افتتاح الصلاة) (١/ ٢٦٤)، حديث رقم (٨٠٤)، والنسائي في كتاب (الافتتاح)، باب: (نوع آخر من الذكر بين افتتاح الصلاة والقراءة) (١/ ٤٦٩)، حديث رقم (٨٩٨) من طريق عبد الرزاق... به، وأحمد في (مسنده) (٣/ ٥٠)، قال: حدثنا محمد بن الحسن بن أنس... به، وفي (٣/ ٦٩) قال: حدثنا حسن بن الربيع. والدارمي في كتاب (الصلاة)، باب: (ما يقال بعد افتتاح الصلاة) (١/ ٢٨٧)، حديث رقم (١٢٣٩) من طريق زكريا بن عدي قال: حدثنا جعفر بن سليمان... به، وابن خزيمة في (صحيحه) (١/ ٢٣٨)، حديث رقم (٤٦٧)، قال: حدثنا محمد بن موسى الحرشي... به، جميعًا (ابن مطهر، ابن موسى، زيد، عبد الرزاق، محمد بن الحسن، حسن بن الربيع) عن جعفر بن سليمان... به.

سورة «والطور»

مكية كلُّها في قول الجميع، وهي تسعٌ[1] وأربعون آية

روى الأئمة عن جُبير بن مُطْعِم قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقرأ بالطُّور في المغرب. متفق عليه[2].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿وَٱلطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ۝٢ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ۝٣ وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ۝٤ وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ ۝٥ وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ۝٦ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ۝٨﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱلطُّورِ﴾ الطُّور اسمُ الجبل الذي كلَّم الله عليه موسى[3]، أقسم الله به تشريفاً له وتكريماً وتذكيراً لِمَا فيه من الآيات، وهو أحدُ جبال الجنة.

وروى إسماعيل بن إسحاق قال: حدّثنا إسماعيل بن أبي أويس، قال: حدَّثنا كثير بنُ عبد الله بنِ عمرو بن عوف، عن أبيه، عن جدِّه أنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «أربعةُ أجْبُلٍ من جبال الجنة، وأربعةُ أنهار من أنهار الجنة، وأربعة مَلَاحم من مَلَاحم الجنة» قيل: فما الأَجْبُل؟ قال: «جَبَلُ أُحُد يحبُّنا ونحبُّه، والطُّورُ جبلٌ من جبال الجنة، ولُبْنان جبلٌ من جبال الجنة، والجوديّ جبلٌ من جبال الجنة»[4]

---

(١) في النسخ الخطية: ثمان، وذكر هذا القول الزمخشري في الكشاف ٤/ ٢٢ بصيغة التضعيف، والمثبت من (م) وهو الموافق لما في التفاسير.

(٢) صحيح البخاري (٧٦٥)، وصحيح مسلم (٤٦٣)، وهو عند أحمد (١٦٧٣٥).

(٣) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٦١، وتفسير البغوي ٤/ ٢٣٦، والكشاف ٤/ ٢٢.

(٤) أخرجه ابن شبة في تاريخ المدينة ١/ ٨٠ - ٨١، وابن عدي في الكامل ٦/ ٢٠٨٠، والطبراني في الكبير ١٧/ ١٨ (١٩) من طريق كثير بن عبد الله، به. ولم يذكر ابن عدي والطبراني جبل الجودي، ووقع بدله عند ابن شبة: وَرْقَان، وإسناده ضعيف جداً. كثير بن عبد الله ضعفه ابن معين وأحمد =

وذكر الحديث، وقد استوفيناه في كتاب «التذكرة»[(١)].

قال مجاهد: الطُّور هو بالسريانية: الجبلُ[(٢)]، والمراد به طور سِيناء. وقاله السُّدِّي[(٣)]. وقال مقاتل بن حيَّان: هما طوران؛ يقال لأحدهما: طُورُ سِيناء، والآخر طورُ زيتا[(٤)]؛ لأنَّهما يُنبِتان التين والزيتون[(٥)]. وقيل: هو جبل بمَدْيَن، واسمه: زَبير.[(٦)] قال الجوهريُّ: والزَّبير: الجبل الذي كلَّم الله عليه موسى عليه السلام[(٧)].

قلت: ومدينُ بالأرض المقدَّسة، وهي قرية شعيبٍ عليه السلام.

وقيل: إن الطُّور كلُّ جبل أنبت، وما لا يُنبِت فليس بطور. قاله ابن عباس[(٨)]. وقد مضى في «البقرة» مستوفى[(٩)].

قوله تعالى: ﴿وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ﴾ أي: مكتوب، يعني القرآنَ يقرؤه المؤمنون من المصاحف، ويقرؤه الملائكة من اللَّوح المحفوظ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾.

= وأبو حاتم والنسائي، وقال الدارقطني وغيره: متروك، وقال ابن حبان: له عن أبيه عن جدّه نسخة موضوعة، وقال ابن عدي: عامة ما يرويه لا يتابع عليه. اهـ. وأبوه عبد الله بن عمرو مجهول، فقد تفرد بالرواية عنه ابنه كثير. ميزان الاعتدال ٢/ ٤٦٧ و٣/ ٤٠٦-٤٠٧ .

(١) ص ٤٤٥ - ٤٤٦ .

(٢) تفسير مجاهد ٢/ ٦٢٣ ، وأورده الطبري ٢١/ ٥٦١ ، وحكى ابن عطية عن الطبري إيراده قول مجاهد، ثم تعقبه بقوله: وهذا ضعيف لأن ما حكاه في العربية يقضي على هذا، ولا خلاف أن في الشام جبلاً يسمى بالطور، وهو طور سيناء .

(٣) النكت والعيون ٥/ ٣٧٧ .

(٤) طور زيتا : هو جبل بقرب رأس عين قنطرة الخابور ، على رأسه شجر زيتون ، يسقيه المطر ، ولذلك سمي طور زيتا . معجم البلدان ٤/ ٤٧ - ٤٨ .

(٥) قول مقاتل في المحرر الوجيز ٥/ ١٨٥ مختصر بلفظ : هما طوران .

(٦) مراح لبيد ٢/ ٣٢٧ ، وفي النكت والعيون عن مقاتل: يسمى هذا الطور زبير.

(٧) لم نقف عليه من كلامه، وذكره ابن الأثير في النهاية (زبر) دون نسبة. وأورده الزَّبيدي أيضاً في تاج العروس دون نسبة وقال: أجمع المفسرون على أن جبل المناجاة هو الطور.

(٨) النكت والعيون ٥/ ٣٧٦ .

(٩) ٢/ ١٦٤ .

﴿فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ﴾ [الواقعة:٧٨]. وقيل: يعني سائرَ الكتب المنزَّلة على الأنبياء.

وكان كلُّ كتاب في رَقٍّ ينشره أهله لقراءته. وقال الكلبي: هو ما كتب الله لموسى بيده من التوراة وموسى يسمع صَرِيرَ القلم[1]. وقال الفراء: هو صحائف الأعمال، فمِن آخذٍ كتابَه بيمينه، ومِن آخذٍ كتابَه بشماله[2]، نظيره: ﴿وَنُخۡرِجُ لَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ كِتَٰبٗا يَلۡقَىٰهُ مَنشُورًا﴾ [الإسراء:١٣]، وقولُه: ﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتۡ﴾ [التكوير:١٠]. وقيل: إنه الكتاب الذي كتبه الله تعالى لملائكته في السماء، يقرؤون فيه ما كان وما يكون[3]. وقيل: المراد ما كتب الله في قلوب الأولياء من المؤمنين، بيانُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ﴾ [المجادلة:٢٢].

قلت: وفي هذا القول تَجوُّز؛ لأنه عبَّر بالقلوب عن الرَّق. قال المبرِّد: الرَّقُّ: ما رُقِّق من الجِلد ليُكتب فيه، والمنشور: المبسوط. وكذا قال الجوهري في الصحاح[4]، قال: والرَّق ـ بالفتح ـ: ما يُكتب فيه وهو جلدٌ رقيق، ومنه قوله تعالى: ﴿فِي رَقّٖ مَّنشُورٖ﴾. والرَّق أيضًا: العظيم من السَّلاحِف. قال أبو عبيد[5]: وجمعه رُقُوق. والمعنى المراد ما قاله الفراء، والله أعلم. وكلُّ صحيفة فهي رَقٌّ لرِقّة حواشيها، ومنه قول المتلمّس:

فكأنَّما هي من تَقَادُمِ عَهْدِها رَقٌّ أُتيح كتابُها مَسطورُ[6]

وأمَّا الرِّق: ـ بالكسر ـ فهو المِلْك[7]، يقال: عبدٌ مرقوق. وحكى الماورديُّ[8]

(١) أورده البغوي في تفسيره ٤/ ٢٣٦ .
(٢) معاني القرآن للفراء ٣/ ٩١ ، ونقله المصنف بواسطة الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٣٧٧ .
(٣) النكت والعيون ٥/ ٣٧٧ .
(٤) مادة (رقق) .
(٥) في (د) و(م) : أبو عبيدة .
(٦) النكت والعيون ٥/ ٣٧٧ .
(٧) الصحاح (رقق) .
(٨) في النكت والعيون ٥/ ٣٧٧ .

عن ابن عباس: أن الرَّق ـ بالفتح ـ ما بين المشرق والمغرب.

قوله تعالى: ﴿وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ﴾ قال عليٌّ وابن عباس وغيرهما: هو بيت في السماء حِيَال الكعبة، يدخله كلَّ يوم سبعون ألفَ ملَك، ثم يخرجون منه، فلا يعودون إليه[١]. قال عليٌّ ﷺ: هو بيت في السماء السادسة[٢]. وقيل: في السماء الرابعة[٣]. روى أنس بن مالك، عن مالك بن صَعْصَعة قال: قال رسول الله ﷺ: «أُتيَ بي إلى السماء الرابعة، فرُفِع لنا البيتُ المعمور، فإذا هو حِيالُ الكعبة، لو خَرَّ خَرَّ عليها، يدخله كلَّ يوم سبعون ألفَ مَلَك، إذا خرجوا منه لم يعودوا إليه» ذكره الماورديُّ[٤].

وحكى القشيريُّ عن ابن عباس: إنه في السماء الدنيا. وقال أبو بكر الأنباري: سأل ابن الكَوَّاء عليًّا ﷺ قال: فما البيت المعمور؟ قال: بيتٌ فوق سبع سماوات تحت العرش يقال له: الضُّراح[٥]. وكذا في «الصحاح»: والضُّراح ـ بالضم ـ بيت في السماء، وهو البيت المعمور عن ابن عباس[٦]. وعُمْرانه: كثرةُ غاشيته من الملائكة. وقال المهدويُّ عنه: حِذاء العرش.

والذي في صحيح مسلم، عن مالك بن صعصعة عن النبيِّ ﷺ في حديث الإسراء: «ثم رُفع لي[٧] البيتُ المعمور، فقلت: يا جبريل، ما هذا؟ قال: هذا البيت

---

(١) تفسير أبي الليث ٣/ ٢٨٢، والنكت والعيون ٥/ ٣٧٧، وأخرجه عنهما الطبري ٢١/ ٥٦٤.

(٢) أخرجه الطبري ٢١/ ٥٦٣.

(٣) تفسير أبي الليث ٣/ ٢٨٢ وروى البخاري (٣٢٠٧) و(٣٨٨٧) ومسلم (١٦٤) من حديث أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة أنه في السماء السابعة.

(٤) في النكت والعيون ٥/ ٣٧٧، وفيه: السماء السابعة: بدل: السماء الرابعة، وهي رواية عن أنس كما ذكر الحافظ في الفتح ٦/ ٣٠٩، وقال: أكثر الروايات أنه في السماء السابعة.

(٥) أخرجه الطبري ٢١/ ٥٦٣، وأورده السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١١٧ وعزاه لابن الأنباري في المصاحف.

(٦) الصحاح (ضرح)، وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٣٩٩٧) عن ابن عباس بلفظ: إن في السماء بيتاً يقال له: الضراح، وهو فوق البيت العتيق من حياله ...

(٧) في (د) و(م): إليّ.

المعمور، يدخله كلَّ يوم سبعون ألفَ مَلَك، إذا خرجوا منه لم يعودوا إليه آخر ما عليهم»[١] وذكر الحديث.

وفي حديث ثابت عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «أُتيت بالبُرَاق» الحديث، وفيه: «ثم عُرِج بنا إلى السماء[٢] السابعة، فاستفتح جبريل عليه السلام، فقيل: مَن هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومَن معك؟ قال: محمدٌ ﷺ. قيل: وقد بُعِث إليه؟ قال: قد بُعِث إليه، ففتح لنا، فإذا أنا بإبراهيمَ عليه السلام مسنداً ظهرَه إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله كلَّ يوم سبعون ألفَ مَلَك لا يعودون إليه»[٣].

وعن ابن عباس أيضاً قال: لله في السماوات والأرضين خمسةَ عشرَ بيتاً، سبعةٌ في السماوات، وسبعة في الأرضين، والكعبة، وكلُّها مقابلة للكعبة.

وقال الحسن: البيت المعمور هو الكعبة؛ البيت الحرام؛ الذي هو معمور من الناس، يعمره الله كلَّ سنة بستِّ مئة ألف، فإن عجز الناس عن ذلك أتمَّه الله بالملائكة، وهو أوّل بيت وضعه الله للعبادة في الأرض[٤].

وقال الربيع بن أنس: إنَّ البيت المعمور كان في الأرض موضعَ الكعبة في زمان آدم عليه السلام، فلمَّا كان زمانُ نوح عليه السلام أمرهم أن يحجُّوا، فأَبَوا عليه وعصَوه، فلمَّا طغى الماء، رُفِع، فجُعل بحِذائه في السماء الدنيا، فيَعمرُه كلَّ يوم سبعونَ ألفَ ملَك، ثم لا يرجعون إليه حتى يُنفخ في الصور، قال: فبوَّأ الله جلَّ وعزَّ لإبراهيمَ مكانَ البيت حيث كان، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ

(١) صحيح مسلم (١٦٤) : (٢٦٤) ، وعلقه البخاري (٣٢٠٧) وهو عند أحمد (١٧٨٣٦). وينظر كلام الحافظ ابن حجر ٧/ ٢١٥ على رواية قتادة. وقوله : آخر ما عليهم؛ قال النووي في شرح صحيح مسلم ٢/ ٢٢٥: روي برفع الراء ونصبها ، فالنصب على الظرف ، والرفع على تقدير : ذلك آخر ما عليهم من دخوله ، والرفع أوجه.

(٢) لفظة : السماء ، ليست في (د) و(م) .

(٣) أخرجه أحمد (١٢٥٠٥) ، ومسلم (١٦٢) : (٢٥٩) واللفظ له .

(٤) أورده الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٣٧٨ عنه بلفظ : البيت المعمور هو البيت الحرام .

أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾[١] [الحج: ٢٦].

﴿وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ﴾ يعني السماءَ؛ سمَّاها سقفاً؛ لأنها للأرض كالسقف للبيت، بيانه: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ [الأنبياء: ٣٢]. وقال ابن عباس: هو العرش، وهو سقف الجنة. ﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ﴾ قال مجاهد: المُوقَد[٢]. وقد جاء في الخبر: «إن البحر يُسجَر يوم القيامة فيكون ناراً»[٣]. وقال قتادة: المملوء[٤]. وأنشد النَّحْويون للنَّمِر بن تَوْلَب:

إذا شاء طالعَ مَسْجُورةً تَرَى حَولَها النَّبْعَ والسَّاسَما[٥]

يريد وَعْلًا يطالع عيناً مسجورة مملوءة.

فيجوز أن يكون المملوءُ ناراً، فيكون كالقول المتقدِّم. وكذا قال الضحاك وشِمْر ابن عطية ومحمد بن كعب والأخفش[٦]: إنه[٧] المَوْقِد المحميُّ بمنزلة التَّنُّور المسجور. ومنه قيل: لِلْمسْعَر: مِسْجَر، ودليل هذا التأويل قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ [التكوير: ٦] أي: أُوقِدت، سَجَرتُ التَّنُّور أسجُره سَجْراً، أي: أحميتُه[٨].

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٣٧٨.

(٢) تفسير مجاهد ٢/ ٦٢٤، وأخرجه الطبري ٢١/ ٥٦٨.

(٣) لم نقف عليه بهذا اللفظ، وأورد الواحدي في الوسيط ٤/ ١٨٥، والبغوي في تفسيره ٤/ ٢٣٧، والزمخشري في الكشاف ٤/ ٢٢ - ٢٣ ـ واللفظ له ـ وابن الجوزي في زاد المسير ٨/ ٤٨: «إن الله تعالى يجعل يوم القيامة البحار كلها ناراً تسجر بها نار جهنم».

(٤) أخرجه الطبري ٢١/ ٥٦٨.

(٥) أورده أبو عبيدة في مجاز القرآن ٢/ ٢٣٠، والطبري ٢١/ ٥٧٠، والبغدادي في الخزانة ١١/ ٩٥. قوله: النبع: هو شجر للقِسِيِّ وللسهام. والسَّاسَم: شجر يعمل منه القِسيّ. القاموس (نبع) و(سسم). وسلف عند تفسير الآية (٧٢) من سورة غافر.

(٦) أورد قول الضحاك ومحمد بن كعب البغوي في تفسيره ٤/ ٢٣٧، وقول شمر الطبري ٢١/ ٥٦٨، وقول الأخفش الطبرسي في مجمع البيان ٢٧/ ٢٧.

(٧) في (م): بأنه.

(٨) الصحاح (سجر).

وقال سعيد بن المسيِّب: قال عليٌّ ﷺ لرجل من اليهود: أين جهنم؟ قال: البحر. قال ما أراكَ إلا صادقاً. وتلا: ﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ﴾، ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِرَتْ﴾ [التكوير: ٦] مخفَّفة[١]. وقال عبد الله بن عمرو: لا يُتوضأ بماء البحر لأنه طبق جهنم[٢]. وقال كعب: يُسجَر البحر غداً فيُزاد في نار جهنم[٣]. فهذا قول.

وقال ابن عباس: المسجور الذي ذهب ماؤه. وقاله أبو العالية[٤]. وروى عطية وذو الرُّمَّة الشاعر عن ابن عباس قال: خرجت أَمَة لتسقيَ فقالت: إن الحوض مسجورٌ، أي: فارغ[٥]، قال ابن أبي داود: ليس لذي الرُّمَّة حديثٌ إلا هذا. وقيل: المسجور، أي: المفجور، دليله: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾ [الانفطار: ٣]، أي: تَنْشِفُها الأرض فلا يبقى فيها ماء.

وقول ثالث قاله عليٌّ ﷺ وعكرمة، قال أبو مَكين: سألت عكرمة عن البحر المسجور فقال: هو بحر دون العرش. وقال عليٌّ: تحت العرش؛ فيه ماء غليظ يقال[٦] له: بحر الحيوان يُمطر العباد منه بعد النفخة الأولى أربعين صباحاً، فينبتون في قبورهم[٧]. وقال الربيع بن أنس: المسجور: المختلط العذب بالمِلْح[٨].

قلت: وإليه يرجع معنى «فُجِّرَتْ» في أحد التأويلين، أي: فُجِّرَ عذبُها في

---

(١) أخرجه الطبري ٢١/ ٥٦٨، وقرأ من السبعة: سُجِرت، بالتخفيف: ابن كثير وأبو عمرو. ينظر السبعة ص٦٧٣، والتيسير ص ٢٢٠.

(٢) سلف قول ابن عمرو في البحر: هو نار ١٥/ ٤٤٢ وهو عند الترمذي (٦٩).

(٣) أخرجه أبو الشيخ في العظمة (٩٣٢)، وأبو نعيم في الحلية ٥/ ٣٧٥ بنحوه.

(٤) أخرج قول ابن عباس الطبري ٢١/ ٥٦٩. وأورد قول أبي العالية البغوي في تفسيره ٤/ ٢٣٧، وابن الجوزي في زاد المسير ٨/ ٤٨.

(٥) أورده السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١١٨ عن ذي الرمة عن ابن عباس، وعزاه للشيرازي في الألقاب.

(٦) في (م): ويقال.

(٧) الوسيط ٤/ ١٨٥، وتفسير البغوي ٤/ ٢٣٧ بنحوه، وأخرجه الطبري ٢١/ ٥٧٠ عن علي بلفظ: (والبحر المسجور) قال: بحر في السماء تحت العرش. وأبو مكين: هو نوح بن ربيعة البصري، روى له أبو داود والنسائي وابن ماجه. تهذيب الكمال.

(٨) تفسير البغوي ٤/ ٢٣٧، وزاد المسير ٨/ ٤٨.

مالحها، والله أعلم. وسيأتي[١]. وروى عليُّ بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: المسجور: المحبوس[٢].

﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ﴾ هذا جواب القسم، أي: واقع بالمشركين. قال جُبَير بن مُطْعِم: قدمت المدينة لأسأل رسول الله ﷺ في أُسارى بدر، فوافيتُه يقرأ في صلاة المغرب: «وَالطُّورِ» إلى قوله: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ . مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ﴾ فكأنما صُدع قلبي، فأسلمت خوفاً من نزول العذاب، وما كنت أظنُّ أن أقوم من مقامي حتى يقع بي العذاب[٣].

وقال هشام بن حسان: انطلقت أنا ومالكُ بن دينار إلى الحسن وعنده رجل يقرأ: «وَالطُّورِ» حتى بلغ: «إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ، مَالَهُ مِنْ دَافِعٍ»، فبكى الحسن وبكى أصحابه، فجعل مالك يضطرب حتى غُشِي عليه.

ولمَّا وُلِّي بكّارٌ القضاء، جاء إليه رجلان يختصمان، فتوجهتْ على أحدهما اليمين، فرغب إلى الصُّلح بينهما، وأنه يُعطي خصمه من عنده عوضاً من يمينه، فأبى إلا اليمين، فأحلفه بأوّل «وَالطُّورِ» إلى أن قال[٤] له: قل: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ﴾ إن كنتُ كاذباً، فقالها، فخرج، فكُسِر من حينه.[٥]

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ۝٩ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ۝١٠ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ۝١٢ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ۝١٣ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝١٤ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ۝١٥ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝١٦﴾

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا﴾ العامل في «يوم» قولُه: «وَاقِعٌ»، أي: يقع

---

(١) عند تفسير الآية (٦) من سورة التكوير، والآية (٣) من سورة الانفطار.

(٢) أخرجه الطبري ٢١/٥٦٩ .

(٣) تفسير البغوي ٤/٢٣٧ والنكت والعيون ٥/٣٧٩ ، والكشاف ٤/٢٣ . وسلف في أول السورة مختصراً.

(٤) في (م) : قاله .

(٥) لم نقف على الخبرين ، وبكّار: هو ابن قتيبة، أبو بكرة، قاضي القضاة بمصر. توفي سنة (٢٧٠هـ) سير أعلام النبلاء ١٢/٥٩٩ .

العذاب بهم يوم القيامة، وهو اليوم الذي تمور فيه السماء[١]. قال أهل اللغة: مار الشيءُ يَمورُ مَوْرًا، أي: تحرَّك وجاء وذهب؛ كما تَتَكفَّأُ النخلةُ العَيْدانة، أي: الطويلة، والتموُّر مثله. وقال الضحاك: يموج بعضها في بعض. مجاهد: تدور دوراً[٢]. أبو عبيدة[٣] والأخفش: تَكَفَّأ، وأنشد للأعشى[٤]:

كأنَّ مِشْيَتَها من بيت جارتها مَوْرُ السَّحابة لا رَيْثٌ ولا عَجَلُ

وقيل: تجري جرياً، ومنه قول جرير:

وما زالتِ القَتْلَى تَمُورُ دماؤها بِدِجلَةَ حتَّى ماءُ دِجلةَ أَشْكَلُ[٥]

وقال ابن عباس: تمور السماء يومئذ بما فيها وتضطرب[٦]. وقيل: يدور أهلها فيها ويموج بعضهم في بعض.

والمَوْر أيضاً: الطريق. ومنه قول طَرَفة:

... فَوْقَ مَوْرٍ مُعَبَّدِ[٧]

والمَوْرُ: المَوْج. وناقةٌ مَوَّارة اليد، أي: سريعة. والبعير يمور عَضُداه: إذا تردَّدا في عَرْض جنبه، قال الشاعر:

على ظَهْرِ مَوَّارِ المِلَاطِ حِصَانِ

---

(١) ينظر مشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٩٠.

(٢) أخرج قول الضحاك ومجاهد الطبري ٢١/ ٥٧٢ - ٥٧٣.

(٣) في مجاز القرآن ٢/ ٢٣١.

(٤) في (ز) و(ظ) و(ف): الأعشى، والمثبت من (د) و(م)، وهو الموافق لما في الصحاح (مور) والكلام منه، والبيت في ديوان الأعشى ص١٠٥، وفيه: مرُّ، بدل: مور.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٣٧٩، والبيت في ديوان جرير ص ٣٦٧، والأشْكَل: ما فيه حمرة وبياض مختلط. القاموس (شكل).

(٦) أخرجه الطبري ٢١/ ٥٧٢ بلفظ: ﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا﴾ قال: يقول: تحريكاً.

(٧) ديوان طرفة ص ٢٢، والبيت بتمامه: تباري عِتاقاً ناجيات وأتبعت وظيفاً وظيفاً فوق مَوْرٍ معبَّد. وسلف ١/ ٣٤١.

المِلاط: الجَنْب. وقولهم: لا أدري أغارَ أم مَارَ[(١)]، أي: أتى غَوراً، أم دار فرجع إلى نجد. والمُور ـ بالضم ـ الغبار بالريح[(٢)].

وقيل: إن السماء هاهنا الفَلَك، ومورُه اضطرابُ نُظُمه، واختلافُ سيره. قاله ابن بحر[(٣)].

﴿وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا﴾ قال مقاتل: تسير عن أماكنها حتى تستويَ بالأرض. وقيل: تسير كسير السحاب اليوم في الدنيا، بيانه: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨]، وقد مضى هذا المعنى في «الكهف»[(٤)].

﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ «وَيْلٌ»: كلمة تقال للهالك، وإنما دخلت الفاء لأن في الكلام معنى المجازاة[(٥)]. ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ﴾ أي: في تردُّد في الباطل، وهو خوضُهم في أمر محمد بالتكذيب. وقيل: في خوض في أسباب الدنيا يلعبون، لا يذكرون حساباً ولا جزاءً. وقد مضى في «براءة»[(٦)].

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ﴾ «يَوْمَ» بدل من يومئذ[(٧)]. و«يُدَعُّونَ»: معناه يُدفعون إلى جهنم بشدَّة وعنف، يقال: دَعَعْتُه أدُعُّه دعًّا، أي: دفعته، ومنه قوله تعالى: ﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ﴾[(٨)] [الماعون: ٢]. وفي التفسير: إن خزنة جهنم يَغلُّون أيديَهم إلى أعناقهم، ويجمعون نواصيَهم إلى أقدامهم، ثم يدفعونهم في النار دفعًا

---

(١) مجمع الأمثال للميداني ٢/ ٢٩٣ .

(٢) الصحاح (مور) و(ملط) .

(٣) النكت والعيون ٥/ ٣٨٠ .

(٤) ١٣/ ٢٩٤ - ٢٩٥ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٥٤ .

(٦) ١٠/ ٢٩٦ .

(٧) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٥٤ ، ومشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٩٠ .

(٨) الصحاح (دعع) .

على وجوههم، وزَخًّا[١] في أعناقهم حتى يردوا النار[٢]. وقرأ أبو رجاء العُطاردي وابن السَّمَيْفَع: «يَوْمَ يُدعَوْنَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًا» بالتخفيف من الدعاء[٣]، فإذا دنَوْا من النار، قالت لهم الخزنة: ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ في الدنيا[٤].

قوله تعالى: ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ﴾ استفهام معناه التوبيخ والتقريع، أي: يقال لهم: أَفسِحْرٌ هَذَا الذي تَرَونَ الآن بأعينكم ﴿أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾؟ وقيل: «أَمْ» بمعنى بل، أي: بل كنتم لا تبصرون في الدنيا ولا تعقلون.

قوله تعالى: ﴿ٱصْلَوْهَا﴾ أي: تقول لهم الخزنة: ذوقوا حرَّها بالدخول فيها. ﴿فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي: سواءٌ كان لكم فيها صبرٌ، أو لم يكن. فـ «سواء» [مبتدأ] خبرُه محذوف، أي: سواء عليكم الجزعُ والصبر[٥]، فلا ينفعكم شيء، كما أخبر عنهم أنهم يقولون: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا﴾ [إبراهيم: ٢١]. ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ﴾ لمَّا ذكر حال الكفار؛ ذكر حال المؤمنين أيضًا. ﴿فَٰكِهِينَ﴾ أي: ذوي فاكهةٍ كثيرة، يقال: رجلٌ فاكِهٌ، أي: ذو

---

(١) في النسخ الخطية: وزجًّا، والمثبت من (م)، ويقال: زخَّه في قفاه، أي: دفعه.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٢٣٨، والكشاف ٤/ ٢٣، ونسب هذا الكلام لمقاتل الواحدي في الوسيط ٤/ ١٨٥، وابن الجوزي في زاد المسير ٨/ ٤٩.

(٣) ذكرها عن أبي رجاء العطاردي ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ١٨٧، وذكرها الزمخشري ٤/ ٢٣ عن زيد بن علي. قال الألوسي في روح المعاني ٢٧/ ٣٠: وتكون «دعًّا» حال، أي: ينادون إليها مدعوعين.

(٤) الوسيط ٤/ ١٨٥، وتفسير البغوي ٤/ ٢٣٨، وزاد المسير ٨/ ٤٩.

(٥) ما بين حاصرتين للإيضاح، والكلام بنحوه في إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٥٥. ومعاني القرآن للزجاج ٥/ ٦٢.

فاكهة، كما يقال: لابِنٌ وتامِرٌ، أي: ذو لبن وتمر[١]، قال:

وغَـرَرْتَـنِـي وزعـمـتَ أنـ ـكَ لابِـنٌ بـالـصَّـيْـفِ تَـامِـرْ[٢]

أي: ذو لبن وتمر.

وقرأ الحسن وغيره: «فَكِهينَ» بغير ألف[٣]، ومعناه: معجبين ناعمين في قول ابن عباس وغيره، يقال: فَكِه الرجلُ ـ بالكسر ـ فهو فَكِهٌ: إذا كان طيِّب النفس مزَّاحًا. والفَكِه أيضًا: الأشِر البطِر[٤]. وقد مضى في «الدخان»[٥] القولُ في هذا. ﴿بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ﴾ أي: أعطاهم ﴿رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾.

﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟﴾ أي: يقال لهم ذلك. ﴿هَنِيٓـًٔا﴾ الهنيء ما لا تنغيص فيه ولا نَكَد ولا كَدَر. قال الزجاج[٦]: أي: لِيَهْنِكم[٧] ما صِرتُم إليه هَنِيئًا. وقيل: أي: مُتِّعتم بنعيم الجنة إمتاعًا هنيئًا. وقيل: أي: كلوا واشربوا هُنِّئتُم هَنِيئاً. فهو صفة في موضع المصدر. وقيل: هنيئاً، أي: حلالاً. وقيل: لا أذًى فيه ولا غائلة. وقيل: هَنِيئًا، أي: لا تموتون، فإن ما لا يبقى ـ أو لا يبقى الإنسانُ معه ـ منغَّصٌ غيرُ هنيء.

قوله تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ﴾ سُرُر جمع سرير، وفي الكلام حذف تقديره: متَّكِئين على نمارقَ على[٨] سُرُر. ﴿مَّصْفُوفَةٍ﴾ قال ابن بحر[٩]: أي: موصولة بعضُها إلى بعض حتى تصير صفًّا. وفي الأخبار أنها تصفُّ في السماء بطول كذا وكذا، فإذا

---

(١) بنحوه في النكت والعيون ٥/ ٣٨٠.

(٢) البيت لحطيئة، وهو في ديوانه ص ١٦٨، وفيه: أغررتني، بدل: وغررتني.

(٣) وهي قراءة أبي جعفر يزيد بن القعقاع، وهو من العشرة. النشر ٢/ ٣٥٤

(٤) الصحاح (فكه).

(٥) ص١١٨ من هذا الجزء.

(٦) في معاني القرآن ٥/ ٦٣.

(٧) في (م): ليهنئكم.

(٨) لفظة: على، ليست في (م)، والكلام بنحوه في تفسير الطبري ٢١/ ٥٧٨، وزاد المسير ٨/ ٥٠.

(٩) في (د) و(م): ابن الأعرابي، وقول ابن بحر في النكت والعيون ٥/ ٣٨١.

أراد العبد أن يجلس عليها تواضعت له، فإذا جلس عليها عادت إلى حالها[١]. قال ابن عباس: هي سُرُر من ذهب، مكلَّلةٌ بالزَّبَرْجد والدُّر والياقوت[٢]، والسريرُ ما بين مكة وأيْلة[٣].

﴿وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ أي: قرنّاهم بهنّ. قال يونس بن حبيب: تقول العرب: زوجته امرأة وتزوّجت امرأةً، وليس من كلام العرب: تزوّجت بامرأة. قال: وقول الله عز وجل: ﴿وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ أي: قرنّاهم بهنّ[٤]، مِن قول الله تعالى: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ [الصافات: ٢٢] أي: وقرناءهم. وقال الفرّاء: تزوّجت بامرأة، لغةٌ في أَزْدِ شنوءة[٥]. وقد مضى القول في معنى الحور العين[٦].

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم﴾ قرأ العامة: «وَاتَّبَعَتْهُمْ» بوصل الألف وتشديد التاء وفتح العين وإسكان التاء. وقرأ أبو عمرو: «وَأَتْبَعْنَاهُمْ» بقطع الألف وإسكان التاء والعين ونون، اعتباراً بقوله: «أَلْحَقْنَا بِهِمْ»؛ ليكون الكلام على نسق واحد.

---

(١) سيرد في تفسير سورة الواقعة الآية (١٦) من قول الكلبي.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٤٧٩، وزاد المسير ٩/ ٩٨، وتفسير الرازي ٣١/ ١٥٦.

(٣) لم نقف عليه. وأيلة: جبل بين مكة والمدينة قرب يَنْبُع. وأيلة أيضاً بلد بين ينبع ومصر. القاموس (أيل).

(٤) تهذيب اللغة للأزهري ١١/ ١٥٢، ونسب هذا القول لابن السكيت.

(٥) المصدر السابق.

(٦) ص١٣٧ من هذا الجزء وما بعدها.

فأمَّا قوله: «ذُرِّيَّتُهُمْ» الأولى، فقرأها بالجمع ابنُ عامر وأبو عمرو ويعقوبُ ورواها عن نافع، إلا أن أبا عمرو كسر التاء على المفعول، وضمَّ باقيهم. وقرأ الباقون: «ذُرِّيَّتُهُمْ» على التوحيد وضمِّ التاء، وهو المشهور عن نافع.

فأمَّا الثانية، فقرأها نافع وابن عامر وأبو عمرو ويعقوب بكسر التاء على الجمع. الباقون: «ذُرِّيَّتَهُمْ» على التوحيد وفتح التاء[1].

واختُلِف في معناه، فقيل عن ابن عباس أربعُ روايات: الأولى أنه قال: إن الله ليرفع ذرِّيَّة المؤمن معه في درجته في الجنة[2] وإن كانوا دونه في العمل؛ لتقرَّ بهم عينه، وتلا هذه الآية[3]. ورواه مرفوعًا النحاس في «الناسخ والمنسوخ» له عن سعيد ابن جبير عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله عز وجل ليرفع ذرية المؤمن معه في درجته في الجنة[4] وإن كان لم يبلغها بعمله؛ لتقرَّ بهم عينه» ثم قرأ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ﴾ الآية[5]. قال أبو جعفر[6]: فصار الحديث مرفوعًا عن النبيِّ ﷺ. وكذا يجب أن يكون؛ لأن ابن عباس لا يقول هذا إلا عن رسول الله ﷺ؛ لأنه إخبار عن الله عز وجل بما يفعله، وبمعنى أنه أنزلها جل ثناؤه. الزمخشري[7]: فيجمع الله لهم أنواع السرور بسعادتهم في أنفسهم، وبمزاوجة الحور العين،

(١) السبعة ص ٦١٢ ، والتيسير ص ٢٠٣ ، والنشر ٢/ ٢٧٣ ، ٣٧٧ ، ولم نقف على رواية الجمع عن نافع في اللفظة الأولى.

(٢) في النسخ الخطية : إن الله ليرفع ذريّة المؤمن إليه ، والمثبت من (م) وهو الموافق للمصادر الآتية .

(٣) أخرجه الطبري ٢١/ ٥٧٩ ، والطحاوي في شرح مشكل الآثار ٣/ ١٠٥ ، والنحاس في الناسخ والمنسوخ (٨٤٨) .

(٤) قوله : في الجنة ، من (ف) و(م) .

(٥) الناسخ والمنسوخ (٨٤٩) ، وأخرجه أيضاً الطحاوي في شرح مشكل الآثار ٣/ ١٠٦ (١٠٧٥) كلاهما من طريق سفيان الثوري عن سماعة... ، وهو منقطع ، كما ذكر البخاري في التاريخ الكبير ٤/ ٢١٤ .

(٦) في الناسخ والمنسوخ ٣/ ٣٨ .

(٧) في الكشاف ٤/ ٢٤ .

وبمؤانسة الإخوان المؤمنين، وباجتماعِ أولادهم ونسلهم بهم.

وعن ابن عباس أيضًا أنه قال: إن الله ليُلحِق بالمؤمن ذريَّته الصَّغار الذين لم يبلغوا الإيمان(١). قاله المهدوي. والذريةُ تقع على الصغار والكبار، فإن جُعِلت الذرية ها هنا للصغار، كان قولُه تعالى: «بِإِيمَانٍ» في موضع الحال من المفعولين، وكان التقدير: بإيمانٍ من الآباء. وإن جُعِلت الذرية للكبار، كان قوله: بإيمانٍ، حالاً من الفاعلين(٢).

القول الثالث عن ابن عباس: أن المراد بالذين آمنوا المهاجرون والأنصار، والذريةِ التابعون.

وفي رواية عنه: إن كان الآباء أرفعَ درجةً؛ رفع الله الأبناء إلى الآباء، وإن كان الأبناء أرفعَ درجةً؛ رفع الله الآباء إلى الأبناء، فالآباء داخلون في اسم الذريَّة، كقوله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ [يس: ٤١].

وعن ابن عباس أيضًا يرفعه إلى النبيِّ ﷺ قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة، سأل أحدهم عن أبويه وعن زوجته وولده، فيقال لهم: إنهم لم يُدرِكوا ما أدركت، فيقول: يا ربِّ، إني عملت لي ولهم، فيؤمر بإلحاقهم به»(٣).

وقالت خديجة رضي الله عنها: سألتُ النبيَّ ﷺ عن ولدين لي ماتا في الجاهلية، فقال لي: «هما في النار»، فلمَّا رأى الكراهية في وجهي قال: «لو رأيتِ مكانَهما لأبغضتِهما». قالت: يا رسول الله، فولدِي منك؟ قال: «في الجنة»، ثم قال: «إن المؤمنين وأولادَهم في الجنة، والمشركين وأولادَهم في النار»، ثم قرأ: ﴿وَٱلَّذِينَ

(١) ينظر تفسير البغوي ٤/ ٢٣٩، وأخرجه الطبري ٢١/ ٥٨٠ - ٥٨١ بنحوه.

(٢) الحجة لأبي علي الفارسي ٦/ ٢٢٤ - ٢٢٥.

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (١٢٢٤٨)، قال الهيثمي في المجمع ٧/ ١١٤: فيه محمد بن عبد الرحمن ابن غزوان وهو ضعيف.

ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ﴾ الآية(١).

﴿وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ﴾ أي: ما نقصنا الأبناء من ثواب أعمالهم لِقصَر أعمارهم، وما نقصنا الآباء من ثواب أعمالهم شيئاً بإلحاق الذُّرِّيَّات بهم. والهاء والميم راجعان إلى قوله تعالى: «وَالَّذِينَ آمَنُوا».

وقال ابن زيد: المعنى: واتَّبعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ ألحقنا بالذُّرِّيَّة أبناءَهم الصغارَ الذين لم يبلغوا العمل(٢)، فالهاء والميم على هذا القول للذُّرِّيَّة.

وقرأ ابن كثير: «وَمَا أَلِتْنَاهُمْ» بكسر اللام. وفتح الباقون(٣). وعن أبي هريرة: «آلَتْنَاهُمْ» بالمدّ(٤)، قال ابن الأعرابي: أَلَتَه يألِته أَلْتًا، وآلَتَه يُؤْلته إيلَاتًا، ولَاتَه يَلِيته لَيْتًا، كلُّها إذا نَقَصه. وفي الصحاح: ولَاتَه عن وجهه يَلُوته ويَليته، أي: حبسه عن وجهه وصرفه، وكذلك ألاته عن وجهه، فَعَل وأَفْعل بمعنى، ويقال أيضاً: ما أَلَاته من عمله شيئًا، أي: ما نَقَصه، مثل أَلَتَه(٥). وقد مضى في «الحجرات»(٦).

﴿كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ قيل: يرجع إلى أهل النار(٧). قال ابن عباس: ارتهن

(١) أخرجه عبد الله بن أحمد بن حنبل في زوائد المسند (١١٣١)، وابن أبي عاصم في السنة (٢١٣) من حديث علي ﷺ، وفيه محمد بن عثمان، قال الذهبي في الميزان ٣/ ٦٤٢: لا يُدرى من هو، فتشت عنه في أماكن، وله خبر منكر. اهـ. ثم ساق هذا الحديث من طريقه. وقال ابن الجوزي في جامع المسانيد - كما في كنز العمال ٢/ ٥١٢: في إسناده محمد بن عثمان لا يقبل حديثه، ولا يصح في تعذيب الأطفال حديث.

(٢) أخرجه الطبري ٢١/ ٥٨١ بنحوه.

(٣) السبعة ص ٦١٢، والتيسير ص ٢٠٣.

(٤) في (ظ): ابن هرمز، ولقبه الأعرج، وقراءته في القراءات الشاذة ص ١٤٦، والمحتسب ٢/ ٢٩٠ ولم نقف على من نسبها لأبي هريرة، ولعله محرّف عن ابن هرمز، وقد نسب ابن الجوزي القراءة في زاد المسير ٨/ ٥١ لابن السميفع.

(٥) الصحاح (ليت).

(٦) ص٤٢١ - ٤٢٢ من هذا الجزء.

(٧) ينظر زاد المسير ٨/ ٥١.

أهل جهنم بأعمالهم، وصار أهل الجنة إلى نعيمهم، ولهذا قال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ . إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ﴾ [المدثر:٣٨-٣٩]. وقيل: هو عامٌّ لكلِّ إنسان مُرْتَهَن بعمله، فلا يُنقَص أحد من ثواب عمله، فأمَّا الزيادةُ على ثواب العمل فهي تفضُّلٌ من الله. ويحتمل أن يكون هذا في الذُّرِّيَّة الذين لم يؤمنوا، فلا يلحقون آباءهم المؤمنين، بل يكونون مُرْتَهنين بكفرهم.

قوله تعالى: ﴿وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ أي: أكثرنا لهم من ذلك زيادةً من الله، أمدَّهم بها غيرَ الذي كان لهم.

قوله تعالى: ﴿يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا﴾ أي: يتناولها بعضهم من بعض وهو المؤمن وزوجاتُه وخدمُه في الجنة. والكأس: إناءُ الخمر، وكلُّ إناء مملوء[1] من شراب وغيره، فإذا فرغ لم يسمَّ كأسًا. وشاهدُ التنازع والكأس في اللغة قولُ الأخطل:

وشارِبٍ مُرْبِحٍ بالكأس نادَمَني ... لا بالحَصُور ولا فيها بسَوَّارِ
نازَعْتُه طَيِّبَ الرَّاحِ الشَّمُولِ وقدْ ... صاحَ الدَّجاجُ وحانَتْ وَقْعَةُ السَّاري[2]

وقال امرؤ القيس:

فلمَّا تَنازَعْنا الحديثَ وأَسْمَحَتْ ... هَصَرْتُ بغصنٍ ذي شَمَاريخَ مَيَّالِ[3]

وقد مضى هذا في «والصافات»[4].

﴿لَّا لَغْوٌ فِيهَا﴾ أي: في الكأس، أي: لا يجري بينهم لغوٌ ﴿وَلَا تَأْثِيمٌ﴾ ولا ما فيه

---

(١) في النكت والعيون ٥/ ٣٨٢ ـ والكلام منه ـ: والكأس إناء مملوء.

(٢) ديوان الأخطل ص١١٦، قال الشيخ محمود شاكر رحمه الله في تعليقه على طبقات فحول الشعراء ٢/ ٥٠١: مُرْبح: من قولهم: أربحه بمتاعه أو سلعته: أعطاه ربحاً. أراد الأخطل أنه لا يبالي أنه يغالي بثمنها فيصيب الخمار منها ربحاً وافراً، يمدحه بحب اللهو وبالكرم. الحصور: البخيل الممسك الممنوع. والسَّوَّار: الذي تَسُور الخمر في رأسه سريعاً.

(٣) ديوان امرئ القيس ص ٣٢، قال شارح الديوان: قوله: فلما تنازعنا الحديث: أي حدثتني وحدثتها. ومعنى أسمحت: انقادت وسهلت. وقوله: هصرت: يعني جذبت ومددت.

(٤) ١٨/ ٣٠.

إثم. والتأثيم تفعيلٌ من الإثم، أي: تلك الكأس لا تجعلهم آثمين[١] لأنه مباح لهم. وقيل: «لَا لغْوٌ فِيهَا» أي: في الجنة[٢]. قال ابن عطاء: أيُّ لغوٍ يكون في مجلس محلُّه جنةُ عدن، وسقاتُهم الملائكة، وشربُهم على ذكر الله، وريحانُهم وتحيتُهم من عند الله، والقومُ أضياف الله[٣]. «وَلَا تَأْثِيمٌ» أي: ولا كذب. قاله ابن عباس[٤]. الضحاك: يعني لا يكذب بعضهم بعضًا[٥].

وقرأ ابن كثير وابن محيصن وأبو عمرو: «لَا لَغْوَ فيهَا وَلَا تَأْثِيمَ» بفتح آخره. الباقون بالرفع والتنوين[٦]. وقد مضى هذا في «البقرة»[٧] عند قوله تعالى: ﴿وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ﴾ [الآية: ٢٥٤] والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ﴾ أي: بالفواكه والتُّحَف والطعام والشراب، ودليله: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ﴾ [الزخرف: ٧١]، ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ [الصافات: ٤٥]. ثم قيل: هم الأطفال من أولادهم الذين سبقوهم، فأقرَّ الله تعالى بهم أعينَهم.وقيل: إنهم مَن أخدمَهم الله تعالى إيَّاهم من أولاد غيرهم[٨]. وقيل: هم غلمانٌ خُلِقوا في الجنة. قال الكلبي: لا يكبرون أبدًا ﴿كَأَنَّهُمْ﴾ في الحسن والبياض ﴿لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾ في الصَّدَف، والمكنون: المَصُون. وقوله تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ [الواقعة: ١٧] قيل: هم أولاد المشركين وهم خَدَمُ أهل الجنة، وليس في الجنة نَصَب ولا حاجة إلى خدمة، ولكنه أخبر بأنهم على نهاية النعيم.

---

(١) الوسيط ٤/ ١٨٨، وزاد المسير ٨/ ٥٢.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٣٨٣ ونسبه لابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) نسبه الثعالبي في تفسيره ٤/ ٢١٧ للثعلبي.

(٤) أخرجه الطبري ٢١/ ٥٨٨.

(٥) أورده الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٣٨٢ بنحوه.

(٦) السبعة ص ٦١٢، والتيسير ص ٨٢.

(٧) ٤/ ٢٦١ - ٢٦٢.

(٨) نسب الماوردي القولين في النكت والعيون ٥/ ٣٨٣ لابن بحر.

وعن عائشةَ رضي الله عنها: أن نبيَّ الله ﷺ قال: «إن أدنى أهلِ الجنة منزلةً مَن ينادي الخادمُ من خدمه، فيجيبه ألفٌ؛ كلُّهم: لبَّيك لبَّيك»[1].

وعن عبد الله بن عمر قال: قال النبيُّ ﷺ: «ما من أحد من أهل الجنة إلا يسعى عليه ألفُ غلام، كلُّ غلام على عمل ليس عليه صاحبه»[2].

وعن الحسن أنهم قالوا: يا رسول الله، إذا كان الخادم كاللؤلؤ، فكيف يكون المخدوم؟ فقال: «ما بينهما كما بين القمر ليلةَ البدر وبين أصغر الكواكب»[3].

قال الكسائي: كننتُ الشيء: سترته وصُنته من الشمس، وأكننته في نفسي: أسررته. وقال أبو زيد: كننته وأكننته بمعنًى في الكِنِّ وفي النفس جميعًا، تقول: كننت العلم وأكننته، فهو مكنون ومُكَنّ. وكننت الجارية وأكننتها، فهي مكنونة ومُكَنَّة[4].

قوله تعالى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ قال ابن عباس: إذا بُعِثوا من قبورهم سأل بعضهم بعضًا[5]. وقيل: في الجنة يَتَسَاءَلُونَ، أي: يتذاكرون ما كانوا فيه في الدنيا من التعب والخوف من العاقبة[6]، ويحمدون الله تعالى على زوال الخوف

---

(١) أورده الديلمي في مسند الفردوس ١/ ٢١٧، وأخرجه الثعلبي بنحوه كما في تخريج أحاديث الكشاف ص ١٦٠.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٢٤٠، وأخرجه ابن المبارك في الزهد (١٥٨٠) كلاهما عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه الثعلبي كما في تخريج أحاديث الكشاف ص ١٦٠.

(٤) الصحاح (كنن)، وقوله: الكِنّ، أي: السُّترة.

(٥) أخرجه الطبري ٢١/ ٥٩٠ بنحوه قال الألوسي في روح المعاني ٢٧/ ٣٥: ولا أُراه يصح عنه لبعده جداً.

(٦) أورده الواحدي في الوسيط ٤/ ١٨٨، والبغوي في تفسيره ٤/ ٢٤٠، وابن الجوزي في زاد المسير ٨/ ٥٢ - ٥٣ ونسبوه لابن عباس رضي الله عنهما.

عنهم. وقيل: يقول بعضهم لبعض: بمَ صِرت في هذه المنزلة الرفيعة[١]؟

﴿قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ فِيٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ﴾ أي: قال كلُّ مسؤول منهم لسائله: «إنَّا كُنَّا قَبْلُ» أي: في الدنيا خائفينَ وَجِلين من عذاب الله. ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا﴾ بالجنة والمغفرة. وقيل: بالتوفيق والهداية[٢]. ﴿وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾ قال الحسن: السَّمُوم: اسم من أسماء النار، وطبقةٌ من طِباق جهنم[٣]. وقيل: هو النار كما تقول: جهنم. وقيل: عذاب نار السَّمُوم[٤]. والسَّمُوم: الريحُ الحارَّةُ تؤنَّث، يقال منه: سُمَّ يومُنَا فهو مسموم، والجمع سَمَائم. قال أبو عبيدة: السَّمُوم بالنهار، وقد تكون باللَّيل، والحَرورُ باللَّيل، وقد تكون بالنهار[٥]، وقد تستعمل السَّمُوم في لَفْح البرد، وهو في لَفْح الحَرِّ والشمسِ أكثر، قال الراجز:

اليومُ يومٌ باردٌ سَمُومُهْ مَنْ جَزِعَ اليومَ فلا أَلُومُهْ[٦]

قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلُ نَدۡعُوهُۖ﴾ أي: في الدنيا بأن يَمُنَّ علينا بالمغفرة عن تقصيرنا. وقيل: «نَدْعُوهُ» أي: نعبده[٧]. ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ وقرأ نافع والكسائي: «أَنَّه» بفتح الهمزة، أي: لأنه. الباقون بالكسر على الابتداء[٨]. و«البَرُّ»

(١) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٦٤ .

(٢) النكت والعيون ٥/ ٣٨٣ .

(٣) أورده الواحدي في الوسيط ٤/ ١٨٨ ، وابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ١٩٠ ، وابن الجوزي في زاد المسير ٨/ ٥٣ عن الحسن بلفظ: السَّموم اسم من أسماء جهنم .

(٤) في (د) و(م): نار عذاب السموم ، وسقط هذا الموضع من (ف) ، والمثبت من (ز) و(ظ) .

(٥) الصحاح (سمم) .

(٦) النكت والعيون ٥/ ٣٨٣ ، وأورد الرجز أيضاً الأزهري في تهذيب اللغة ١٢/ ٣٢٠ ، والميداني في مجمع الأمثال ١/ ١٠٥ .

(٧) ذكر هذا القول ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ١٩٠ .

(٨) السبعة ص ٦١٣ ، والتيسير ص ٢٠٣ .

اللَّطيف. قاله ابن عباس[١]. وعنه أيضًا: إنه الصادق فيما وعد. وقاله ابن جريج[٢].

قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَـٰمُهُم بِهَـٰذَآ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَـٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ﴾ أي: فذكِّر يا محمد قومَك بالقرآن. ﴿فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ﴾ يعني برسالة ربِّك[٣] ﴿بِكَاهِنٍ﴾ تبتدع القول وتخبر بما في غدٍ من غير وَحْي[٤] ﴿وَلَا مَجْنُونٍ﴾ وهذا ردٌّ لقولهم في النبيِّ ﷺ؛ فعقبة بن أبي مُعَيط قال: إنه مجنون، وشيبة بن ربيعة[٥] قال: إنه ساحر، وغيرهما قال: كاهن؛ فأكذبهم اللهُ تعالى وردَّ عليهم. ثم قيل: إنَّ معنى «فما أنت بنعمة ربِّك» القَسَم، أي: وبنعمةِ اللهِ ما أنت بكاهن ولا مجنون. وقيل: ليس قَسَمًا، وإنما هو كما تقول: ما أنت بحمد الله بجاهل، أي: قد برَّأك الله من ذلك[٦].

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ﴾ أي: بل يقولون: محمد شاعر. قال سيبويه: خوطب العبادُ بما جرى في كلامهم[٧]. قال أبو جعفر النحَّاس: وهذا كلامٌ حسن، إلَّا أنه غير مبيَّن ولا مشروح؛ ويريد سيبويه أنَّ «أمْ» في كلام العرب لخروج من

(١) أخرجه الطبري ٢١/ ٥٩١.

(٢) أورد قول ابن عباس ابن الجوزي في زاد المسير ٨/ ٥٣، وقول ابن جريج الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٣٨٣.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٣٨٤.

(٤) الوسيط للواحدي ٤/ ١٨٩.

(٥) في النكت والعيون ٥/ ٣٨٤: عتبة بن ربيعة.

(٦) ينظر تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص ٤٢٥.

(٧) ينظر الكتاب ٣/ ١٧٢ - ١٧٣.

حديث إلى حديث؛ كما قال الشاعر:

أَتَـهْـجُـر غـانـيـةً أَمْ تُـلِـمّ

فتمَّ الكلام، ثم خرج إلى شيء آخر فقال:

أم الـحَـبـلُ واهٍ بـهـا مُـنْـجَـذِمْ[١]

فما جاء في كتاب الله تعالى مِن هذا، فمعناه التقريرُ والتوبيخ، والخروجُ من حديث إلى حديث، والنحويُّون يمثِّلونها بـ: بل.

﴿نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ قال قتادة: قال قوم من الكفار: تربَّصوا بمحمد الموتَ يكفيكموه كما كفى[٢] شاعرَ بني فلان. قال الضَّحاك: هؤلاء بنو عبد الدار؛ نسبوه إلى أنه شاعر[٣]؛ أي: يَهلِك عن قريب كما هلك مَنْ قبلُ من الشعراء، وأنَّ أباه مات شابًّا، فربَّما يموت كما مات أبوه[٤]. وقال الأخفش: نتربَّص به إلى رَيْبِ المَنُون، فحذف حرف الجرّ، كما تقول: قصدت زيدًا، وقصدت إلى زيد[٥]. والمَنُون: الموت في قول ابن عباس[٦]. قال أبو الغول الطُّهوي:

هـمُ مَـنـعـوا حِـمَـى الـوَقَـبَـى بـضَـربٍ يُـؤلِّـف بـيـن أشـتـاتِ الـمَـنُـونِ[٧]

أي: المنايا؛ يقول: إنَّ الضرب يجمع بين قومٍ متفرِّقي الأمكنة؛ لو أتتهم مناياهم في أماكنهم لأتتهم متفرِّقة، فاجتمعوا في موضع واحد، فأتتهم المنايا مجتمعة.

---

(١) البيت للأعشى، وهو في ديوانه ص ٨٥ . قوله: تُلِمّ ، يقال : ألَمَّ بالقوم : زارهم زيارة قصيرة قاله شارحه .

(٢) في تفسير الطبري ٢١/ ٥٩٣ ، والنكت والعيون ٥/ ٣٨٤ : كفاكم .

(٣) النكت والعيون ٥/ ٣٨٤ .

(٤) ينظر تفسير أبي الليث ٣/ ٢٨٥ ، وتفسير البغوي ٤/ ٢٤٠ .

(٥) معاني القرآن ٢/ ٦٩٧ للأخفش بنحوه .

(٦) أخرجه الطبري ٢١/ ٥٩٢ - ٥٩٣ .

(٧) كتاب الحيوان ٣/ ١٠٧ ، والشعر والشعراء ١/ ٤٢٩ ، والأمالي ١/ ٢٦٠ ، والخزانة ٦/ ٤٣٤ .
قال البغدادي : الوقبى ، بفتح الواو والقاف : موضع بقرب البصرة .

وقال السُّدِّي: عن أبي مالك، عن ابن عباس[١]: «رَيْبَ» في القرآن شكٌّ، إلا مَكانًا واحداً في الطور «رَيْبَ المَنون» يعني: حوادث الأمور؛ وقال الشاعر[٢]:

تَـربَّـصْ بـهـا رَيـبَ الـمَـنـون لـعـلـهـا تُـطَـلَّـقُ يـومًـا أو يـمـوتُ حَـلِـيـلُـهـا

وقال مجاهد: «رَيْبَ المَنُونِ»: حوادث الدهر[٣]، والمَنُون هو الدهر؛ قال أبو ذُؤَيب[٤]:

أَمِـنَ الـمـنُـونِ وَرَيْـبِـه تـتـوجَّـعُ والـدَّهـرُ لـيـس بـمُـعْـتِـبٍ مَـنْ يَـجْـزَعُ

وقال الأعشى[٥]:

أَأَنْ رأَتْ رجـلًا أَعـشَـى أَضـرَّ بـه رَيـبُ الـمَـنُـون ودهـرٌ مُـتْـبِـلٌ خَـبِـلُ

قال الأصمعي: المَنُون: الليل والنهار؛ وسمِّيا بذلك لأنهما ينقصان الأعمار ويقطعان الآجال. وعنه. أنه قيل للدهر: منون؛ لأنه يذهب بمُنَّة الحيوان، أي: قوَّته، وكذلك المَنِيَّة. أبو عبيدة: قيل للدهر: منون؛ لأنه مُضْعِف، من قولهم: حبل مَنِين، أي ضعيف، والمنين: الغبار الضعيف. قال الفرَّاء: والمنون مؤنثة، وتكون واحدًا وجمعًا. الأصمعي: المَنُون واحد لا جماعة له. الأخفش: هو جماعة لا واحد له[٦]، والمنون يذكَّر ويؤنَّث؛ فمَن ذكَّره جعله الدهرَ أو الموت، ومَن أنَّثه فعلى الحمل على المعنى، كأنه أراد المنية.

قوله تعالى: ﴿قُلْ تَرَبَّصُواْ﴾ أي: قل لهم يا محمد: تربَّصوا، أي: انتظروا. ﴿فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ﴾ أي: من المنتظرين بكم العذاب، فعُذِّبوا يومَ بدرٍ بالسيف[٧].

---

(١) أخرجه عنه ابن الأنباري في الوقف والابتداء كما في الدر المنثور ٦/ ١٢٠ .

(٢) في النسخ: وقال ابن عباس، وهو خطأ، والشاعر هو فرّاص بن عتبة الأزدي، وسلف البيت ٤/ ٢٩ .

(٣) أخرجه الطبري ٢١/ ٥٩٢ .

(٤) ديوان الهذليين ١/ ١ ، وسلف ص١٦٤ من هذا الجزء.

(٥) ديوانه ص ١٠٥ ، وسلف ٥/ ١٧٤ .

(٦) قولا الأصمعي والأخفش في المحرر الوجيز ٥/ ١٩١ ، وقول الفراء في الصحاح (منن) .

(٧) الوسيط للواحدي ٤/ ١٨٩ ، وتفسير البغوي ٤/ ٢٤١ .

قوله تعالى: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم﴾ أي: عقولهم ﴿بِهَٰذَآ﴾ أي: بالكذب عليك .﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ أي: أم طَغَوا بغير عقول. وقيل: «أَمْ» بمعنى: بل، أي: بل كفروا طغيانًا وإن ظهر لهم الحقّ.

وقيل لعمرو بن العاص: ما بالُ قومِك لم يؤمنوا وقد وصفهم اللهُ بالعقل؟ فقال: تلك عقولٌ كادها الله، أي: لم يصحبها بالتوفيق(١).

وقيل: «أَحلامُهُمْ» أي: أذهانهم؛ لأن العقل لا يُعطَى للكافر، ولو كان له عقلٌ لآمن. وإنما يعطى الكافرُ الذِّهنَ، فصار عليه حُجَّة. والذِّهن يَقْبل العلمَ جملةً، والعقل يميِّز العلم ويقدِّر المقادير لحدود الأمر والنهي.

وروي عن النبيِّ ﷺ أنَّ رجلاً قال: يا رسول الله، ما أعقلَ فلانًا النَّصرانيّ! فقال: «مَهْ إنَّ الكافر لا عقل له، أما سمعت قول الله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠]؟». وفي حديث ابنِ عمر: فزجره النبيُّ ﷺ، ثم قال: «مَهْ فإنَّ العاقل مَن يعمل بطاعة الله» ذكره الترمذيُّ الحكيم أبو عبد الله بإسناده(٢).

﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ﴾ أي: افتعله وافتراه، يعني القرآن. والتقوُّل: تكلُّف القول، وإنما يُستعمل في الكذب في غالب الأمر. ويقال: قوَّلتَني ما لم أقل! وأَقْولتني ما لم أقل، أي: ادَّعيتَه عليّ. وتَقوَّل عليه، أي: كذب عليه. واقتال عليه: تحكَّم، قال:

ومَـنـزِلـةٌ فـي دار صـدقٍ وغِـبْـطـةٍ وما اقْتَال مِن حُكمٍ عليَّ طبيبُ(٣)

فـ«أم» الأولى للإنكار، والثانيةُ للإيجاب، أي: ليس كما يقولون .﴿بَل لَّا

---

(١) زاد المسير ٨/ ٥٤ - ٥٥ ، وفيه: لم يصحبها التوفيق.

(٢) لم نقف عليه. وأخرجه الحارث في مسنده (٨٣٦ بغية الباحث) . قال ابن حجر في المطالب العالية ٣/ ٢١٤ - ٢١٥ : حديث موضوع .

(٣) الصحاح (قول) ، والبيت لكعب بن سعد الغَنَوي ، وهو في طبقات فحول الشعراء ١/ ٢٢٢ ، والحيوان ٣/ ٥٧ .

يُؤْمِنُونَ﴾ جحداً واستكبارًا.

﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ﴾ أي: بقرآن يُشْبهه من تلقاء أنفسهم ﴿إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ﴾ في أنَّ محمداً افتراه.

وقرأ الجحدري: «فليأتُوا بحديثِ مثله» بالإضافة. والهاءُ في «مثله» للنبيِّ ﷺ، وأُضيف الحديثُ الذي يراد به القرآنُ إليه؛ لأنه المبعوث به. والهاء على قراءة الجماعة للقرآن[(١)].

قوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ۖ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ﴾ «أَمْ» صلةٌ زائدة، والتقدير: أَخُلقوا من غير شيء. قال ابن عباس: من غير ربٍّ خلقهم وقدَّرهم. وقيل: من غير أمٍّ ولا أب[(٢)]؛ فهم كالجماد لا يعقلون ولا تقوم لِله عليهم حُجَّة؛ ليسوا كذلك! أليس قد خُلِقوا من نطفة وعلقة ومضغة؟ قاله ابن عطاء. وقال ابن كيسان: أم خُلِقوا عبثًا وتُركوا سُدًى «مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ»[(٣)] أي: لغير شيء، فـ «من» بمعنى اللام[(٤)]. ﴿أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ أي: أيقولون إنهم خَلَقوا أنفسهم فهم لا يأتمرون لأمر الله، وهم لا يقولون[(٥)] ذلك، وإذا أقرُّوا أنَّ ثَمَّ خالقًا غيرَهم، فما الذي يمنعهم من الإقرار له بالعبادة دون الأصنام،

---

(١) الكلام بنحوه في المحتسب ٢/ ٢٩٢، والمحرر الوجيز ٥/ ١٩٢.

(٢) تفسير الطبري ٢١/ ٥٩٦ بنحوه، وقول ابن عباس في تفسير البغوي ٤/ ٢٤١، وينظر الكشاف ٤/ ٢٩.

(٣) ذكر قوله الواحدي في الوسيط ٤/ ١٨٩، والبغوي في تفسيره ٤/ ٢٤١.

(٤) الكلام بنحوه في تفسير الطبري ٢١/ ٥٩٦، ومعاني القرآن للزجاج ٥/ ٦٥.

(٥) في (ظ): يقرون.

ومن الإقرار بأنه قادرٌ على البعث.

﴿أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ أي: ليس الأمر كذلك، فإنهم لم يخلقوا شيئاً ﴿بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ بالحق.

﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ﴾ أم عندهم ذلك فيستغنوا عن الله ويُعرِضوا عن أمره. وقال ابن عباس: خزائن ربِّك: المطر والرزق[١]. وقيل: مفاتيح الرحمة[٢]. وقال عكرمة: النبوَّة. أي: أفبأيديهم مفاتيحُ ربِّك بالرسالة يضعونها حيث شاؤوا. وضَرَبَ المثلَ بالخزائن؛ لأن الخزانة بيت يُهيَّأ لجمع أنواعٍ مختلفةٍ من الذخائر؛ ومقدوراتُ الربِّ كالخزائن التي فيها من كل الأجناس، فلا نهاية لها.

﴿أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ﴾ قال ابن عباس[٣]: المسلَّطون الجبَّارون. وعنه أيضًا: المبطلون. وقاله[٤] الضحاك. وعن ابن عباس أيضًا: أم هم المتولُّون. عطاء: أم هم أربابٌ قاهرون[٥]. قال عطاء[٦]: يقال: تسيطرتَ عليّ، أي: اتخذتني خَوَلًا لك. وقاله أبو عبيدة[٧].

وفي الصحاح: المسيطر والمصيطر: المسلَّط على الشيء ليُشرِف عليه ويتعهَّدَ أحوالَه ويكتب عمله، وأصله من السَّطر؛ لأن الكتاب يُسطَّر، والذي يفعله مُسطِّر ومُسَيْطِر. يقال: سيطرتَ علينا[٨].

ابن بحر: «أم هم المسيطِرون» أي: أهم الحفظة؛ مأخوذ من تسطير الكتاب

---

(١) زاد المسير ٨/ ٥٦ .

(٢) النكت والعيون ٥/ ٣٨٥ . وقول عكرمة الآتي في تفسير البغوي ٤/ ٢٤١ ، وزاد المسير ٨/ ٥٦ .

(٣) أخرج قوله الطبري ٢١/ ٥٩٧ .

(٤) في (ز) و(ظ) و(ف) : قاله؛ دون واو .

(٥) قول عطاء في تفسير البغوي ٤/ ٢٤١ ، وقول ابن عباس في النكت والعيون ٥/ ٣٨٥ .

(٦) كذا في النسخ، ولعل قوله: (قال عطاء) مقحم، فقول عطاء هو السالف، ولم يُذكر الكلام بعده عنه.

(٧) في مجاز القرآن ٢/ ٢٣٣ . والخَوَل: اسم يقع على العبد والأمة. (مختار الصحاح).

(٨) الصحاح (سطر) .

الذي يَحفظ ما كُتب فيه؛ فصار المسيطر هنا حافظًا ما كتبه الله في اللوح المحفوظ[١].

وفيه ثلاث لغات: الصاد، وبها قرأت العامة، والسين، وهي قراءة ابن مُحيصِن، وحُميد، ومجاهد، وقُنْبُل، وهشام، وأبي حَيْوة[٢]، وبإشمام الصاد الزاي، وهي قراءة حمزة كما تقدَّم في «الصِّراط»[٣].

قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ﴾ أي: أيدَّعون أنَّ لهم مُرتقًى إلى السماء ومصعدًا وسببًا ﴿يَسْتَمِعُونَ فِيهِ﴾ أي: عليه الأخبارَ ويَصِلون به إلى علم الغيب، كما يصل إليه محمدٌ ﷺ بطريق الوحي. ﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ أي: بحجَّة بيِّنة أنَّ هذا الذي هم عليه حقّ.

والسُّلَّم واحد السلالم التي يُرتقى عليها. وربما سُمِّي الغَرْزُ بذلك؛ قال أبو الرُّبَيْس الثعلبيُّ[٤] يصف ناقته:

مُطارةُ قَلْبٍ إنْ ثَنى الرِّجْلَ ربُّها ... بسُلَّمِ غَرْزٍ في مُناخٍ تُعاجِلُهْ[٥]

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٣٨٥.

(٢) وقرأ بالسين ـ أيضاً ـ حفص بخلاف عنه. السبعة ص ٣٦٣، والتيسير ص ٢٠٤.

(٣) ١/ ٢٢٨.

(٤) هو شاعر إسلامي، وقد اضطربت المصادر في اسمه ونسبه، فقيل: عَبّاد بن طهفة، وقيل: عبادة، وقيل: هباد بن عباس، وقيل: عباد بن طَهمة. وقيل في نسبه: الثعلبي، وقيل: التغلبي، قال الزبيدي في التاج (ربس): هو من بني ثعلبة بن سعد بن ذبيان، هكذا قاله الصاغاني. وفي اللسان: وأبو الربيس التغلبي من شعراء تغلب. وهو تصحيف، والصواب مع الصاغاني. اهـ. وينظر الصحاح (سلم)، والإكمال لابن ماكولا ٤/ ١٢٣ - ١٢٤، واللسان (ربس) و(سلم) و(لوي)، والقاموس (ربس)، والخزانة ٦/ ٨٩ - ٩٠، والتاج (ربس).

(٥) الصحاح (سلم)، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٣/ ١٢٥٦، واللسان (سلم). قال المرزوقي: والمراد أنها ذكية الفؤاد، شهمة النفس، فكأن بها لنشاطها وذكائها جنوناً أطار قلبها، وأزال مُسكتها. قوله: تعاجِلْهُ، أصله: تعاجلْهُ، اللام ساكنة للجزم، لكنه نقل إليها حركة الهاء، وهو ضمير يرجع إلى: ربُّها. والغرز: الرِّكاب، عاجلته فنهضت به قبل تمكنه من ركوبها، واستقراره على ظهرها.

وقال زهير[١]:

ومَن هابَ أسبابَ المنِيَّة يَلْقَها ... ولو رام أسبابَ السَّماءِ بسُلَّمِ

وقال آخر:

تَجنَّيتِ لي ذنبًا وما إنْ جَنَيْتُه ... لِتتَّخذي عذْرًا إلى الهَجر سُلَّما[٢]

وقال ابن مُقبِل في الجمع:

لا تُحرِزُ المرءَ أَحْجاءُ البلاد ولا ... تُبْنَى له في السَّماوات السَّلاليمُ[٣]

الأحجاء: النواحي، مثل الأرجاء، واحدها حَجًا ورَجًا، مقصور. ويُروى: أعْناءُ البلاد، والأعْناء ـ أيضاً ـ الجوانب والنواحي، واحدها: عِنْو، بالكسر. وقال ابن الأعرابي: واحدها: عَنًا، مقصور. وجاءنا أعناءٌ من الناس، واحدهم: عِنْو، بالكسر، وهم قومٌ من قبائل شتَّى[٤].

﴿يَسْتَمِعُونَ فِيهِ﴾ أي: عليه؛ كقوله تعالى: ﴿فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ [طه: ٧١] أي: عليها؛ قاله الأخفش. وقال أبو عبيدة[٥]: يستمعون به. وقال الزجَّاج[٦]: أي: ألهم كجبريل الذي يأتي النبيَّ ﷺ بالوحي!

قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُ ٱلْبَنَـٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ﴾ سَفَّه أحلامهم توبيخًا لهم وتقريعًا، أي: أتضيفون إلى الله البناتِ مع أَنَفتكم منهن، ومَن كان عقلُه هكذا فلا يُستبعد منه إنكارُ البعث.

﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا﴾ أي: على تبليغ الرسالة. ﴿فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾ أي: فهم من

---

(١) ديوانه ص ٣٠، وسلف ١١/ ٨٣.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٣٨٥.

(٣) ديوان ابن مقبل ص ٢٧٣ برواية: لا تمنع المرء...، وهو براوية المصنف في الصحاح (حجا).

(٤) الصحاح (حجا)، (عنا).

(٥) في مجاز القرآن ٢/ ٢٣٣.

(٦) في معاني القرآن ٥/ ٦٧.

المغرم الذي تطلبهم به مُثْقَلون، مُجْهَدون لما كلَّفتهم به.

﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ أي: يكتبون للناس ما أرادوه من علم الغيوب. وقيل: أي: أم عندهم علمُ ما غاب عن الناس حتى علموا أنَّ ما أخبرهم به الرسول ﷺ من أمر القيامة والجنة والنار والبعث باطل. وقال قتادة: لمَّا قالوا: نتربَّص به رَيْبَ المَنُون، قال الله تعالى: «أَمْ عندهُمُ الغَيْبُ» حتى عَلِموا متى يموت محمد، أو إلى ما يؤول إليه أمرُه. وقال ابن عباس: أم عندهم اللوحُ المحفوظ، فهم يكتبون ما فيه ويخبرون الناس بما فيه. وقال القُتَبي: يكتبون: يحكمون، والكتاب: الحكم؛ ومنه قولُه تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤] أي: حكم، وقولُه عليه الصلاة والسلام: «والذي نفسي بيده لأَحْكُمَنَّ بينكم بكتاب الله» أي: بحكم الله[١].

قوله تعالى: ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا﴾ أي: مكرًا بك في دار النَّدْوة. ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ﴾ أي: الممكور بهم، ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣] وذلك أنهم قُتلوا ببدر[٢]. ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ يخلق ويرزق ويمنع. ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ نزَّه نفسَه أنْ يكونَ له شريك.

قال الخليل: كلُّ ما في سورة الطور مِن ذِكْر «أَمْ» فكلمة استفهام وليس بعطف[٣].

قوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا﴾ قال ذلك جوابًا لقولهم: «فأَسْقِط

---

(١) ذكر هذه الأقوال البغوي في تفسيره ٤/ ٢٤٢ ، والحديث أخرجه أحمد (١٧٠٣٨) ، والبخاري (٢٣١٤ - ٢٣١٥) ، ومسلم (١٦٩٧ - ١٦٩٨) ، عن أبي هريرة وزيد بن خالد رضي الله عنهما، وهو قطعة منه، وسلف ٦/ ١٤٥ .

(٢) الوسيط للواحدي ٤/ ١٩٠ ، وتفسير البغوي ٤/ ٢٤٢ ، والكشاف ٤/ ٢٦ .

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٢٤٢ .

علينا كِسَفًا مِن السَّماء» [الشعراء: ١٨٧] وقولِهم: «أوْ تُسقِطَ السَّماءَ كما زعمْت علينا كِسَفًا» [الإسراء: ٩٢] فأعْلَمَ أنه لو فعل ذلك لقالوا: «سحابٌ مَركوم» أي: بعضه فوق بعض، سقط علينا وليس سماء؛ وهذا فِعْلُ المعاند أو فعل مَن استولى عليه التقليد، وكان في المشركين القسمان[١].

والكِسْف جمع كِسْفة، وهي القطعة من الشيء؛ يقال: أعطني كِسْفة من ثوبك، ويقال في جمعها أيضًا: كِسَف. ويقال: الكِسْف والكِسْفة واحد. وقال الأخفش: مَن قرأ: «كِسْفاً» جعله واحدًا، ومَن قرأ: «كِسَفاً» جعله جمعاً[٢]. وقد تقدَّم القولُ في هذا في «سبحان» وغيرِها، والحمدُ لله[٣].

قوله تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ﴾ منسوخٌ بآية السيف[٤]. ﴿حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يَصْعَقُونَ﴾ بفتح الياء قراءةُ العامّة، وقرأ ابن عامر وعاصمٌ بضمِّها[٥]. قال الفرَّاء[٦]: هما لغتان: صَعِق وصُعِق، مثل: سَعِد وسُعِد.

قال قتادة: يوم يموتون[٧]. وقيل: هو يومُ بدر. وقيل: يوم النفخة الأولى. وقيل: يوم القيامة يأتيهم فيه من العذاب ما يُزيل عقولهم. وقيل: «يُصْعَقُون» بضم الياء، مِن: أصعقه الله.

---

(١) الكلام بنحوه في تفسير غريب القرآن ص ٤٢٦، وتفسير الطبري ٢١/ ٦٠١، وتفسير البغوي ٤/ ٢٤٢، والكشاف ٤/ ٢٩.

(٢) الصحاح (كسف). وقد اتفق العشرة في هذا الموضع على إسكان السين.

(٣) ١٣/ ١٧٥.

(٤) المحرر الوجيز ٥/ ١٩٣. قال ابن الجوزي في زاد المسير ٨/ ٥٩: ذكر المفسرون أن هذه الآية منسوخة بآية السيف، ولا يصح، لأن معنى الآية الوعيد.

(٥) السبعة ص ٦١٣، والتيسير ص ٢٠٤.

(٦) في معاني القرآن ٣/ ٩٤.

(٧) النكت والعيون ٥/ ٣٨٦، والأقوال الآتية فيه وفي الكشاف ٤/ ٢٦، والمحرر الوجيز ٥/ ١٩٤، وزاد المسير ٨/ ٥٩.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ أي: ما كادوا به النبيَّ ﷺ في الدنيا. ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ من الله. و«يَوْمَ» منصوبٌ على البدل مِن «يومَهُم الَّذي فيه يُصْعَقون»[(١)].

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ ﴿٤٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي: كفروا ﴿عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ قيل: قبل موتهم. ابن زيد: مصائب الدنيا من الأوجاع والأسقام والبلايا، وذهابِ الأموال والأولاد. مجاهد: هو الجوع والجَهْد سبعَ سنين. ابن عباس: هو القتل. وعنه: عذاب القبر. وقاله البَرَاء بنُ عازِب وعليٌّ ﷺ. فـ «دُونَ» بمعنى: غير. وقيل: عذابًا أخفَّ من عذاب الآخرة[(٢)]. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنَّ العذاب نازلٌ بهم. وقيل: «ولكنَّ أكثرَهم لا يعلمون» ما يصيرون إليه.

قوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾.

فيه مسألتان:

الأولى: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ قيل: لقضاء ربِّك فيما حمَّلك مِن رسالته. وقيل: لبلائه فيما ابتلاك به مِن قومك[(٣)]؛ ثم نُسخ بآية السيف[(٤)].

الثانية: قوله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ أي: بمرأى ومنظرٍ منَّا؛ نرى ونسمع ما

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٦٣.

(٢) هذه الأقوال في تفسير الطبري ٢١/ ٦٠٣ - ٦٠٤، والنكت والعيون ٥/ ٣٨٦، والوسيط للواحدي ٤/ ١٩١، وتفسير البغوي ٤/ ٢٤٣، والكشاف ٤/ ٢٦، وتفسير الرازي ٢٨/ ٢٧٣.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٣٨٧.

(٤) قال ابن الجوزي في زاد المسير ٨/ ٦٠: وذكر المفسرون أن معنى الصبر نسخ بآية السيف، ولا يصح؛ لأنه لا تضاد.

تقول وتفعل. وقيل: بحيث نراك ونحفظك ونحوطك ونَحرُسك ونرعاك. والمعنى واحد. ومنه قوله تعالى لموسى عليه السلام: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾ [طه: ٣٩] أي: بحفظي وحراستي(١)، وقد تقدَّم(٢).

قوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ . وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ اختُلف في تأويل قولِه: «حِينَ تَقُومُ»؛ فقال عوف بن مالك(٣) وابن مسعود وعطاء وسعيد بن جبير وسفيان الثوري(٤): يسبِّح الله حين يقوم من مجلسه؛ فيقول: سبحان الله وبحمده، أو: سبحانك اللهم وبحمدك؛ فإن كان المجلس خيرًا ازددت ثناءً حسنًا، وإن كان غيرَ ذلك كان كفارةً له؛ ودليل هذا التأويلِ ما خرَّجه الترمذيُّ(٥) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن جلس في مجلس فكَثُر فيه لَغَطُه، فقال قبل أن يقوم في مجلسه: سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك، إلَّا غُفِر له ما كان في مجلسه ذلك» قال: حديث حسن غريب صحيح. وفيه(٦) عن ابن عمر قال: كنَّا نَعُدُّ لرسول الله ﷺ في المجلس الواحد مئةَ مرَّةٍ من قبل أن يقوم: «ربِّ اغفر لي وتب عليّ، إنك أنت التوَّاب الغفور» قال حديث حسن صحيح غريب.

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٣٨٧، وينظر تفسير أبي الليث ٣/ ٢٨٧، وتفسير البغوي ٤/ ٢٤٣، ومعاني القرآن للزجاج ٥/ ٦٨، وإعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٦٣.

(٢) ١٤/ ٥٨ - ٥٩.

(٣) في (د) و(م): عون بن مالك، وهو خطأ، والأثر أخرجه الطبري ٢١/ ٦٠٥ - ٦٠٦ عن عوف بن مالك أبي الأحوص.

(٤) بعدها في النسخ عدا (ف): وأبو الأحوص، وهو عوف بن مالك السالف. وقول ابن مسعود في أحكام القرآن للكيا ٤/ ٣٩١، وقول عطاء وسعيد بن جبير في تفسير البغوي ٤/ ٢٤٣.

(٥) في سننه (٣٤٣٣)، وهو عند أحمد (١٠٤١٥)، وسلف ص٤٥٤ من هذا الجزء.

(٦) برقم (٣٤٣٤)، وهو عند أحمد (٤٧٢٦).

وقال محمد بن كعب والضحَّاك والربيع[١]: المعنى: حين تقوم إلى الصلاة. قال الضحَّاك يقول: الله أكبر كبيرًا، والحمد لله كثيرًا، وسبحان الله بكرةً وأصيلًا[٢].

قال الكيا الطبري[٣]: وهذا فيه بُعد؛ فإنَّ قوله: «حينَ تقوم» لا يدلُّ على التسبيح بعد التكبير، فإنَّ التكبير هو الذي يكون بعد القيام، والتسبيح يكون وراءَ ذلك، فدلَّ أنَّ المراد به: حين تقوم من كل مكان، كما قال ابن مسعود ﷺ.

وقال أبو الجوزاء وحسَّان بن عطية: المعنى: حين تقوم من منامك. قال حسان: ليكون مفتتحًا لعمله بذكر الله[٤].

وقال الكلبي: واذكر الله باللسان حين تقوم من فراشك إلى أن تدخل الصلاة[٥]. وهي صلاة الفجر. وفي هذا رواياتٌ مختلفات صِحَاح؛ منها حديث عُبادةَ عن النبيِّ ﷺ قال: «مَن تَعارَّ من الليل فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، الحمد[٦] لله وسبحان الله [ولا إله إلا الله] والله أكبر، ولا حول ولا قوّة إلا بالله، ثم قال: اللهم اغفر لي، أو دعا، استجيب له، فإنْ توضَّأ وصلَّى، قُبلت صلاته» خرَّجه البخاري[٧]. تعارَّ الرجل من الليل: إذا هبَّ من نومه مع صوت؛ ومنه: عَارَّ الظَّلِيمُ يَعارُّ عِرَارًا، وهو صوته؛ وبعضهم يقول: عَرَّ الظَّلِيمُ يَعِرُّ عِرَارًا، كما قالوا: زَمَر النَّعامُ يَزْمِرُ زِمَارًا[٨].

وعن ابن عباس: أنَّ رسول الله ﷺ كان يقول إذا قام إلى الصلاة من جوف الليل:

---

(١) ذكر قول الضحاك والربيع البغوي في تفسيره ٤/ ٢٤٣ .
(٢) أخرجه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٢٤٩ .
(٣) في أحكام القرآن ٤/ ٣٩١ .
(٤) النكت والعيون ٥/ ٣٨٧ عن حسان بن عطية.
(٥) تفسير البغوي ٤/ ٢٤٣ .
(٦) المثبت من (ز) و(ظ)، وفي غيرهما: والحمد.
(٧) في صحيحه (١١٥٤) وما بين حاصرتين منه. وسلف ص٤٦٢ من هذا الجزء.
(٨) الصحاح (عرر) .

«اللهم لك الحمد، أنت نور السماوات والأرض ومَن فيهنّ، ولك الحمد، أنت قَيُّوم السماوات والأرض ومن فيهنّ، ولك الحمد، أنت ربُّ السماوات والأرض ومن فيهنّ، أنت الحقّ، ووعدك الحقّ، وقولك الحقّ، ولقاؤك الحقّ، والجنة حقّ، والنار حقّ، والساعة حقّ، والنبيُّون حقّ، ومحمدٌ حقّ. اللهم لك أسلمت، وعليك توكلت، وبك آمنت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت، فاغفر لي ما قدَّمت وأخَّرت، وأسررت وأعلنت، أنت المقدِّم، وأنت المؤخِّر، لا إله إلا أنت، ولا إله غيرك». متفق عليه(١).

وعن ابن عباس أيضًا: أنه عليه الصلاة والسلام كان إذا استيقظ من الليل، مسح النومَ عن وجهه؛ ثم قرأ العشرَ الآياتِ الأواخر من سورة آل عمران(٢).

وقال زيد بن أسلم: المعنى: حين تقوم من نوم القائلة لصلاة الظهر(٣). قال ابن العربي(٤): أمَّا نوم القائلة فليس فيه أثر، وهو ملحَق بنوم الليل.

وقال الضحَّاك: إنه التسبيح في الصلاة إذا قام إليها(٥). الماوردي(٦): وفي هذا التسبيح قولان: أحدهما: وهو قوله: سبحان ربي العظيم؛ في الركوع، وسبحان ربي الأعلى؛ في السجود. الثاني: أنه التوجُّه في الصلاة، يقول: سبحانك اللهم وبحمدك، تبارك اسمك وتعالى جَدُّك، ولا إله غيرك.

قال ابن العربي(٧): مَن قال: إنه التسبيح للصلاة، فهذا أفضله، والآثار في ذلك

---

(١) صحيح البخاري (١١٢٠)، وصحيح مسلم (٧٦٩)، وسلف تخريجه ١٠/ ٤٩٢.

(٢) أخرجه أحمد (٣٣٧٢)، والبخاري (١٨٣)، ومسلم (٧٦٣): (١٨٢) بنحوه مطولاً.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٣٨٧.

(٤) في أحكام القرآن ٤/ ١٧٢١.

(٥) أخرجه الطبري ٢١/ ٦٠٦ بنحوه.

(٦) في النكت والعيون ٥/ ٣٨٧.

(٧) في أحكام القرآن ٤/ ١٧٢١.

كثيرة، أعظمُها ما ثبت عن عليٍّ بن أبي طالب ﷺ عن النبيِّ ﷺ: أنه كان إذا قام إلى الصلاة قال: «وجَّهت وجهيَ» الحديث. وقد ذكرناه وغيرَه في آخر سورة الأنعام[١].

وفي البخاريّ[٢] عن أبي بكر الصدِّيق ﷺ أنه قال: قلت: يا رسول الله، عَلِّمني دعاءً أدعو به في صلاتي؛ فقال: «قل: اللَّهم إني ظلمت نفسي ظلمًا كثيرًا، ولا يغفر الذنوبَ إلا أنت، فاغفر لي مغفرةً مِن عندك، وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم».

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾ تقدَّم في «ق» مستوفًى عند قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ [الآية: ٤٠][٣].

وأما «إِدبارَ النُّجوم» فقال عليٌّ وابن عباس وجابرٌ وأنس: يعني ركعتي الفجر. فحمل بعضُ العلماء الآيةَ على هذا القول على الندب، وجَعَلَها منسوخةً بالصلوات الخمس.

وعن الضحَّاك وابنِ زيد: أنَّ قوله: «وإِدبارَ النُّجوم» يريد به صلاة الصبح، وهو اختيار الطبريّ[٤].

وعن ابن عباس: أنه التسبيح في أدبار[٥] الصلوات.

وبكسر الهمزة في «إِدبارَ النُّجوم» قرأ السبعةُ، على المصدر حسَب ما بيَّنَّاه في «ق». وقرأ سالم بن أبي الجعد ومحمد بن السَّمَيْفَع: «وَأدبارَ» بالفتح[٦]، ومثلُه روي عن يعقوب[٧] وسلام وأيوب؛ وهو جمع دُبْر ودُبُر. ودُبْر الأمر ودُبُره: آخره.

---

(١) ٩/ ١٤٠، والحديث أخرجه أحمد (٧٢٩)، ومسلم (٧٧١).

(٢) برقم (٨٣٤)، وهو عند أحمد (٨)، ومسلم (٢٧٠٥).

(٣) ص٤٦٢ من هذا الجزء.

(٤) في تفسيره ٢١/ ٦٠٩، وفيه الآثار السالفة عدا قول جابر وأنس رضي الله عنهما.

(٥) في (م): آخر، والأثر ذكره الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٣٨٨.

(٦) المحتسب ٢/ ٢٩٢، والمحرر الوجيز ٥/ ١٩٤ عن سالم.

(٧) ذكرها عنه ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ١٩٤، والمشهور عنه كالعامة.

وروى الترمذيُّ[١] من حديث محمد بن فضيل، عن رِشْدِين بن كُرَيب، عن أبيه، عن ابن عباس، عن النبيِّ ﷺ قال: «إدبارُ النجوم الركعتان قبل الفجر، وإدبار السجود الركعتان بعد المغرب». قال: حديث غريب لا نعرفه مرفوعًا إلَّا من هذا الوجه، من حديث محمد بنِ فُضيل، عن رِشْدِين بن كُريب. وسألت محمد بن إسماعيل، عن محمد بن فُضيل، ورِشْدين بن كُريب: أيُّهما أوثق؟ فقال: ما أقرَبَهما، ومحمدٌ عندي أرجح. قال: وسألت عبد الله بنَ عبد الرحمن[٢] عن هذا، فقال: ما أقربَهما؛ ورِشْدِين بن كُريب أرجحهما عندي. قال الترمذي: والقول عندي ما قال أبو محمد، ورِشْدين بن كُريب أرجح من محمد وأقدم، وقد أدرك رِشْدِينُ ابنَ عباس ورآه.

وفي صحيح مسلم[٣] عن عائشة رضي الله عنها قالت: لم يكن النبيُّ ﷺ على شيء من النوافل أشدَّ معاهدةً منه على ركعتين قبل الصبح. وعنها[٤] عن النبيِّ ﷺ قال: «ركعتا الفجر خيرٌ من الدنيا وما فيها».

تم تفسير سورة والطور، والحمد لله.

تم الجزء التاسع عشر من تفسير القرطبي
ويليه الجزء العشرون، ويبدأ بتفسير سورة النجم

---

(١) في سننه (٣٢٧٥)، وسلف بنحوه ص٤٦٢ من هذا الجزء.

(٢) هو أبو محمد الدارمي.

(٣) برقم (٧٢٤): (٩٤)، وهو عند أحمد (٢٤١٦٧)، والبخاري (١١٦٩).

(٤) برقم (٧٢٥)، وهو عند أحمد (٢٤٢٤١) و(٢٦٢٨٦).

سُورَةُ الطُّورِ

مَكِّيَّةٌ، وآيُها تِسعٌ أو ثَمانٍ وأربعونَ[1]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ـ ﴿وَٱلطُّورِ﴾ يريدُ طورَ سينينَ، وهو جبلٌ بمَدْيَن سَمِعَ فيها مُوسى عليه السَّلامُ كلامَ اللهِ.

والطُّورُ: الجبلُ بالسِّريانيَّةِ، أو ما طارَ مِن أَوجِ الإيجادِ إلى حضيضِ الموادِّ، أو مِن عالمِ الغيبِ إلى عالمِ الشَّهادةِ.

(٢) ـ ﴿وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ﴾ مكتوبٍ، والسَّطرُ: ترتيبُ الحروفِ المَكتوبَةِ، والمرادُ به القرآنُ، أو ما كتبَهُ اللهُ في اللَّوحِ المَحفوظِ، أو ألواحُ موسى، أو ما[2] في قلوبِ أوليائِه مِن المعارفِ والحِكَمِ، أو ما يكتبُهُ الحفظَةُ.

(٣) ـ ﴿فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ﴾ الرَّقُّ: الجلدُ الذي يُكتَبُ فيه، استُعيرَ لِمَا كُتِبَ فيه الكتابُ.

---

(١) انظر: «البيان في عد آي القرآن» (ص: ٢٣٣) وفيه: وهي أربعون وسبع آيات في المدنيين والمكي، وثمان في البَصْري، وتسع في الكوفي والشامي. اختلافها آيتان: ﴿وَٱلطُّورِ﴾ لم يعدها المدنيان والمكي وعدها الباقون ﴿إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ عدها الكوفي والشامي ولم يعدها الباقون.

(٢) «ما» من نسخة الخيالي.

وتَنكيرُهما للتَّعظيمِ والإشعارِ بأنَّهُما ليسا مِن المُتعارفِ فيما بينَ النَّاسِ.

(٤) ـ ﴿ وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ﴾ يعني: الكعبةَ وعمارتُها بالحجَّاجِ والمُجاورينَ، أو الضُّراحَ وهو في السَّماءِ الرَّابعةِ، وعمرانُه كثرةُ غاشِيَتِه مِن الملائكةِ، أو قلبَ المؤمنِ وعمارتُه بالمعرفةِ والإخلاصِ.

(٥) ـ ﴿ وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ ﴾ يعني: السَّماءَ.

(٦) ـ ﴿ وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ﴾ أي: المملوءِ، وهو المُحيطُ أو الموقَدُ مِن قولِه: ﴿ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴾ [التكوير: ٦].

رُوِيَ أنَّ اللهَ يجعَلُ يومَ القيامةِ البحارَ نارًا يُسجَرُ بها جهنَّمُ، أو المختلطُ مِن السَّجيرِ، وهو الخَليطُ[١].

(٧ ـ ٨) ـ ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ﴾ لنازِلٌ ﴿ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ﴾ يدفَعُه.

ووجهُ دلالةِ هذه الأمورِ المُقسَمِ بها على ذلك أنَّها أُمورٌ تدلُّ على كمالِ قُدرَةِ اللهِ وحِكمَتِه وصدقِ أخبارِه وضبطِ أعمالِ العِبَادِ للمُجازاةِ.

(٩) ـ ﴿ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ﴾ تَضطَرِبُ اضطرابًا[٢]، والمَوْرُ: تَردُّدٌ في المجيءِ والذَّهابِ، وقيل: تحرُّكٌ في تموُّجٍ، و﴿ يَوْمَ ﴾ ظرفٌ.

(١٠) ـ ﴿ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ﴾ أي: تسيرُ عن وجهِ الأرضِ فتَصِيرُ هباءً.

(١١) ـ ﴿ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ أي: إذا وقعَ ذلك فويلٌ لهم.

(١٢) ـ ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴾ أي: في الخوضِ في الباطلِ.

(١٣) ـ ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴾ يدفعونَ إليها بعُنفٍ، وذلك بأنْ تُغَلَّ أيديهِم إلى أعناقِهم وتُجمعَ نَواصيهِم إلى أقدامِهم فيُدفعونَ إلى النَّارِ.

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٢٥/ ١٦) دون راوٍ ولا سند.

(٢) «اضطراباً» من نسخة الخيالي.

وقُـرِئَ: (يُدْعَـوْنَ) مـن الدُّعـاءِ[١]، فيكـونُ ﴿دَعًّا﴾ حـالًا بمعنـى مَدْعُوعِينَ، و﴿يَوْمَ﴾ بدلٌ من ﴿يَوْمَ تَمُورُ﴾، أو ظرفٌ لقولٍ مُقدَّرٍ، محكيُّهُ:

(١٤) ـ ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ أي: فيقالُ لهم ذلك.

(١٥) ـ ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ﴾ أي: كنتُم تقولونَ للوَحيِ: هذا سِحرٌ، أفهذا المصداقُ[٢] أيضًا سحرٌ؟

وتقديمُ الخبرِ لأنَّه المقصودُ بالإنكارِ والتَّوبيخِ.

﴿أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ هذا أيضًا كما كُنتُم لا تبصرونَ في الدُّنيا ما يدلُّ عليه، وهو تَقريعٌ وتَهكُّمٌ، أم سُدَّت أبصارُكُم كما سُدَّتْ في الدُّنيا على زَعمِكُم حينَ قُلْتُم: ﴿إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا﴾ [الحجر: ١٥].

(١٦) ـ ﴿ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ﴾ أي: ادخُلوهَا على أيِّ وَجهٍ شِئتُم مِن الصَّبرِ وعَدمِه فإنَّه لا محيصَ لَكُم عنها.

﴿سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي: الأمرانِ الصَّبرُ وعَدمُه.

﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ تعليـلٌ للاسـتواءِ، فإنَّـه لَمَّـا كان الجـزاءُ واجِـبَ الوقـوعِ كان الصَّبـرُ وعدمُـه سِـيَّانِ[٣] فـي عـدمِ النَّفعِ.

(١٧) ـ ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ﴾ أي: في أيِّ جنَّاتٍ وأيِّ نعيمٍ، أو في جنَّاتٍ ونَعيمٍ مخصوصةٍ[٤] بهم.

---

(١) انظر: «تفسير الثعلبي» (٢٥/ ٢٤)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ١٨٧)، و«البحر» (٢٠/ ١٣) ونسبوها لزيد بن علي، وأبي رجاء، وعلي، والسلمي.

(٢) المصداق هو الشيء الذي يعرف به الصدق، والعذاب في الآخرة، وغير ذلك من أحوال القيامة، مما يعد من مصداق قول الأنبياء عليهم السلام. «فتوح الغيب» للطيبي (١٥/ ٤٥).

(٣) في نسخة الفاروقي: «سيين».

(٤) في نسخة الخيالي: «مخصوص».

(١٨) ـ ﴿فَٰكِهِينَ﴾ ناعمينَ مُتلذِّذينَ ﴿بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾.

وقُرِئَ: ﴿فَكِهِينَ﴾[١] و(فاكِهُونَ)[٢] على أنَّه الخبرُ، والظَّرفُ لغوٌ.

﴿وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ عطفٌ على ﴿ءَاتَىٰهُمْ﴾ إن جُعِل (ما) مصدريَّةً، أو ﴿فِى جَنَّٰتٍ﴾، أو حالٌ بإضمارِ (قد) مِن المُستكنِّ في الظَّرفِ أو الحالِ، أو مِن فاعلِ (آتى) أو مَفعولِه أو مِنهما.

(١٩) ـ ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا﴾ أي: أكلًا وشُربًا هنيئًا أو طعامًا وشرابًا هنيئًا، وهو الذي لا تنغيصَ فيه.

﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بسببِه أو بدلَه.

وقيل: الباءُ زائدةٌ و(ما) فاعلُ ﴿هَنِيٓـًٔا﴾، والمعنى: هنَّأَكُم ما كُنتُمْ تعمَلُون؛ أي: جزاؤُه.

(٢٠) ـ ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ﴾ مُصطفَّةٍ[٣].

﴿وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ الباءُ لِمَا في التَّزويجِ مِن مَعنى الوَصلِ والإلصاقِ، أو للسَّببيَّةِ إذ المعنى: صيَّرناهُم أزواجًا بسببهنَّ، أو لِمَا في التَّزويجِ مِن مَعنى الإلصاقِ والقرنِ[٤]، ولذلك عطفَ:

(٢١) ـ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ على (حُورٍ)؛ أي: قرنَّاهُم بأزواجٍ حُورٍ ورُفقاء[٥] مُؤمنينَ.

---

(١) وهي قراءة أبي جعفر، انظر: «النشر» (٢/ ٣٥٣).

(٢) ذكرها الزمخشري في «الكشاف» (٨/ ٤٦٨)، وأبو حيان في «البحر» (٢٠/ ١٤) ونسبها لخالد، ولم أعرفه.

(٣) في نسخة الخيالي: «مصففة».

(٤) في نسخة التفتازاني: «والقران».

(٥) في نسخة الطبلاوي: «وقرناء».

وقيل: إنَّه مُبتدأٌ خبرُه: ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ﴾.

وقوله: ﴿وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ﴾ اعتراضٌ للتَّعليلِ.

وقرأ ابنُ عامرٍ ويَعقوبُ: ﴿ذُرِّيَّاتُهم﴾ بالجمعِ وضَمِّ التَّاءِ[1] للمُبالغةِ في كَثرتِهم والتَّصريحِ[2]، فإنَّ الذُّريَّةَ تقع على الواحدِ والكثيرِ.

وقرأ أبو عَمرٍو: ﴿وأَتْبعْنَاهُم ذُرِّيَّاتِهم﴾[3] أي: جَعلنَاهُم تابعينَ لَهُم في الإيمانِ.

وقيل: ﴿بِإِيمَٰنٍ﴾ حالٌ مِن الضَّميرِ أو الذُّرِّيَّةِ أو منهما، وتنكيرُه للتَّعظيمِ أو الإشعارِ[4] بأنَّه يكفي للإلحاقِ المتابعَةُ في أصلِ الإيمانِ.

﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ في دُخولِ الجنَّةِ أو في الدَّرَجَةِ، لِمَا رُوِيَ أنَّـه عليه السَّلامُ قال[5]: «إنَّ اللهَ يرفَعُ ذريَّةَ المُؤمنِ في دَرجتِهِ وإن كانوا دونَهُ لِتقرَّ بهم عَينُه»، ثمَّ تلا هذه الآيَةَ[6].

---

(١) «بالجمع وضم التاء» من نسخة التفتازاني.

(٢) انظر: «النشر» (٢/ ٣٧٧).

(٣) المصدر السابق.

(٤) في نسخة الخيالي: «أو للإشعار».

(٥) في نسخة التفتازاني والخيالي زيادة: «مرفوعًا».

(٦) روي مرفوعاً وموقوفاً، فقد رواه البزار (٢٢٦٠ ـ كشف)، وأبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٣٠٢)، وابن عدي في «الكامل» (٦/ ٤٢) والثعلبي في «تفسيره» (٢٥/ ٣٠ ـ ٣١)، من طريق قيس بن الربيع، عن عمرو بن مرة، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس مرفوعاً. قال البزار: تفرد قيس برفعه، ورواه الثوري موقوفاً. وقال أبو نعيم: غريب من حديث عمرو وسعيد، تفرد به عنه قيس بن الربيع.

وقيس قال عنه يحيى كما ذكر ابن عدي: ليس بشيء. وقال مَرةً: ضعيف.

ورواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٣٠٠٩)، والطبري في «تفسيره» (٢١/ ٥٧٩)، والنحاس في «الناسخ والمنسوخ» (ص: ٦٩٠)، والحاكم في «المستدرك» (٣٧٤٤)، والبيهقي في «الاعتقاد» =

وقرأ نافعٌ وابنُ عامرٍ والبَصريَّانِ: ﴿ذُرِّيَّاتِهِم﴾[١].

﴿وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم﴾ وما نَقَصْناهُم ﴿مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖ﴾ بهذا الإلحاقِ؛ فإنَّه كما يحتملُ أن يكونَ بنَقصِ مَرتبةِ الآباءِ بإعطاءِ الأبناءِ بعضَ مَثُوباتِهم، يحتملُ أن يكونَ بالتَّفضُّلِ عليهِمْ، وهو اللَّائقُ بكَمالِ لُطفِه.

وقرأ ابنُ كثيرٍ بكَسرِ اللامِ[٢] مِن أَلِتَ يَأْلَتُ، وعنهُ: (لِتْنَاهُم) مِن لاتَ يَلِيتُ، و: (آلَتْنَاهُم) مَن آلَتَ يُؤْلِتُ، و: (وَلَتْنَاهُم) مِن وَلَتَ يَلِتُ[٣]، ومَعنى الكُلِّ واحدٌ.

﴿كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ﴾ بعملِه مَرهونٌ عندَ اللهِ، فإنْ عَمِلَ صالحًا فكَّها، وإلَّا أهلكَها.

(٢٢) ـ ﴿وَأَمۡدَدۡنَٰهُم بِفَٰكِهَةٖ وَلَحۡمٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ﴾ أي: وزِدْناهُم وقتًا بعدَ وقتٍ ما يشتهونَ مِن أنواعِ التَّنعُّمِ[٤].

= (ص: ١٦٦)، وفي «السنن» (١٠/ ٢٦٨)، من طريق الثوري عن عمرو بن مرة به موقوفاً.

ورواه الطحاوي في «شرح مشكل الآثار» (١٠٧٥)، والنحاس في «الناسخ والمنسوخ» (ص: ٦٩٠)، من طريق محمد بن بِشْرٍ العَبْدِيِّ، عن سفيان الثوري، عن سَمَاعَةَ، عن عمرو بن مُرة، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ.

قال النحاس: فصار الحديثُ مرفوعًا عن رسول الله ﷺ، وكذا يجب أن يكون؛ لأن ابن عباس لا يقولُ هذا إلا عن رسول الله ﷺ؛ لأنه إخبارٌ عن الله تعالى بما فعله وبمعنى آيةٍ أنزلها تعالى.

وقال الطحاوي: فنحن نحيطُ علمًا ـ لو لم نجد أحدًا من رواته رَفَعه إلى النبي ﷺ ـ أن ابن عباس لم يأخذه إلَّا عن النبي ﷺ إذ كان الذي فيه إخبارٌ عن الله عزَّ وجلَّ بمُراده في الآية المذكورة فيه، وذلك مما لا يؤخذ من غير النبي ﷺ.

(١) انظر: «التيسير» (ص: ٢٠٣).

(٢) انظر: «النشر» (٢/ ٣٧٧).

(٣) انظر هذه القراءات مع من قرأ بها في «المختصر في شواذ القراءات» (ص:١٤٦)، و«المحتسب» (٢/ ٢٩٠).

(٤) في نسخة الفاروقي والتفتازاني: «النعم».

(٢٣) - ﴿يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا﴾ يتعاطَوْنَ هم وجُلَساؤهُم بتَجاذُبٍ ﴿كَأۡسٗا﴾ خمرًا، سمَّاها باسمِ محلِّها، ولذلك أُنِّثَ الضَّميرُ في قولِه: ﴿لَّا لَغۡوٞ فِيهَا وَلَا تَأۡثِيمٞ﴾ أي: لا يتكلمونَ بلَغوِ الحديثِ في أثناءِ شُربِها ولا يفعلونَ ما يُؤثِّمُ به فاعلُه كما هو عادةُ الشَّاربينَ في الدُّنيا، وذلك مثلُ قولِه: ﴿لَا فِيهَا غَوۡلٞ﴾ [الصافات: ٤٧].

وقرأهُما ابنُ كثيرٍ والبَصريَّانِ بالفَتحِ[1].

(٢٤) - ﴿وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ﴾ أي: بالكأسِ ﴿غِلۡمَانٞ لَّهُمۡ﴾ أي: مماليكُ مَخصوصونَ بهم. وقيل: هم أولادُهم الذين سَبَقوهُم.

﴿كَأَنَّهُمۡ لُؤۡلُؤٞ مَّكۡنُونٞ﴾ مصونٌ في الصَّدفِ مِن بياضِهم وصَفائِهم.

وعنه عليه السَّلامُ: «والذي نفسي بيدِه إنَّ فضلَ المَخدومِ على الخادمِ كفَضلِ القمرِ ليلةَ البدرِ على سائرِ الكواكبِ»[2].

(٢٥) - ﴿وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ﴾ يسألُ بَعضُهُم بَعضًا عَن أحوالِه وأعمالِه.

(٢٦) - ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ فِيٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ﴾ خائفينَ مِن عصيانِ اللهِ مُعتَنينَ بطَاعتهِ، أو وجلينَ مِن العاقبَةِ.

(٢٧) - ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا﴾ بالرَّحمةِ أو التَّوفيقِ ﴿وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾ عذابَ النَّارِ النَّافذَةِ في المسَامِّ نُفوذَ السَّمومِ.

وقُرِئَ: (ووَقَّانا) بالتَّشديدِ[3].

(٢٨) - ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلُ﴾ مِن قبلِ ذلك في الدُّنيا ﴿نَدۡعُوهُ﴾ نَعبدُه، أو نَسأَلُه الوِقايةَ ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ﴾ المُحسِنُ.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٦١٢)، و«التيسير» (ص: ٨٢)، و«النشر» (٢/ ٢١١).

(٢) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٣/ ٢٤٦)، والطبري في «تفسيره» (٢١/ ٥٨٩) من مرسل قتادة.

(٣) انظر: «الكشاف» (٨/ ٤٧٥)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ١٩٠)، و«البحر» (٢٠/ ٢٠) عن أبي حيوة.

وقرأ نافعٌ والكِسائيُّ بفَتحِ همزةِ ﴿أَنَّهُ﴾[١].

﴿الرَّحِيمُ﴾ الكثيرُ الرَّحمةِ.

(٢٩) - ﴿فَذَكِّرْ﴾ فاثبُتْ على التَّذكيرِ ولا تكترِثْ بقولِهم.

﴿فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ﴾ بحمدِ اللهِ وإنعامِه ﴿بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ كما يقولونَ.

(٣٠) - ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ ما يُقلِقُ النُّفوسَ مِن حوادثِ الدَّهرِ.

وقيل: المَنُونُ المَوتُ، فَعُولٌ مِن مَنَّه: إذا قَطعَهُ.

(٣١) - ﴿قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ﴾ أتربَّصُ هَلاكَكُم كما تَتربَّصون هلاكي.

(٣٢) - ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم﴾ عُقولُهم ﴿بِهَٰذَآ﴾ بهذا التَّناقُضِ في القَوْلِ، فإنَّ الكاهِنَ يكونُ ذا فطنةٍ ودقَّةِ نظرٍ، والمجنونُ مُغطًّى عقلُه، والشَّاعرُ يكونُ ذا كلامٍ مَوْزُونٍ مُتَّسِقٍ مُخيِّلٍ، ولا يَتأتَّى ذلك من المَجنونِ.

وأمرُ الأحلامِ به مَجازٌ عَن أدائِها إليه.

﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ مجاوِزونَ الحدَّ في العنادِ.

وقُرِئَ: (بل هُم)[٢].

(٣٣) - ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ﴾ اختلقَهُ مِن تلقاءِ نَفسِه.

﴿بَل لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ فيرمونَ بهذه المطاعنِ لكُفرِهم وعِنادِهم.

(٣٤) - ﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ﴾ مثلِ القرآنِ ﴿إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ﴾ في زعمِهم إذ

---

(١) وقراءة الباقين بالكسر، انظر: «السبعة» (ص: ٦١٣)، و«التيسير» (ص: ٢٠٣).

(٢) انظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ١٩٢)، و«البحر» (٢٠/ ٢٢٣) عن مجاهد.

فيهم كَثيرٌ ممَّنْ تحدُّوا(١)، فهو ردٌّ للأقوالِ المذكورةِ بالتَّحدِّي، ويجوزُ أن يكونَ ردًّا للتَّقوُّلِ، فإنَّ سائرَ الأقسامِ ظاهرُ الفَسادِ.

(٣٥ ـ ٣٦) ـ ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ ﴾ أم أُحدِثُوا وقُدِّروا مِـن غيرِ مُحدِثٍ ومُقَدِّرٍ فلذلك لا يعبدونهَ، أو مِن أجلِ لا شيءَ مِن عبادةٍ ومُجازاةٍ؟!

﴿أَمْ هُمُ ٱلْخَـٰلِقُونَ ﴾ يؤيِّدُ الأوَّلَ، فإنَّ مَعناه: أم خَلَقوا أنفُسَهُم، ولذلك عقَّبَه بقولِه: ﴿ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾.

و(أم) في هذه الآياتِ مُنقَطِعَةٌ، ومعنى الهمزةِ فيها الإنكارُ.

﴿بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴾ إذا سُئِلُوا: مَن خلقَكُم ومَن خلقَ السَّماواتِ والأرضَ قالوا: الله؛ إذ لو أيقَنُوا ذلك لَما أعرَضُوا عَن عِبادَتِه.

(٣٧) ـ ﴿ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ ﴾ خزائنُ رزقِه حتى يَرْزُقوا النبوَّةَ مَن شاؤُوا، أو خزائِنُ علمِه حتَّى يختاروا لها مَن اختارَتْه حِكمتُه.

﴿أَمْ هُمُ المسَيطِرون﴾ الغالبونَ على الأشياءِ يُدَبِّرُونَه كيفَ شَاؤوا.

وقرأ قنبلٌ وحفصٌ بخلاف عنه وهشامُ بالسِّين، وحمزة بخلاف عن خلاد بين الصَّادِ والزَّاي، والباقون بالصَّاد خالصة(٢).

---

(١) المثبت من نسخة الطبلاوي، وفي باقي النسخ: «عَدُّوا»، وذكر الشهاب الخفاجي الخلاف بين النسخ، ورجح ما أثبتناه، ومعنى: «تحدوا»: أي وقع معهم التحدي، والأمر بالمعارضة فلم عجزوا عنها.

ومعنى «عدوا»: فعل معلوم أو مجهول من العدد، والمراد بالمعدودين الشاعر، والكاهن، والمجنون الذين شوهد من حالهم ما يقتضي خلاف مدّعاهم. انظر: «حاشية الخفاجي».

(٢) «وقرأ قنبل وحفص بخلاف عنه وهشام بالسين وحمزة بخلاف عن خلاد بين الصاد والزاي والباقون بالصاد خالصة» من نسخة التفتازاني وهامش نسخة الطبلاوي. انظر: «النشر» (٢/ ٣٧٨).

(٣٨) ـ ﴿ أَمۡ لَهُمۡ سُلَّمٌ ﴾ مُرتقًى إلى السَّماءِ ﴿يَسۡتَمِعُونَ فِيهِ﴾ صاعدينَ فيه إلى كلامِ الملائكةِ وما يُوحى إليهِمْ مِن علمِ الغَيبِ حتَّى يَعلَمُوا ما هو كائِنٌ.

﴿فَلۡيَأۡتِ مُسۡتَمِعُهُم بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ﴾ بحُجَّةٍ واضِحَةٍ تُصدِّقُ استِماعَه.

(٣٩) ـ ﴿ أَمۡ لَهُ ٱلۡبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلۡبَنُونَ ﴾ فيه تَسفيهٌ لهم وإشعارٌ بأنَّ مَن هذا رأيُه لا يُعَدُّ مِن العُقَلاءِ فضلًا أن يترقَّى برُوحِه إلى عالمِ الملكوتِ فيتطلَّعُ على الغيوبِ.

(٤٠) ـ ﴿أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ أَجۡرٗا﴾ على تبليغِ الرِّسالةِ ﴿فَهُم مِّن مَّغۡرَمٖ﴾ مِن التزامِ غُرْمٍ ﴿مُّثۡقَلُونَ﴾ محمَّلونَ الثِّقلَ فلذلك زَهِدُوا في اتِّباعِكَ.

(٤١) ـ ﴿ أَمۡ عِندَهُمُ ٱلۡغَيۡبُ ﴾ اللَّوحُ المَحفوظُ المُثبَتُ فيه المُغيَّباتُ ﴿فَهُمۡ يَكۡتُبُونَ﴾ مِنه.

(٤٢) ـ ﴿ أَمۡ يُرِيدُونَ كَيۡدٗا ﴾ وهو كيدُهُم في دارِ النَّدوةِ برَسُولِ الله ﷺ.

﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ يحتملُ العُمومَ والخُصوصَ، فيكونُ وَضعُه مَوضِعَ الضَّميرِ للتَّسجيلِ على كُفرِهِم والدَّلالةِ على أنَّه الموجِبُ للحُكمِ المَذكورِ.

﴿هُمُ ٱلۡمَكِيدُونَ﴾ هم الذين يَحيقُ بهم الكيدُ أو يعودُ عليهم وَبالُ كَيدِهِم، وهو قَتلُهُم يومَ بدرٍ، أو المغلوبونَ في الكيدِ، مِن كايَدْتُه فكِدْتُه.

(٤٣) ـ ﴿أَمۡ لَهُمۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ﴾ يُعينُهُم ويَحرُسُهم مِن عَذابِه.

﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ عَن إشراكِهِم أو شِركةِ ما يُشركونه به.

(٤٤) ـ ﴿ وَإِن يَرَوۡاْ كِسۡفٗا ﴾ قطعةً ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطٗا يَقُولُواْ﴾ مِن فرطِ طُغيانِهم وعِنادِهم: ﴿سَحَابٞ مَّرۡكُومٞ﴾ هذا سحابٌ تراكَمَ بعضُها على بعضٍ، وهو جوابُ قَولِهم: ﴿ فَأَسۡقِطۡ عَلَيۡنَا كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ [الشعراء: ١٨٧].

(٤٥) ـ ﴿ فَذَرۡهُمۡ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي فِيهِ يُصۡعَقُونَ﴾ وهو عندَ النَّفخةِ الأولى.

وقُـرِئَ: ﴿يَلْقَـوْا﴾[١]، وقـرأَ ابـنُ عامـرٍ وعاصِـمٌ: ﴿يُصْعَقُونَ﴾[٢] علـى المبنيِّ للمفعـولِ مِـن صَعَقَـهُ أو أَصْعَقَه.

(٤٦) ـ ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ أي: شيئًا من الإغناءِ في ردِّ العذابِ ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ يُمنعونَ مِن عذابِ اللهِ.

(٤٧) ـ ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ يحتَمِلُ العُمومَ والخُصوصَ ﴿عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ﴾ أي: دونَ عَذابِ الآخرةِ، وهو عذابُ القبرِ أو المؤاخذةُ في الدُّنيا، كقتلٍ ببدرٍ والقَحطِ سبعَ سنينَ.

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ بإِمْهالِهم وإبقائِكَ في عَنائِهم.

(٤٨) ـ ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ في حفظِنا بحيثُ نراكَ ونكلؤُكَ.

وجمعُ العينِ لجَمعِ الضَّميرِ والمبالغةِ بكثرةِ أسبابِ الحفظِ.

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ مِن أيِّ مكانٍ قمتَ، أو مِن مَنامِكَ، أو إلى الصَّلاةِ.

(٤٩) ـ ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ فإنَّ العبادةَ فيه أشَقُّ على النَّفسِ وأبعَدُ عن الرِّياءِ، ولذلك أفردَهُ بالذِّكرِ وقدَّمَه على الفعلِ.

﴿وَإِدْبَارَ النُّجُومِ﴾ وإذا أدبَرَت النُّجومُ مِن آخرِ الليلِ.

وقُرِئَ بالفتحِ[٣]؛ أي: في أَعقابِها إذا غربَتْ أو خَفِيَتْ.

وعنه عليه السَّلامُ: «مَن قرأَ سُورةَ الطُّورِ كانَ حَقًّا على اللهِ أَنْ يؤمِّنَهُ مِن عذابِه وأن يُنَعِّمَهُ في جنَّتِه»[٤].

---

(١) انظر: «الكشاف» (٨/ ٤٨٠).

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٦١٣)، و«التيسير» (ص: ٢٠٤).

(٣) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٤٧) عن الأعمش.

(٤) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٢٥/ ٨)، والمستغفري في «فضائل القرآن» (١٢١٩)، والواحدي في «الوسيط» (٤/ ١٨٣)، من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه، وهو قطعة من الحديث الطويل الموضوع في فضائل السور. انظر: «الفتح السماوي» للمناوي (٣/ ١٠١٢).

(٥٢) سورة الطور مكية
وآياتها تسع وأربعون

عن جبير بن مطعم قال: « سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور، فما سمعت أحداً أحسن صوتاً أو قراءة منه »(١). وروى البخاري، عن أم سلمة قالت: شكوت إلى رسول الله ﷺ أني أشتكي فقال: « طوفي من وراء الناس وأنت راكبة »، فطفت ورسول الله ﷺ يصلي إلى جنب البيت يقرأ بالطور وكتاب مسطور.

بسم الله الرحمن الرحيم

وَالطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴿٣﴾ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ﴿٤﴾ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾ وَالْبَحْرِ
الْمَسْجُورِ ﴿٦﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴿٧﴾ مَّا لَهُ مِن دَافِعٍ ﴿٨﴾ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ
سَيْرًا ﴿١٠﴾ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾
هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا
سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾

يقسم تعالى بمخلوقاته الدالة على قدرته العظيمة، أن عذابه واقع بأعدائه وأنه لا دافع له عنهم، والطور هو الجبل الذي يكون فيها أشجار مثل الذي كلم الله عليه موسى، وما لم يكن فيه شجر لا يسمى طوراً، إنما يقال له جبل، ﴿ وكتاب مسطور ﴾ قيل: هو اللوح المحفوظ، وقيل: الكتب المنزلة المكتوبة، التي تقرأ على الناس جهاراً، ولهذا قال: ﴿ في رق منشور * والبيت المعمور ﴾، ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال في حديث الإسراء: « ثم رفع بي إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألفاً لا يعودون إليه آخر ما عليهم »(٢) يعني يتعبدون فيه ويطوفون به كما يطوف أهل الأرض بكعبتهم، وهو كعبة أهل السماء السابعة، وفي كل سماء بيت يتعبد فيه أهلها ويصلون إليه، والذي في السماء الدنيا يقال له بيت العزة، والله أعلم. وقال ابن عباس: البيت المعمور هو بيت حذاء

---

(١) أخرجه الشيخان من طريق مالك.
(٢) هو جزء من حديث طويل في الإسراء أخرجه الشيخان.

العرش تعمره الملائكة، يصلي فيه كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة ثم لا يعودون إليه، وكذا قال عكرمة ومجاهد وغير واحد من السلف. وقال قتادة والسدي: ذكر لنا أن رسول الله ﷺ قال يوماً لأصحابه: «هل تدرون ما البيت المعمور؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «فإنه مسجد في السماء بحيال الكعبة لو خر لخر عليها، يصلي فيه كل يوم سبعون ألف ملك إذا خرجوا منه لم يعودوا آخر ما عليهم». وقوله تعالى: ﴿والسقف المرفوع﴾ عن علي قال: يعني السماء، ثم تلا: ﴿وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً وهم عن آياتها معرضون﴾، وكذا قال مجاهد وقتادة والسدي واختاره ابن جرير، وقال الربيع بن أنَس: هو العرش يعني أنه سقف لجميع المخلوقات، وقوله تعالى: ﴿والبحر المسجور﴾ قال الربيع بن أنَس: هو الماء الذي تحت العرش الذي ينزل الله منه المطر الذي تحيا به الأجساد في قبورها يوم معادها، وقال الجمهور: هو هذا البحر، واختلف في معنى قوله ﴿المسجور﴾ فقال بعضهم: المراد أنه يوقد يوم القيامة ناراً كقوله، ﴿وإذا البحار سجرت﴾ أي أضرمت فتصير ناراً تتأجج محيطة بأهل الموقف، وروي عن علي وابن عباس. وقال العلاء بن بدر: إنما سمي البحر المسجور لأنه لا يشرب منه ماء ولا يسقى به زرع، وكذلك البحار يوم القيامة، وعن سعيد بن جبير: ﴿والبحر المسجور﴾ يعني المرسل، وقال قتادة: المسجور المملوء، واختاره ابن جرير، وقيل: المراد بالمسجور الممنوع المكفوف عن الأرض لئلا يغمرها فيغرق أهلها، قاله ابن عباس وبه يقول السدي وغيره، وعليه يدل الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب، عن رسول الله ﷺ قال: «ليس من ليلة إلا والبحر يشرف فيها ثلاث مرات يستأذن الله أن ينفضح عليهم فيكفه الله عزّ وجل»[1].

وقوله تعالى: ﴿إن عذاب ربك لواقع﴾ هذا هو القسم عليه أي لواقع بالكافرين، ﴿ماله من دافع﴾ أي ليس له دافع يدفعه عنهم، إذا أراد الله بهم ذلك، قال الحافظ ابن أبي الدنيا: خرج عمر يعس المدينة ذات ليلة، فمرّ بدار رجل من المسلمين فوافقه قائماً يصلي، فوقف يستمع قراءته فقرأ: ﴿والطور - حتى بلغ - إن عذاب ربك لواقع ۝ ماله من دافع﴾ قال: قسم ورب الكعبة حق، فنزل عن حماره، واستند إلى حائط، فمكث ملياً، ثم رجع إلى منزله، فمكث شهراً يعوده الناس لا يدرون ما مرضه رضي الله عنه[2]. وقوله تعالى: ﴿يوم تمور السماء موراً﴾ قال ابن عباس: تتحرك تحريكاً، وقال مجاهد: تدور دوراً، وقال الضحّاك: استدارتها وتحركها لأمر الله وموج بعضها في بعض، وهذا اختيار ابن جرير أنه التحرك في استدارة، قال وأنشد أبو عبيدة بيت الأعشى فقال:

كأنَّ مِشيَتَها من بيت جارتها   مَوْرُ السحابة لا رَيْثٌ ولا عجل

﴿وتسير الجبال سيراً﴾ أي تذهب فتصير هباء منبثاً وتنسف نسفاً، ﴿فويل يومئذ للمكذبين﴾ أي ويل لهم ذلك اليوم من عذاب الله ونكاله، ﴿الذين هم في خوض يلعبون﴾ أي هم في الدنيا يخوضون في الباطل ويتخذون دينهم هزواً ولعباً ﴿يوم يُدَعُّون﴾ أي يدفعون ويساقون ﴿إلى نار جهنم دَعّاً﴾، قال مجاهد والسدي: يدفعون فيها دفعاً ﴿هذه النار التي كنتم بها تكذبون﴾ أي تقول لهم الزبانية ذلك تقريعاً وتوبيخاً، ﴿أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون ۝ اصلوها﴾ أي ادخلوها دخول من تغمره من جميع جهاته، ﴿فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم﴾، أي سواء

(١) رواه الإمام أحمد في المسند.

(٢) رواه ابن أبي الدنيا عن جعفر بن زيد العبدي.

صبرتم على عذابها ونكالها أم لم تصبروا، لا محيد لكم عنها ولا خلاص لكم منها، ﴿إنما تجزون ما كنتم تعملون﴾ أي ولا يظلم الله أحداً بل يجازي كلاً بعمله .

* ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ۖ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾﴾

أخبر الله تعالى عن حال السعداء فقال: ﴿إن المتقين في جنات ونعيم﴾ وذلك بضد ما أولئك فيه من العذاب والنكال، ﴿فاكهين بما آتاهم ربهم﴾ أي يتفكهون بما آتاهم الله من النعيم، من أصناف الملاذ من مآكل ومشارب، وملابس ومساكن ومراكب وغير ذلك، ﴿ووقاهم ربهم عذاب الجحيم﴾ أي وقد نجاهم من عذاب النار، وتلك نعمة مستقلة بذاتها، مع ما أضيف إليها من دخول الجنة، التي فيها من السرور ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وقوله تعالى: ﴿كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون﴾، كقوله تعالى: ﴿كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية﴾ أي هذا بذاك تفضلاً منه وإحساناً، وقوله تعالى: ﴿متكئين على سرر مصفوفة﴾ قال ابن عباس: السرر في الحجال، وفي الحديث: «إن الرجل ليتكئ المتكأ مقدار أربعين سنة ما يتحول عنه ولا يمله يأتيه ما اشتهت نفسه ولذت عينه»[1] . وعن ثابت قال: «بلغنا أن الرجل ليتكئ في الجنة سبعين سنة عنده من أزواجه وخدمه، وما أعطاه الله من الكرامة والنعيم، فإذا حانت منه نظرة، فإذا أزواج له لم يكن رآهن قبل ذلك فيقلن: قد آن لك أن تجعل لنا منك نصيباً»[2] ومعنى ﴿مصفوفة﴾ أي وجوه بعضهم إلى بعض كقوله: ﴿على سرر متقابلين﴾، ﴿وزوجناهم بحور عين﴾ أي وجعلنا لهم قرينات صالحات، وزوجات حساناً من الحور العين، وقال مجاهد ﴿وزوجناهم﴾ أنكحناهم بحور عين، وقد تقدم وصفهن في غير موضع بما أغنى عن إعادته ههنا .

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ۚ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ * وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾﴾

يخبر تعالى عن فضله وكرمه وامتنانه، ولطفه بخلقه وإحسانه، أن المؤمنين إذا اتبعتهم ذرياتهم في الإيمان، يلحقهم بآبائهم في المنزلة، وإن لم يبلغوا عملهم لتقر أعين الآباء بالأبناء، فيجمع بينهم على أحسن الوجوه بأن يرفع

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم عن الهيثم بن مالك الطائي مرفوعاً . (٢) أخرجه ابن أبي حاتم أيضاً عن ثابت البناني موقوفاً .

الناقص العمل بكامل العمل، ولا ينقص ذلك من عمله ومنزلته للتساوي بينه وبين ذاك، ولهذا قال: ﴿ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء﴾، قال ابن عباس: إن الله ليرفع ذرية المؤمن في درجته وإن كانوا دونه في العمل لتقرَّ بهم عينه، ثم قرأ: ﴿والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء﴾[1]. وروى ابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس في قول الله تعالى: ﴿والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم﴾، قال: هم ذرية المؤمن يموتون على الإيمان. فإن كانت منازل آبائهم أرفع من منازلهم ألحقوا بآبائهم ولم ينقصوا من أعمالهم التي عملوها شيئاً، وروى الحافظ الطبراني عن ابن عباس أظنه عن النبي ﷺ قال: «إذا دخل الرجل الجنة سأل عن أبويه وزوجته وولده فيقال: إنهم لم يبلغوا درجتك، فيقول: يا رب قد عملت لي ولهم، فيؤمر بإلحاقهم به، وقرأ ابن عباس: ﴿والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان﴾ الآية، هذا فضله تعالى على الأبناء ببركة عمل الآباء، وأما فضله على الآباء ببركة دعاء الأبناء، فقد قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليرفع الدرجة للعبد الصالح في الجنة فيقول: يا رب أنى لي هذه؟ فيقول: باستغفار ولدك لك»[2]. وعن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»[3].

وقوله تعالى: ﴿كل امرئ بما كسب رهين﴾ لما أخبر عن مقام الفضل وهو رفع درجة الذرية إلى منزلة الآباء من غير عمل يقتضي ذلك، أخبر عن مقام العدل، وهو أنه لا يؤاخذ أحداً بذنب أحد، فقال تعالى: ﴿كل امرئ بما كسب رهين﴾ أي مرتهن بعمله لا يحمل عليه ذنب غيره من الناس، سواء كان أباً أو ابناً، كما قال تعالى: ﴿كل نفس بما كسبت رهينة إلا أصحاب اليمين في جنات يتساءلون عن المجرمين﴾، وقوله: ﴿وأمددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون﴾ أي وألحقناهم بفواكه ولحوم من أنواع شتى مما يستطاب ويشتهى، وقوله: ﴿يتنازعون فيها كأساً﴾ أي يتعاطون فيها كأساً أي من الخمر، قاله الضحّاك: ﴿لا لغو فيها ولا تأثيم﴾ أي لا يتكلمون فيها بكلام لاغ، أي هذيان، ولا إثم، أي فحش كما يتكلم به الشربة من أهل الدنيا. قال ابن عباس: اللغو الباطل، والتأثيم الكذب، وقال مجاهد: لا يستبون ولا يؤثمون؛ وقال قتادة: كان ذلك في الدنيا مع الشيطان، فنزه الله خمر الآخرة عن قاذورات خمر الدنيا وأذاها، فنفى عنها صداع الرأس ووجع البطن وإزالة العقل بالكلية، وأخبر أنها لا تحملهم على الكلام السيء الفارغ عن الفائدة المتضمن هذياناً وفحشاً، وأخبر بحسن منظرها وطيب طعمها ومخبرها فقال: ﴿بيضاء لذة للشاربين ۝ لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون﴾ وقال: ﴿لا يصدعون عنها ولا ينزفون﴾. وقال ههنا: ﴿يتنازعون فيها كأساً لا لغو فيها ولا تأثيم﴾. وقوله تعالى: ﴿ويطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون﴾ إخبار عن خدمهم وحشمهم في الجنة، كأنهم اللؤلؤ الرطب المكنون، في حسنهم وبهائهم ونظافتهم وحسن ملابسهم، كما قال تعالى: ﴿يطوف عليهم ولدان مخلدون ۝ بأكواب وأباريق وكأس من معين﴾. وقوله تعالى: ﴿وأقبل

(١) أخرجه ابن جرير عن ابن عباس موقوفاً ورواه البزار عنه مرفوعاً.

(٢) أخرجه الإمام أحمد عن أبي هريرة، قال ابن كثير: اسناده صحيح.

(٣) أخرجه مسلم عن أبي هريرة.

بعضهم على بعض يتساءلون﴾ أي أقبلوا يتحادثون ويتساءلون عن أعمالهم وأحوالهم في الدنيا، كما يتحادث أهل الشراب على شرابهم، ﴿ قالوا إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين﴾ أي كنا في الدار الدنيا ونحن بين أهلينا خائفين من ربنا، مشفقين من عذابه وعقابه ﴿ فمنَّ الله علينا ووقانا عذاب السموم﴾ أي فتصدق علينا وأجارنا مما نخاف، ﴿ إنا كنا من قبل ندعوه﴾ أي نتضرع إليه فاستجاب لنا وأعطانا سؤالنا ﴿ إنه هو البر الرحيم﴾ ، عن أنَس قال، قال رسول الله ﷺ: «إذا دخل أهل الجنة الجنة اشتاقوا إلى الإخوان فيجيء سرير هذا حتى يحاذي سرير هذا، فيتحدثان، فيتكيْ هذا ويتكيْ هذا فيتحدثان بما كان في الدنيا، فيقول أحدهما لصاحبه: يا فلان تدري أي يوم غفر الله لنا؟ يوم كنا في موضع كذا وكذا فدعونا الله عزّ وجلّ فغفر لنا»[1] . وعن مسروق عن عائشة أنها قرأت هذه الآية: ﴿ فمنَّ الله علينا ووقانا عذاب السموم * إنا كنا من قبل ندعوه إنه هو البر الرحيم﴾، فقالت: اللهم منّ علينا، وقنا عذاب السموم، إنك أنت البر الرحيم: قيل للأعمش: في الصلاة؟ قال: نعم[2] .

* فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾

يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ بأن يبلغ رسالته إلى عباده، وأن يذكرهم بما أنزل الله عليه، ثم نفى عنه ما يرميه به أهل البهتان والفجور فقال: ﴿ فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون﴾ ، أي لست بحمد الله بكاهن كما تقوله الجهلة من كفار قريش، والكاهن الذي يأتيه الرِئي من الجان بالكلمة يتلقاها من خبر السماء، ﴿ ولا مجنون﴾ وهو الذي يتخبطه الشيطان من المس. ثم قال تعالى منكراً عليهم في قولهم في الرسول ﷺ: ﴿ أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون﴾ ؟ أي قوارع الدهر، والمنون الموت، يقولون: ننتظره ونصبر عليه حتى يأتيه الموت فنستريح منه. قال الله تعالى: ﴿ قل تربصوا فإني معكم من المتربصين﴾ أي انتظروا، فإني منتظر معكم وستعلمون لمن تكون العاقبة والنصرة في الدنيا والآخرة، قال ابن عباس رضي الله عنهما: إن قريشاً لما اجتمعوا في دار الندوة في أمر النبي ﷺ قال قائل منهم: احتبسوه في وثاق وتربصوا به ريب المنون، حتى يهلك كما هلك من كان قبله من الشعراء (زهير) و (النابغة) إنما هو كأحدهم، فأنزل الله تعالى ذلك من قولهم: ﴿ أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون﴾ ؟ ثم قال تعالى: ﴿ أم تأمرهم أحلامهم بهذا﴾ أي عقولهم تأمرهم بهذا الذي يقولونه فيك من الأقاويل الباطلة، التي يعلمون في أنفسهم أنها كذب وزور ﴿ أم قوم طاغون﴾ أي ولكن هم قوم طاغون ضلال معاندون، فهذا هو الذي يحملهم على ما قالوه فيك، وقوله تعالى: ﴿ أم هم يقولون تقوله ﴾ اي اختلقه وافتراه من عند نفسه يعنون القرآن، قال تعالى: ﴿ بل لا يؤمنون﴾ أي كفرهم هو الذي يحملهم على هذه المقالة: ﴿ فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين﴾ أي إن كانوا صادقين في قولهم، تقوله وافتراه: فليأتوا بمثل ما جاء به محمد ﷺ من هذا القرآن، فإنهم لو اجتمعوا هم وجميع أهل الأرض، من الجن والإنس ما جاءوا بمثله ولا بسورة من مثله.

---

(١) أخرجه الحافظ البزار عن أنَس وقال: لا نعرفه إلا بهذا الإسناد.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم.

أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾

هذا المقام في إثبات الربوبية، وتوحيد الألوهية، فقال تعالى: ﴿أم خلقوا من غير شيء؟ أم هم الخالقون﴾؟ أي أوجدوا من غير موجد؟ أم هم أوجدوا أنفسهم؟ أي لا هذا ولا هذا، بل الله هو الذي خلقهم وأنشأهم، بعد أن لم يكونوا شيئاً مذكوراً، روى البخاري، عن جبير بن مطعم قال: سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور، فلما بلغ هذه الآية: ﴿أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون * أم خلقوا السماوات والأرض بل لا يوقنون * أم عندهم خزائن رحمة ربك أم هم المصيطرون﴾؟ كاد قلبي أن يطير[1]. ثم قال تعالى: ﴿أم خلقوا السماوات والأرض بل لا يوقنون﴾؟ أي أهم خلقوا السماوات والأرض؟ وهذا إنكار عليهم في شركهم بالله وهم يعلمون أنه الخالق وحده لا شريك له، ﴿أم عندهم خزائن ربك أم هم المصيطرون﴾؟ أي أهم يتصرفون في الملك وبيدهم مفاتيح الخزائن ﴿أم هم المصيطرون﴾ أي المحاسبون للخلائق، بل الله عزّ وجلّ هو المالك المتصرف الفعال لما يريد. وقوله تعالى: ﴿أم لهم سلم يستمعون فيه﴾؟ أي مرقاة إلى الملأ الأعلى، ﴿فليأت مستمعهم بسلطان مبين﴾ أي فليأت الذي يستمع لهم بحجة ظاهرة، على صحة ما هم فيه من الفعال والمقال، ثم قال منكراً عليهم فيما نسبوه إليه من البنات، واختيارهم لأنفسهم الذكور على الإناث، وقد جعلوا الملائكة بنات الله وعبدوهم مع الله فقال: ﴿أم له البنات ولكم البنون﴾؟! وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد، ﴿أم تسألهم أجراً﴾؟ أي أجرة على إبلاغك إياهم رسالة الله، أي لست تسألهم على ذلك شيئاً، ﴿فهم من مغرم مثقلون﴾ أي فهم من أدنى شيء يتبرمون منه، ويثقلهم ويشق عليهم، ﴿أم عندهم الغيب فهم يكتبون﴾ أي ليس الأمر كذلك فإنه لا يعلم أحد من أهل السماوات والأرض الغيب إلا الله، ﴿أم يريدون كيداً * فالذين كفروا هم المكيدون﴾، يقول تعالى: أم يريد هؤلاء بقولهم هذا في الرسول، وفي الدين غرور الناس وكيد الرسول وأصحابه، فكيدهم إنما يرجع وباله على أنفسهم، فالذين كفروا هم المكيدون، ﴿أم لهم إله غير الله سبحان الله عما يشركون﴾، وهذا إنكار شديد على المشركين في عبادتهم الأصنام والأنداد مع الله، ثم نزه نفسه الكريمة عما يقولون ويفترون، ويشركون، فقال: ﴿سبحان الله عما يشركون﴾.

* وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ

---

(١) الحديث من رواية الشيخين، وجبير بن مطعم قدم على النبي ﷺ بعد وقعة بدر في فداء الأسرى وكان إذ ذاك مشركاً، فكان سماعه هذه الآية من هذه السورة من جملة ما حمله على الدخول في الإسلام.

أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَـٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾

يقول تعالى مخبراً عن المشركين بالعناد والمكابرة للمحسوس ﴿وإن يروا كسفاً من السماء ساقطاً﴾ أي عليهم يعذبون بـه لمـا صدقوا ولمـا أيقنوا، بل يقولون هذا ﴿سحاب مركوم﴾ أي متراكم، وهذا كقوله: ﴿ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون ۞ لقالوا إنمـا سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون﴾، وقال الله تعالى ﴿فذرهم﴾ أي دعهم يا محمد ﴿حتى يلاقوا يومهم الذي فيه يصعقون﴾ وذلك يوم القيامة، ﴿يوم لا يغني عنهم كيدهم شيئاً﴾ أي لا ينفعهم كيدهم ولا مكرهم الـذي استعملوه في الدنيا، لا يجزي عنهم يوم القيامة شيئاً، ﴿ولا هم ينصرون﴾. ثم قال تعالى: ﴿وإن للذين ظلموا عذاباً دون ذلك﴾ أي قبل ذلك في الدار الدنيا كقوله تعالى: ﴿ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون﴾، ولهذا قال تعالى: ﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ أي نعذبهم في الدنيا ونبتليهم فيها بالمصائب، لعلهم يرجعون وينيبون، فلا يفهمون ما يراد بهم، بل إذا جلي عنهم مما كانوا عليه فيه، عادوا إلى أسوأ مما كانوا كما جاء في بعض الأحاديث: «إن المنافق إذا مرض وعوفي، مثله في ذلك كمثل البعير لا يدري فيما عقلوه ولا فيما أرسلوه». وقوله تعالى: ﴿واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا﴾ أي اصبر على أذاهم ولا تبالهم فإنك بمرأى منا وتحت كلاءتنا، والله يعصمك من النـاس، وقوله تعالى﴿وسبح بحمد ربك حين تقوم﴾ أي إلى الصلاة: سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك ولا إله غيرك[1]، وروى مسلم في صحيحه عن عمر أنه كان يقول: هذا ابتداء الصلاة، وقال أبو الجوزاء: ﴿وسبح بحمد ربك حين تقوم﴾ أي من نومك من فراشك، واختاره ابن جرير، ويتأيد هذا القول بما رواه الإمام أحمد، عن عبادة ابن الصامت عن رسول الله ﷺ قال: «من تعارّ من الليل فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله، ثم قال: رب اغفر لي - أو قال ثم دعا - أستجيب له، فإن عزم فتوضأ ثم صلى قبلت صلاته»[2]. وقال مجاهد: ﴿وسبح بحمد ربك حين تقوم﴾ قال من كل مجلس، وقال الثوري ﴿وسبح بحمد ربك حين تقوم﴾ قال إذا أراد الرجل أن يقوم من مجلسه قال سبحانك اللهم وبحمدك، وهذا القول كفارة المجالس، وعن أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه قال: «من جلس في مجلس فكثر فيه لغطه فقال قبل أن يقوم من مجلسه: سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك، إلا غفر الله له ما كان في مجلسه ذلك»[3]. وقوله تعالى: ﴿ومن الليل فسبحه﴾ أي أذكره وأعبده بالتلاوة والصلاة في الليل، كما قال تعالى: ﴿ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً﴾، وقوله تعالى: ﴿وإدبار النجوم﴾ قـد تقدم عن ابن عباس: أنهما الركعتان اللتان

---

(١) قاله الضحّاك وعبد الرحمن بن أسلم.

(٢) أخرجه أحمد ورواه البخاري وأهل السنن.

(٣) أخرجه الترمذي والنسـائي، وقال الترمذي: حسن صحيح.

قبل صلاة الفجر ، فإنهما مشروعتان عند إدبار النجوم أي عند جنوحها للغيبوبة، لحديث : « لا تدعوهما وإن طردتكم الخيل ، يعني ركعتي الفجر »[1] . وقد ثبت في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها قالت: لم يكن رسول الله ﷺ على شيء من النوافل أشد تعاهداً منه على ركعتي الفجر ، وفي لفظ لمسلم : « ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها » .

[آخر تفسير سورة الطور ، ولله الحمد والمنة]

* * *

(١) رواه أبو داود عن أبي هريرة مرفوعاً .

تفسير سورة الطور

وهى مكية.

قال مالك، عن الزهرى، عن محمد بن جُبَير بن مطعم، عن أبيه: سمعت النبى ﷺ يقرأ فى المغرب بالطور، فما سمعت أحدا أحسن صوتا ـ أو: قراءة ـ منه.

أخرجاه من طريق مالك [(١)] وقال البخارى:

حدثنا عبد الله بن يوسف، أخبرنا مالك، عن محمد بن عبد الرحمن بن نَوْفَل، عن عُرْوَةَ، عن زينب بنت أبى سلمة، عن أم سلمة قالت: شكوت إلى رسول الله ﷺ أنى أشتكى، فقال: «طُوفى من وراء الناس وأنت راكبة» فطفت، ورسول الله ﷺ يصلى إلى جنب البيت يقرأ بالطور وكتاب مسطور [(٢)].

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالطُّورِ (١) وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ (٢) فِي رَقٍّ مَّنْشُورٍ (٣) وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ (٤) وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ (٥) وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ (٦) إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ (٧) مَا لَهُ مِن دَافِعٍ (٨) يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا (٩) وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا (١٠) فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (١١) الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ (١٢) يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا (١٣) هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ (١٤) أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ (١٥) اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٦)﴾ .

يقسم تعالى بمخلوقاته الدالة على قدرته العظيمة: أن عذابه واقع بأعدائه، وأنه لا دافع له عنهم. فالطور هو: الجبل الذى يكون فيه أشجار، مثل الذى كلم الله عليه موسى، وأرسل منه عيسى، وما لم يكن فيه شجر لا يسمى طورا، إنما يقال له: جبل.

﴿وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ﴾ قيل: هو اللوح المحفوظ. وقيل: الكتب المنزلة المكتوبة التى تقرأ على الناس جهارا؛ ولهذا قال: ﴿فِي رَقٍّ مَّنْشُورٍ. وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ﴾. ثبت فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال فى حديث الإسراء ـ بعد مجاوزته إلى السماء السابعة ـ: «ثم رفع بى [(٣)] إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله فى كل يوم سبعون ألفا لا يعودون إليه آخر ما عليهم» يعنى: يتعبدون فيه ويطوفون، كما

(١) صحيح البخارى برقم (٤٨٥٤) وصحيح مسلم برقم (٤٦٣).
(٢) صحيح البخارى برقم (٤٨٥٣) وصحيح مسلم (١٢٧٦).
(٣) فى م: «لى».

يطوف أهل الأرض بكعبتهم كذلك ذاك البيت، هو كعبة أهل السماء السابعة؛ ولهذا وجد إبراهيم الخليل، عليه السلام، مسندا ظهره إلى البيت المعمور؛ لأنه بانى الكعبة الأرضية، والجزاء من جنس العمل، وهو بحيال الكعبة، وفى كل سماء بيت يتعبد فيه أهلها، ويصلون إليه، والذى فى السماء الدنيا يقال له: بيت العزة. والله أعلم.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا هشام بن عمار، حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا روح بن جناح، عن الزهرى، عن سعيد بن المسيب، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ قال: «فى السماء السابعة بيت يقال له: «المعمور» بحيال الكعبة، وفى السماء الرابعة نهر يقال له: «الحيوان» يدخله جبريل كل يوم، فينغمس فيه انغماسة، ثم يخرج فينتفض انتفاضة يخر عنه سبعون ألف قطرة، يخلق الله من كل قطرة ملكا يؤمرون أن يأتوا البيت المعمور، فيصلوا [١] فيه فيفعلون، ثم يخرجون فلا يعودون إليه أبدا، ويولى عليهم أحدهم، يؤمر أن يقف بهم من السماء موقفا يسبحون الله فيه إلى أن تقوم الساعة».

هذا حديث غريب جدا، تفرد به روح بن جناح هذا، وهو القرشى الأموى مولاهم أبو سعد الدمشقى، وقد أنكر هذا الحديث عليه جماعة من الحفاظ منهم: الجوزجانى، والعقيلى، والحاكم أبوعبد الله النيسابورى، وغيرهم.

قال الحاكم: لا أصل له من حديث أبى هريرة، ولا سعيد، ولا الزهرى[٢].

وقال ابن جرير: حدثنا هَنَّاد بن السَّرِىّ، حدثنا أبو الأحوص، عن سماك بن حرب، عن خالد ابن [٣] عرعرة؛ أن رجلا قال لعلى: ما البيت المعمور؟ قال: بيت فى السماء يقال له: «الضُّراح»، وهو بحيال الكعبة من فوقها، حرمته فى السماء كحرمة البيت فى الأرض، يصلى فيه كل يوم سبعون ألفا من الملائكة، لا[٤] يعودون فيه أبدا[٥].

وكذا رواه شعبة وسفيان الثورى، عن سِمَاك وعندهما أن ابن الكواء هو السائل عن ذلك. ثم رواه ابن جرير عن أبى كُرَيب، عن طَلْق بن غنام، عن زائدة، عن عاصم، عن على بن ربيعة قال: سأل ابن الكواء عليا عن البيت المعمور، قال: مسجد فى السماء يقال له: «الضُّراح»، يدخله كل يوم سبعون ألفا من الملائكة، ثم لا يعودون فيه أبدا. ورواه من حديث أبى الطُّفَيْل، عن على بمثله.

وقال العَوْفى، عن ابن عباس: هو بيت حذاء العرش، تعمره الملائكة، يصلى فيه كل يوم سبعون

(١) فى م: «فيصلون».

(٢) ورواه ابن عدى فى الكامل (٣/ ١٤٤) من طريق هشام بن عمار به، وقال: «سمعت ابن حماد يقول: قال السعدى: روح بن جناح ذكر عن الزهرى حديثاً معضلا فى البيت المعمور» ثم ساقه بإسناده وتعقبه بقوله: «ولا يعرف هذا الحديث إلا بروح بن جناح عن الزهرى».

(٣) فى م: «عن». (٤) فى م: «ثم لا».

(٥) تفسير الطبرى (٢٧/ ١٠).

ألفا من الملائكة ثم لا يعودون إليه. وكذا قال عكرمة، ومجاهد، والربيع بن أنس، والسدى، وغير واحد من السلف.

وقال قتادة: ذكر لنا أن رسول الله ﷺ قال يوما لأصحابه: «هل تدرون ما البيت المعمور؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «فإنه مسجد فى السماء بحيال الكعبة، لو خر لخر عليها، يصلى فيه كل يوم سبعون ألف ملك، إذا خرجوا منه لم يعودوا آخر ما عليهم».

وزعم الضحاك أنه يعمره طائفة من الملائكة يقال لهم: الحِن[١]، من قبيلة إبليس[٢]، فالله أعلم.

وقوله: ﴿وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ﴾: قال سفيان الثورى، وشعبة، وأبو الأحوص، عن سِمَاك، عن خالد بن عَرْعَرَة، عن على: ﴿وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ﴾ يعنى: السماء، قال سفيان: ثم تلا: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٢]. وكذا قال مجاهد، وقتادة، والسدى، وابن جُرَيْج، وابن زيد، واختاره ابن جرير.

وقال الربيع بن أنس: هو العرش، يعنى: أنه سقف لجميع المخلوقات، وله اتجاه، وهو يُراد مع غيره كما قاله الجمهور.

وقوله: ﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾: قال الربيع بن أنس: هو الماء الذى تحت العرش، الذى ينزل [الله][٣] منه المطر الذى يحيى به الأجساد فى قبورها يوم معادها. وقال الجمهور: هو هذا البحر. واختلف فى معنى قوله: ﴿الْمَسْجُورِ﴾، فقال بعضهم: المراد أنه يوقد يوم القيامة نارا كقوله: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ [التكوير: ٦] أى: أضرمت فتصير[٤] نارا تتأجج، محيطة بأهل الموقف. رواه سعيد ابن المسيب، عن على بن أبى طالب، ورُوى عن ابن عباس. وبه يقول سعيد بن جبير، ومجاهد، وعبد الله بن عبيد بن عُمير[٥]، وغيرهم.

وقال العلاء بن بدر: إنما سمى البحر المسجور لأنه لا يُشرب منه ماء، ولا يسقى به زرع، وكذلك البحار يوم القيامة. كذا رواه عنه ابن أبى حاتم.

وعن سعيد بن جُبير: ﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾ يعنى: المرسل. وقال قتادة: ﴿[وَالْبَحْرِ][٦] الْمَسْجُورِ﴾: المملوء. واختاره ابن جرير ووجهه بأنه ليس موقدا اليوم فهو مملوء.

وقيل: المراد به: الفارغ، قال الأصمعى، عن أبى عمرو بن العلاء، عن ذى الرمة، عن ابن عباس فى قوله: ﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾ قال: الفارغ؛ خرجت أمة تستسقى فرجعت فقالت: «إن الحوض مسجور»، تعنى: فارغا. رواه ابن مردويه فى مسانيد الشعراء.

---

(١) فى م، أ: «الجن».
(٢) تفسير الطبرى (٢٧/ ١١).
(٣) زيادة من م، أ. (٤) فى م: «فصيرت». (٥) فى م: «وعبيد الله بن عمير».
(٦) زيادة من م.

وقيل: المراد بالمسجور: الممنوع المكفوف عن الأرض؛ لئلا [١] يغمرها فيغرق أهلها. قاله [٢] على ابن أبى طلحة، عن ابن عباس، وبه يقول السدى وغيره، وعليه يدل الحديث الذى رواه الإمام أحمد، رحمه الله، فى مسنده، فإنه قال:

حدثنا يزيد، حدثنا [٣] العوام، حدثنى شيخ كان مرابطا بالساحل قال: لقيت أبا صالح مولى عمر بن الخطاب فقال: حدثنا عمر بن الخطاب، عن رسول الله ﷺ قال: «ليس من ليلة إلا والبحر يشرف فيها ثلاث مرات، يستأذن الله أن ينفضخ [٤] عليهم، فيكفه الله عز وجل» [٥].

وقال الحافظ أبو بكر الإسماعيلى: حدثنا الحسن بن سفيان، عن إسحاق بن راهويه، عن يزيد ـ وهو ابن هارون ـ عن العوام بن حوشب، حدثنى شيخ مرابط قال: خرجت ليلة لحرسى [٦] لم يخرج أحد من الحرس غيرى، فأتيت الميناء فصعدت، فجعل يخيل إلىَّ أن البحر يشرف يحاذى رؤوس الجبال، فعل ذلك مرارا وأنا مستيقظ، فلقيت أبا صالح فقال: حدثنا عمر بن الخطاب: أن رسول الله ﷺ قال: «ما من ليلة إلا والبحر يشرف ثلاث مرات، يستأذن الله أن ينفضخ عليهم، فيكفه الله عز وجل». فيه رجل مبهم لم يسم [٧].

وقوله: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾: هذا هو المقسم عليه، أى: الواقع [٨] بالكافرين، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿مَا لَهُ مِن دَافِعٍ﴾ أى: ليس له دافع يدفعه عنهم إذا أراد الله بهم ذلك.

قال الحافظ أبو بكر بن أبى الدنيا: حدثنا أبى، حدثنا موسى بن داود، عن صالح المرى، عن جعفر بن [٩] زيد العبدى قال: خرج عمر يَعسّ المدينة ذات ليلة، فمر بدار رجل من المسلمين، فوافقه قائما يصلى، فوقف يستمع قراءته فقرأ: ﴿وَالطُّورِ﴾ حتى بلغ: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ. مَا لَهُ مِن دَافِعٍ﴾ قال: قسم ـ ورب الكعبة ـ حق. فنزل عن حماره واستند إلى حائط، فمكث مليا، ثم رجع إلى منزله، فمكث شهرا يعوده الناس لا يدرون ما مرضه، رضى الله عنه [١٠].

وقال الإمام أبو عبيد فى «فضائل القرآن»: حدثنا محمد بن صالح، حدثنا هشام بن حسان، عن الحسن: أن عمر قرأ: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ. [مَا لَهُ مِن دَافِعٍ] [١١]﴾، فربا لها ربوة، عيد منها عشرين يوما [١٢].

وقوله: ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا﴾: قال ابن عباس وقتادة: تتحرك تحريكا. وعن ابن عباس: هو تشققها، وقال مجاهد: تدور دورا. وقال الضحاك: استدارتها وتحريكها لأمر الله، وموج بعضها فى

---

(١) فى م: «لا». (٢) فى م: «وقال». (٣) فى م: «بن». (٤) فى م: «ينفضح».

(٥) المسند (١/ ٤٣) ورواه من طريق ابن الجوزى فى العلل المتناهية (١/ ٥٢) وقال: «العوام ضعيف، والشيخ مجهول».

(٦) فى م: «لمحرثى».

(٧) وذكره المؤلف فى مسند عمر (٢/ ٦٠٨) من رواية الإسماعيلى، وقال: «فيه رجل مبهم لم يسم، والله أعلم بحاله».

(٨) فى م: «واقع». (٩) فى أ: «عن».

(١٠) وذكره المؤلف فى مسند عمر (٢/ ٦٠٧) من رواية ابن أبى الدنيا وفى إسناده صالح المرى، ووقع فى مسند عمر «المدنى» فإن كان المرى فهو ضعيف. (١١) زيادة من م.

(١٢) فضائل القرآن لأبى عبيد (ص٦٤).

بعض. وهذا اختيار ابن جرير أنه التحرك[١] فى استدارة. قال: وأنشد أبو عبيدة معمر بن المثنى بيت الأعشى:

كأن مشيَتَها من بيتِ جَارتها مَورُ السحابة، لا ريْثٌ ولا عجل[٢]

﴿وتَسيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا﴾ أى: تذهب فتصير هباء منبثا، وتنسف نسفا، ﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ أى: ويل لهم ذلك اليوم من عذاب الله ونكاله بهم، وعقابة لهم، ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ﴾ أى: هم فى الدنيا يخوضون فى الباطل، ويتخذون دينهم هزوا ولعبا، ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ﴾ أى: يدفعون ويساقون، ﴿إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾: وقال مجاهد، والشعبى، ومحمد بن كعب، والضحاك، والسدى، والثورى: يدفعون فيها دفعا ﴿هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ أى: تقول لهم الزبانية ذلك تقريعا وتوبيخا، ﴿أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنتُمْ لا تُبْصِرُونَ. اصْلَوْهَا﴾ أى: ادخلوها دخول من تغمره من جميع جهاته ﴿فَاصْبِرُوا أَوْ لا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ﴾ أى: سواء صبرتم على عذابها ونكالها أم لم تصبروا، لا محيد لكم عنها ولا خلاص لكم منها[٣]، ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أى: ولا يظلم الله أحدا، بل يجازى كلا بعمله.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ (١٧) فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (١٨) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٩) مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ (٢٠)﴾ .

يخبر تعالى عن حال السعداء فقال: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ﴾، وذلك بضد ما أولئك فيه من العذاب والنكال، ﴿فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾ أى: يتفكهون بما آتاهم الله من النعيم، من أصناف الملاذ، من مآكل ومشارب وملابس ومساكن ومراكب وغير ذلك، ﴿وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ أى: وقد نجاهم من عذاب النار، وتلك نعمة مستقلة بذاتها على حدتها مع ما أضيف إليها من دخول الجنة، التى فيها من السرور ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

وقوله: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، كقوله: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤]. أى: هذا بذاك، تفضلا منه وإحسانا.

وقوله: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ﴾ قال الثورى، عن حصين، عن مجاهد، عن ابن عباس: السرر فى الحجال.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا أبو اليمان، حدثنا صفوان بن عمرو؛ أنه سمع الهيثم بن

(١) فى م،أ: «المتحرك».
(٢) البيت فى تفسير الطبرى (٢٧/ ١٣).
(٣) فى أ: «فيها».

مالك الطائى يقول: إن رسول الله ﷺ قال: «إن الرجل ليتكئ المتكأ مقدار أربعين سنة ما يتحول عنه ولا يمله، يأتيه ما اشتهت نفسه ولذت عينه»(١).

وحدثنا أبى، حدثنا هُدْبَة بن خالد، عن سليمان بن المغيرة، عن ثابت قال: بلغنا أن الرجل ليتكئ فى الجنة سبعين سنة، عنده من أزواجه وخدمه وما أعطاه الله من الكرامة والنعيم، فإذا حانت منه نظرة فإذا أزواج له لم يكن رآهن قبل ذلك، فيقلن: قد آن لك أن تجعل لنا منك نصيبا.

ومعنى ﴿ مَّصْفُوفَةٍ ﴾ أى: وجوه بعضهم إلى بعض، كقوله: ﴿ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴾ [الصافات: ٤٤]. ﴿ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴾ أى: وجعلناهم قرينات صالحات، وزوجات حسانا من الحور العين.

وقال مجاهد: ﴿ وَزَوَّجْنَاهُم ﴾: أنكحناهم بحور عين، وقد تقدم وصفهن فى غير موضع بما أغنى عن إعادته.

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ (٢١) وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ (٢٢) يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ (٢٣) وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ (٢٤) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٥) قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ (٢٦) فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ (٢٧) إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ (٢٨) ﴾.

يخبر تعالى عن فضله وكرمه، وامتنانه ولطفه بخلقه وإحسانه: أن المؤمنين إذا اتبعتهم ذرياتهم فى الإيمان يُلحقهم بآبائهم فى المنزلة وإن لم يبلغوا عملهم، لتقر أعين الآباء بالأبناء عندهم فى منازلهم، فيجمع بينهم على أحسن الوجوه، بأن يرفع الناقص العمل بكامل العمل، ولا ينقص ذلك من عمله ومنزلته، للتساوى بينه وبين ذاك؛ ولهذا قال: ﴿ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ ﴾.

قال الثورى، عن عمرو بن مُرَّة، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: إن الله ليرفع ذرية المؤمن فى درجته، وإن كانوا دونه فى العمل، لتقر بهم عينه ثم قرأ: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ ﴾.

رواه ابن جرير وابن أبى حاتم من حديث سفيان الثورى، به. وكذا رواه ابن جرير من حديث شعبة عن عمرو بن مُرَّة به(٢). ورواه البزار، عن سهل بن بحر(٣)، عن الحسن بن حماد الوراق، عن قيس بن الربيع، عن عمرو بن مُرَّة، عن سعيد، عن ابن عباس مرفوعا، فذكره، ثم قال: وقد رواه

---

(١) وإسناده منقطع .الهيثم بن مالك لم يدرك النبى ﷺ.
(٢) تفسير الطبرى (٢٧/ ١٥).
(٣) فى أ: «يحيى».

الثورى، عن عمرو بن مرة، عن سعيد، عن ابن عباس موقوفا[١].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا العباس بن الوليد بن مزيد[٢] البيروتى، أخبرنى محمد بن شعيب[٣] أخبرنى شيبان، أخبرنى ليث، عن حبيب بن أبى ثابت الأسدى، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس فى قول الله، عز وجل: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَأَتْبَعْنَاهُمْ ذُرِّيَّاتِهِمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّاتِهِم﴾ قال: هم ذرية المؤمن، يموتون على الإيمان: فإن كانت منازل آبائهم أرفع من منازلهم ألحقوا بآبائهم، ولم ينقصوا من أعمالهم التى عملوا شيئا.

وقال الحافظ الطبرانى: حدثنا الحسين بن إسحاق التُّسْتَرِى، حدثنا محمد بن عبد الرحمن بن غَزْوان، حدثنا شريك، عن سالم الأفطس، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس ـ أظنه عن النبى ﷺ ـ قال: «إذا دخل الرجل الجنة سأل عن أبويه وزوجته وولده، فيقال: إنهم لم يبلغوا درجتك. فيقول: يا رب، قد عملت لى ولهم. فيؤمر بإلحاقهم به، وقرأ ابن عباس: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ﴾ الآية[٤].

وقال العَوْفى، عن ابن عباس فى هذه الآية: يقول: والذين أدرك ذريتهم الإيمان فعملوا بطاعتى، أحلقتهم بإيمانهم إلى الجنة، وأولادهم الصغار تلحق بهم.

وهذا راجع إلى التفسير الأول، فإن ذاك مفسر أصرح من هذا. وهكذا يقول الشعبى، وسعيد بن جبير، وإبراهيم، وقتادة، وأبو صالح، والربيع بن أنس، والضحاك، وابن زيد. وهو اختيار ابن جرير. وقد قال عبد الله بن الإمام أحمد:

حدثنا عثمان بن أبى شيبة، حدثنا حمد بن فُضَيْل، عن محمد بن عثمان، عن زاذان، عن على قال: سألتْ خديجة النبى ﷺ عن ولدين ماتا لها فى الجاهلية، فقال رسول الله ﷺ: «هما فى النار». فلما رأى الكراهة فى وجهها قال: «لو رأيت مكانهما لأبغضتهما». قالت: يا رسول الله، فولدى منك. قال: «فى الجنة». قال: ثم قال رسول الله ﷺ: «إن المؤمنين وأولادهم فى الجنة، وإن المشركين وأولادهم في النار». ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَأَتْبَعْنَاهُمْ ذُرِّيَّاتِهِمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّاتِهِم﴾[الآية][٥] [٦].

هذا فضله تعالى على الأبناء ببركة عمل الآباء، وأما فضله على الآباء ببركة دعاء الأبناء، فقد

---

(١) مسند البزار برقم (٢٢٦٠) «كشف الأستار» وقال الهيثمى فى المجمع (٧/ ١١٤): «فيه قيس بن الربيع وثقه شعبة والثورى، وفيه ضعف».

(٢) فى م، أ: «يزيد». (٣) فى م: «شعبة».

(٤) رواه الطبرانى فى المعجم الكبير (١١/ ٤٤٠) حدثنا محمد بن عبد الله الحضرمى حدثنا محمد بن عبد الرحمن بن غزوان به.
ورواه فى المعجم الصغير برقم (٦٤٠) حدثنا عبد الله بن يزيد الدقيقى حدثنا محمد بن عبد الرحمن بن غزوان به.
ولم أجد رواية الحسين بن إبراهيم التسترى.

(٥) زيادة من م.

(٦) زوائد عبد الله على المسند (١/ ١٣٤) وقال الهيثمى فى المجمع (٧/ ٢١٧): «فيه محمد بن عثمان ولم أعرفه وبقية رجاله رجال الصحيح».

قال الإمام أحمد:

حدثنا يزيد، حدثنا حماد بن سلمة، عن عاصم بن أبى النَّجُود، عن أبى صالح، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليرفع الدرجة للعبد الصالح فى الجنة فيقول: يا رب، أنى لى هذه؟ فيقول: باستغفار ولدك لك»(١).

إسناده(٢) صحيح، ولم يخرجوه من هذا الوجه، ولكن له شاهد فى صحيح مسلم، عن أبى هريرة، عن رسول الله ﷺ: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»(٣).

وقوله: ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ لما أخبر عن مقام الفضل، وهو رفع درجة الذرية إلى منزلة الآباء من غير عمل يقتضى ذلك، أخبر عن مقام العدل، وهو أنه لا يؤاخذ أحدا بذنب أحد، بل ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ أى: مرتهن بعمله، لا يحمل عليه ذنب غيره من الناس، سواء كان أبا أو ابنا، كما قال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ. إِلاَّ أَصْحَابَ الْيَمِينِ. فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ . عَنِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [المدثر: ٣٨ ـ ٤١].

وقوله: ﴿وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ أى: وألحقناهم بفواكه ولحوم من أنواع شتى، مما يستطاب ويشتهى.

وقوله: ﴿يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا﴾ أى: يتعاطون فيها كأسا، أى: من الخمر. قاله الضحاك.

﴿لاَّ لَغْوٌ فِيهَا وَلا تَأْثِيمٌ﴾ أى: لا يتكلمون عنها(٤) بكلام لاغ، أى: هَذَيَان، ولا إثم، أى: فُحْش، كما تتكلم به الشربة من أهل الدنيا.

وقال ابن عباس: اللغو: الباطل. والتأثيم: الكذب.

وقال مجاهد: لا يستبون ولا يؤثمون.

وقال قتادة: كان ذلك فى الدنيا مع الشيطان.

فنزه الله خمر الآخرة عن قاذورات خمر الدنيا وأذاها، فنفى عنها ـ كما تقدم ـ صداع الرأس، ووجع البطن، وإزالة العقل بالكلية، وأخبر أنها لا تحملهم على الكلام السيئ الفارغ عن الفائدة المتضمن هَذَيَانا وفُحشا، وأخبر بحسن منظرها، وطيب طعمها ومخبرها فقال: ﴿بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ. لا فِيهَا غَوْلٌ وَلا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ [الصافات: ٤٦، ٤٧]، وقال: ﴿لا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلا يُنْزِفُونَ﴾ [الواقعة: ١٩]، وقال هاهنا: ﴿يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لاَّ لَغْوٌ فِيهَا وَلا تَأْثِيمٌ﴾.

---

(١) المسند (٢/٥٠٩).

(٢) فى م: «إسناد».

(٣) صحيح مسلم برقم (١٦٣١).

(٤) فى م: «فيها».

وقوله: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾: إخبار عن خدمهم وحشمهم فى الجنة كأنهم اللؤلؤ الرطب، المكنون فى حسنهم وبهائهم[١] ونظافتهم وحسن ملابسهم، كما قال: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ . بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ [الواقعة: ١٧، ١٨].

وقوله: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ أى: أقبلوا يتحادثون ويتساءلون عن أعمالهم وأحوالهم فى الدنيا، وهذا كما يتحادث أهل الشراب على شرابهم إذا أخذ فيهم الشراب بما كان من أمرهم، ﴿قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ أى: قد كنا فى الدار الدنيا ونحن بين أهلنا خائفين من ربنا مشفقين من عذابه وعقابه، ﴿فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾ أى: فتصدق علينا وأجارنا مما نخاف، ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ﴾ أى: نتضرع إليه، فاستجاب [الله] [٢]لنا وأعطانا سؤلنا، ﴿إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾.

وقد ورد فى هذا المقام حديث، رواه الحافظ أبو بكر البزار فى مسنده فقال: حدثنا سلمة بن شبيب، حدثنا سعيد بن دينار، حدثنا الربيع بن صبيح، عن الحسن، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا دخل أهل الجنة الجنة اشتاقوا إلى الإخوان، فيجىء سرير هذا حتى يحاذى سرير هذا، فيتحدثان، فيتكئ هذا ويتكئ هذا، فيتحدثان بما كان فى الدنيا، فيقول أحدهما لصاحبه: يا فلان، تدرى أى يوم غفر الله لنا؟ يوم كنا فى موضع كذا وكذا، فدعونا الله ـ عز وجل ـ فغفر لنا».

ثم قال البزار: لا نعرفه يُروَى إلا بهذا الإسناد[٣].

قلت: وسعيد بن دينار الدمشقى قال أبو حاتم: هو مجهول، وشيخه الربيع بن صبيح قد تكلم فيه غير واحد من جهة حفظه، وهو رجل صالح ثقة فى نفسه.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا عمرو بن عبد الله الأودىّ، حدثنا وكيع، عن الأعمش، عن أبى الضحَى، عن مسروق، عن عائشة؛ أنها قرأت هذه الآية: ﴿فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ . إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾، فقالت: اللهم مُنَّ علينا وقنا عذاب السموم، إنك أنت البر الرحيم. قيل للأعمش: فى الصلاة؟ قال: نعم[٤].

﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُم بِهَٰذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾.

---

(١) فى م: «وبياضهم». (٢) زيادة من أ.

(٣) مسند البزار برقم (٣٥٥٣) «كشف الأستار» وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٤٢١): «رجاله رجال الصحيح غير سعيد بن دينار، والربيع بن صبيح وهما ضعيفان وقد وثقا».

(٤) ورواه عبد الرزاق وابن أبى شيبة وابن المنذر والبيهقى فى شعيب الإيمان كما فى الدر المنثور للسيوطى (٧/ ٦٣٤).

يقول[١] تعالى آمراً رسوله، صلوات الله وسلامه عليه، بأن يبلغ رسالته إلى عباده، وأن يذكرهم بما أنزل الله عليه. ثم نفى عنه ما يرميه به أهل البهتان والفجور فقال: ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ أى: لست بحمد الله بكاهن كما تقوله[٢] الجهلة من كفار قريش. والكاهن: الذى يأتيه الرَّئِى من الجان بالكلمة يتلقاها من خبر السماء، ﴿وَلَا مَجْنُونٍ﴾: وهو الذى يتخبطه الشيطان من المس.

ثم قال تعالى منكرا عليهم فى قولهم فى الرسول، صلوات الله وسلامه عليه: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ﴾ أى: قوارع الدهر. والمنون: الموت: يقولون: ننظره ونصبر عليه حتى يأتيه الموت فنستريح منه ومن شأنه، قال الله تعالى: ﴿قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُتَرَبِّصِينَ﴾ أى: انتظروا فإنى منتظر معكم، وستعلمون لمن تكون العاقبة والنّصرة فى الدنيا والآخرة.

قال محمد بن إسحاق، عن عبد الله بن أبى نَجيح، عن مجاهد، عن ابن عباس: إن قريشا لما اجتمعوا فى دار الندوة فى أمر النبى ﷺ قال قائل منهم: احتبسوه[٣] فى وثاق، ثم تربصوا به ريب المنون حتى يهلك، كما هلك من هلك قبله من الشعراء: زهير والنابغة، إنما هو كأحدهم. فأنزل الله فى ذلك من قولهم: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ﴾[٤].

ثم قال تعالى: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُم بِهَٰذَا﴾ أى: عقولهم تأمرهم بهذا الذى يقولونه فيك من الأقوال الباطلة التى يعلمون فى أنفسهم أنها كذب وزور؟ ﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ أى: ولكن هم قوم ضلال معاندون، فهذا هو الذى يحملهم على ما قالوه فيك.

وقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ﴾ أى: اختلقه وافتراه من عند نفسه، يعنون القرآن: قال الله: ﴿بَل لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ أى: كفرهم هو الذى يحملهم[٥] على هذه المقالة. ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾ أى: إن كانوا صادقين فى قولهم: «تَقوّله وافتراه» فليأتوا بمثل ما جاء به محمد [ﷺ][٦] من هذا القرآن، فإنهم لو اجتمعوا هم وجميع أهل الأرض من الجن والإنس، ما جاؤوا بمثله، ولا بعشر سور [من][٧] مثله، ولا بسورة من مثله.

﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ

(١) فى م: «قال». (٢) فى م: «يقوله». (٣) فى أ: «احبسوه».
(٤) رواه الطبرى فى تفسيره (١٩/٢٧) من طريق ابن إسحاق به.
(٥) فى م: «حملهم». (٦) زيادة من أ. (٧) زيادة من م.

الْمَكِيدُونَ (٤٢) أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٤٣)﴾ .

هذا المقام فى إثبات الربوبية وتوحيد الألوهية، فقال تعالى: **﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾** أى: أوجدوا من غير موجد؟ أم هم أوجدوا أنفسهم؟ أى: لا هذا ولا هذا، بل الله هو الذى خلقهم وأنشأهم بعد أن لم يكونوا شيئا مذكورا.

قال البخارى: حدثنا الحُمَيدىّ، حدثنا سفيان قال: حدثونى عن الزهرى، عن محمد بن جبير ابن مطعم، عن أبيه قال: سمعت النبى ﷺ يقرأ فى المغرب بالطور، فلما بلغ هذه الآية: **﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ . أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بَل لاَّ يُوقِنُونَ . أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُسَيْطِرُونَ﴾** كاد قلبى أن يطير(١).

وهذا الحديث مخرج فى الصحيحين من طرق، عن الزهرى، به(٢). وجبير بن مطعم كان قد قدم على النبى ﷺ بعد وقعة بدر فى فداء الأسارى، وكان إذ ذاك مشركا، وكان سماعه هذه الآية من هذه السورة من جملة ما حمله على الدخول فى الإسلام بعد ذلك.

ثم قال تعالى: **﴿أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بَل لاَّ يُوقِنُونَ﴾** أى: أهم خلقوا السموات والأرض؟ وهذا إنكار عليهم فى شركهم بالله، وهم يعلمون أنه الخالق وحده، لا شريك له. ولكن عدم إيقانهم هو الذى يحملهم على ذلك، **﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُسَيْطِرُونَ﴾** أى: أهم يتصرفون فى الملك وبيدهم مفاتيح الخزائن، **﴿أَمْ هُمُ الْمُسَيْطِرُونَ﴾** أى: المحاسبون للخلائق، ليس الأمر كذلك، بل الله، عز وجل، هو المالك المتصرف الفعال لما يريد.

وقوله: **﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ﴾** أى: مرقاة إلى الملأ الأعلى، **﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾** أى: فليأت الذى يستمع لهم بحجة ظاهرة على صحة ما هم فيه من الفعال والمقال، أى: وليس لهم سبيل إلى ذلك، فليسوا على شىء، ولا لهم دليل.

ثم قال منكرا عليهم فيما نسبوه إليه من البنات، وجعلهم الملائكة إناثا، واختيارهم لأنفسهم الذكور على الإناث، بحيث إذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم. هذا وقد جعلوا الملائكة بنات الله، وعبدوهم مع الله، فقال: **﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ﴾**، وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد، **﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا﴾** أى: أجرة على إبلاغك إياهم رسالة الله؟ أى: لست تسألهم على ذلك شيئا، **﴿فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾** أى: فهم(٣) من أدنى شىء يتبرمون منه، ويثقلهم ويشق عليهم، **﴿أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾** أى: ليس الأمر كذلك، فإنه لا يعلم أحد من أهل السموات والأرض الغيب إلا الله، **﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾** يقول تعالى: أم يريد هؤلاء بقولهم

(١) صحيح البخارى برقم (٤٨٥٤).

(٢) صحيح البخارى برقم (٧٦٥)، (٤٠٢٣) وصحيح مسلم برقم (٤٦٣).

(٣) فى م، أ: «فإنهم».

هذا فى الرسول وفى الدين غرور الناس وكيد الرسول وأصحابه، فكيدهم إنما يرجع وباله على أنفسهم، فالذين كفروا هم المكيدون، ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾. وهذا إنكار شديد على المشركين في عبادتهم الأصنام والأنداد مع الله. ثم نزه نفسه الكريمة عما يقولون ويفترون ويشركون، فقال: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

﴿وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ (٤٤) فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ (٤٥) يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (٤٦) وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٤٧) وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ (٤٨) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ (٤٩)﴾.

يقول تعالى مخبرا عن المشركين بالعناد والمكابرة للمحسوس: ﴿وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا﴾ أى: عليهم يعذبون به، لما صدقوا ولما [(١)] أيقنوا، بل يقولون: هذا ﴿سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ أى: متراكم. وهذه كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ . لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ [الحجر: ١٤، ١٥]. قال الله تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ﴾ أى: دعهم ـ يا محمد ـ ﴿حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾، وذلك يوم القيامة، ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ أى: لا ينفعهم كيدهم ومكرهم الذى استعملوه فى الدنيا، لا يُجدى عنهم يوم القيامة شيئا، ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾.

ثم قال: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أى: قبل ذلك فى الدار الدنيا، كقوله: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة: ٢١]، ولهذا قال: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أى: نعذبهم فى الدنيا، ونبتليهم فيها بالمصائب، لعلهم يرجعون وينيبون[(٢)]، فلا يفهمون ما يراد بهم، بل إذا جلى عنهم مما كانوا فيه، عادوا إلى أسوأ[(٣)] ما كانوا عليه، كما جاء فى بعض الأحاديث: «إن المنافق إذا مرض وعوفى مثله فى ذلك كمثل البعير، لا يدرى فيما عقلوه ولا فيما أرسلوه»[(٤)]. وفى الأثر الإلهى: كم أعصيك ولا تعاقبنى؟ قال الله: يا عبدى، كم أعافيك[(٥)] وأنت لا تدرى؟

وقوله: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ أى: اصبر على أذاهم ولا تبالهم، فإنك بمرأى منا وتحت كلاءتنا، والله يعصمك من الناس.

وقوله: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾: قال الضحاك: أى إلى الصلاة: سبحانك اللهم

---

(١) فى م: «ولا». (٢) فى أ: «ينسون». (٣) فى أ: «أشر».

(٤) رواه أبو داود فى السنن برقم (٣٠٨٩) من حديث عامر الرام رضى الله عنه.

(٥) فى م، أ: «أعاقبك».

وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جدك، ولا إله غيرك.

وقد روى مثله عن الربيع بن أنس، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغيرهما.

وروى مسلم فى صحيحه، عن عمر أنه كان يقول هذا فى ابتداء الصلاة[(١)]. ورواه أحمد وأهل السنن، عن أبى سعيد وغيره، عن النبى ﷺ أنه كان يقول ذلك[(٢)].

وقال أبو الجوزاء: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ أى: من نومك من فراشك. واختاره ابن جرير: ويتأيد هذا القول بما رواه الإمام أحمد:

حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا الأوزاعى، حدثنى عُمَير[(٣)] بن هانئ، حدثنى جنادة بن أبى أمية، حدثنا عبادة بن الصامت عن رسول الله ﷺ قال: «من تعار من الليل فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير. سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله، ثم قال: رب اغفر لى ـ أو قال: ثم دعا ـ استجيب له، فإن عزم فتوضأ، ثم صلى تقبلت صلاته».

وأخرجه البخارى فى صحيحه، وأهل السنن، من حديث الوليد بن مسلم، به[(٤)].

وقال ابن أبى نَجيح، عن مجاهد: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ قال: من كل مجلس.

وقال الثورى، عن أبى إسحاق، عن أبى الأحوص: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ قال: إذا أراد الرجل أن يقوم من مجلسه قال: سبحانك اللهم وبحمدك.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا أبو النضر إسحاق بن إبراهيم الدمشقى، حدثنا محمد ابن شعيب، أخبرنى طلحة بن عمرو الحضرمى، عن عطاء بن أبى رباح؛ أنه حدثه عن قول الله: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾، يقول: حين تقوم من كل مجلس، إن كنت أحسنت ازددت خيرا، وإن كان غير ذلك كان هذا كفارة له.

وقد قال عبد الرزاق فى جامعه: أخبرنا مَعْمَر، عن عبد الكريم الجَزَرى، عن أبى عثمان الفقير؛ أن جبريل علم النبى ﷺ إذا قام من مجلسه أن يقول: سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك. قال مَعْمَر: وسمعت غيره يقول: هذا القول كفارة المجالس[(٥)].

وهذا مرسل، وقد وردت أحاديث مسندة من طرق ـ يقوى بعضها بعضا ـ بذلك، فمن ذلك حديث ابن جُرَيْج، عن سُهَيْل بن[(٦)] أبى صالح، عن أبيه، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ أنه قال:

---

(١) صحيح مسلم برقم (٣٩٩).

(٢) المسند (٣/ ٥٠) وسنن أبى داود برقم (٧٧٥) وسنن الترمذى برقم (٢٤٢) وسنن النسائى (٢/ ١٣٢) وسنن ابن ماجه برقم (٨٠٤).

(٣) فى أ: «عمر».

(٤) المسند (٥/ ٣١٣) وصحيح البخارى برقم (١١٥٤) وسنن أبى داود برقم (٥٠٦٠) وسنن الترمذى برقم (٣٤١٤) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١٠٦٩٧) وسنن ابن ماجه برقم (٣٨٧٨).

(٥) المصنف برقم (١٩٧٩٦).

(٦) فى م: «عن».

«من جلس فى مجلس فكثر[١] فيه لغطه فقال قبل أن يقوم من مجلسه: سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك، إلا غفر[٢] له ما كان فى مجلسه ذلك».

رواه الترمذى ـ وهذا لفظه ـ والنسائى فى اليوم والليلة، من حديث ابن جريج. وقال الترمذى: حسن صحيح. وأخرجه الحاكم فى مستدركه وقال: إسناد على شرط مسلم، إلا أن البخارى علله[٣].

قلت: علله الإمام أحمد، والبخارى، ومسلم، وأبو حاتم، وأبو زُرعة، والدارقطنى، وغيرهم. ونسبوا الوهم فيه إلى ابن جُرَيْج. على أن أبا داود قد رواه فى سننه من طريق غير[٤] ابن جريج إلى أبى هريرة، رضى الله عنه، عن النبى ﷺ بنحوه[٥]. ورواه أبو داود ـ واللفظ له ـ والنسائى، والحاكم فى المستدرك، من طريق الحجاج بن دينار، عن هاشم[٦]، عن أبى العالية، عن أبى بَرْزَة الأسلمى قال: كان رسول الله ﷺ يقول بأخرة إذا أراد أن يقوم من المجلس: «سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك». فقال رجل: يا رسول الله، إنك لتقول قولا ما كنت تقوله فيما مضى؟! قال: «كفارة لما يكون فى المجلس»[٧].

وقد روى مرسلا عن أبى العالية، والله[٨] أعلم. وهكذا رواه النسائى والحاكم، من حديث الربيع بن أنس، عن أبى العالية، عن رافع بن خَدِيج، عن النبى ﷺ مثله سواء[٩]. وروى مرسلا أيضا، والله أعلم. وكذا رواه أبو داود عن عبد الله بن عمرو؛ أنه قال: «كلمات لا يتلكم بهن أحد فى مجلسه عند قيامه ثلاث مرات، إلا كفر بهن عنه، ولا يقولهن فى مجلس خير ومجلس ذكر، إلا ختم له بهن كما يختم بالخاتم على الصحيفة: سبحانك اللهم وبحمدك، لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك»[١٠]، وأخرجه الحاكم من حديث أم المؤمنين عائشة، وصححه، ومن رواية جُبَير بن مطعم[١١]. ورواه أبو بكر الإسماعيلى عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، كلهم عن النبى ﷺ. وقد أفردت لذلك جزءا على حدة بذكر طرقه وألفاظه وعلله، وما يتعلق به، ولله الحمد والمنة[١٢].

وقوله: ﴿**وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ**﴾ أى: اذكره واعبده بالتلاوة والصلاة فى الليل، كما قال: ﴿**وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا**﴾ [الإسراء: ٧٩].

---

(١) فى : «فأكثر».
(٢) فى م، أ: «إلا غفر الله له».
(٣) سنن الترمذى برقم (٣٤٣٣) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١٠٢٣٠) والمستدرك (١/٥٣٦).
(٤) فى أ: «عن».
(٥) سنن أبى داود برقم (٤٨٥٨).
(٦) فى أ: «عن أبى هاشم».
(٧) سنن أبى داود برقم (٤٨٥٩) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١٠٢٥٩) والمستدرك (١/٥٣٧).
(٨) فى م: «فالله».
(٩) النسائى فى السنن الكبرى برقم (١٠٢٦٠) والمستدرك (١/٥٣٧).
(١٠) سنن أبى داود برقم (٤٨٥٧).
(١١) المستدرك (١/٥٣٧).
(١٢) وقد ذكرت أحاديث كفارة المجلس عند تفسير الصافات فى خاتمتها.

وقوله: ﴿وَإِدْبَارَ النُّجُومِ﴾: قد تقدم في حديث ابن عباس أنهما الركعتان اللتان قبل صلاة الفجر، فإنهما مشروعتان عند إدبار النجوم، أي: عند جنوحها للغيبوبة. وقد روى[١] [في حديث][٢] ابن سيلان، عن أبي هريرة مرفوعا: «لا تَدَعُوهما، وإن طردتكم الخيل». يعني: ركعتي الفجر[٣]، رواه أبو داود. ومن هذا الحديث حكى عن بعض أصحاب الإمام أحمد القول بوجوبهما، وهو ضعيف لحديث: «خمس صلوات في اليوم والليلة». قال: هل على غيرها[٤]؟ قال: «لا إلا أن تطوع»[٥]. وقد ثبت في الصحيحين عن عائشة، رضي الله عنها، أنها قالت: لم يكن رسول الله ﷺ على شيء من النوافل أشد تعاهداً منه على ركعتي الفجر[٦]. وفي لفظ لمسلم: «ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها»[٧].

آخر تفسير سورة الطور [والله أعلم][٨]

---

(١) في م، أ: «ورد». (٢) زيادة من م، أ.
(٣) رواه أبو داود في السنن برقم (١٢٥٨). (٤) في أ: «غيرهن».
(٥) رواه البخاري في صحيحه برقم (٤٦) ومسلم في صحيحه برقم (١١) من حديث طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه.
(٦) صحيح البخاري برقم (١١٦٩) وصحيح مسلم برقم (٧٢٤).
(٧) صحيح مسلم برقم (٧٢٥).
(٨) زيادة من أ.

سورة الطور

مكّيّة، وهي تسع[1] أو[2] ثمان وأربعون آيةً.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٖ مَّسۡطُورٖ ۝٢ فِي رَقّٖ مَّنشُورٖ ۝٣ وَٱلۡبَيۡتِ ٱلۡمَعۡمُورِ ۝٤ وَٱلسَّقۡفِ ٱلۡمَرۡفُوعِ ۝٥ وَٱلۡبَحۡرِ ٱلۡمَسۡجُورِ ۝٦ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٞ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٖ ۝٨ يَوۡمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوۡرٗا ۝٩ وَتَسِيرُ ٱلۡجِبَالُ سَيۡرٗا ۝١٠﴾

﴿وَٱلطُّورِ﴾ الطور بالسُّريانيّة: الجبل، والمراد به طور سِينين، وهو جبل بمَدين[3] سمع فيه موسى عليه السلام كلام الله عزّ وعلا.

﴿وَكِتَٰبٖ مَّسۡطُورٖ﴾ مكتوب على وجه الانتظام، فإنّ السَّطر ترتيب الحروف المكتوبة، والمراد به القرآن، أو ألواح موسى عليه السلام، وهو الأنسَب بالطور، أو ما يُكتَب في اللوح أو ما يكتبه الحَفَظة.

﴿فِي رَقّٖ مَّنشُورٖ﴾ الرَّقّ: الجِلد الذي يُكتب فيه، استُعير لِما يُكتب فيه الكتاب مِن الصحيفة، وتنكيرُهما للتفخيم، أو للإشعار بأنّهما ليسا ممّا يتعارفه الناس.

﴿وَٱلۡبَيۡتِ ٱلۡمَعۡمُورِ﴾ أي: الكعبة وعِمارتها بالحُجّاج والعمّار والمُجاوِرين، أو الضُّراح وهو في السماء الرابعة، وعمرانه كثرةُ غاشيته مِن الملائكة.

﴿وَٱلسَّقۡفِ ٱلۡمَرۡفُوعِ﴾ أي: السماء، ولا يخفى حُسن موقع العنوان المذكور.

﴿وَٱلۡبَحۡرِ ٱلۡمَسۡجُورِ﴾ أي: المملوء، / وهو البحر المحيط أو المُوقَد، مِن قوله [١٣٣و]
تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ سُجِّرَتۡ﴾ [التكوير، ٦/٨١]، فالمراد به الجنس. رُوي أنّ الله تعالى

[1] س + وأربعون.

[2] س: وقيل.

[3] مَديَن: على بحر القلزم [البحر الأحمر] محاذية لتبوك، وهي اسم القبيلة، وهي مدينة قوم شُعيب عليه السلام. انظر: معجم البلدان للحموي، ٥/٧٧.

يجعل البحار يوم القيامة نارًا يُسجَر بها نار جهنّم.[١]

﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ أي: لنازل حتمًا، جواب للقسم.

وقوله تعالى: ﴿مَا لَهُۥ مِن دَافِعٍ﴾ إمّا خبر ثانٍ لـ﴿إِنَّ﴾، أو صفة ﴿لَوَاقِعٌ﴾، و﴿مِن دَافِعٍ﴾ إمّا مبتدأ للظرف أو مرتفعٌ منه على الفاعليّة، و﴿مِن﴾ مزيدة للتأكيد.

وتخصيص هذه الأمور بالإقسام بها لِما أنّها أمور عظام تنبئ عن عِظَم قدرة الله تعالى وكمالِ عِلمه وحكمته الدالّة على إحاطته تعالى بتفاصيل أعمال العباد وضبطها الشاهدةِ بصدق أخباره التي مِن جملتها الجملة المقسَم عليها.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا﴾ ظرفُ ﴿لَوَاقِعٌ﴾ مبيّن لكيفيّة الوقوع مُنبئٌ عن كمال هَوله وفظاعته. والمَوْر: الاضطراب والتردّد في المجيء والذهاب، وقيل: هو تحرُّك في تموُّج.[٢] قيل: تدور السماء كما تدور الرَّحى وتتكفّأ بأهلها تَكَفُّؤَ السفينة، وقيل: تختلف أجزاؤها.[٣]

﴿وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا﴾ أي: تزول عن وجه الأرض فتصير هباءً، وتأكيد الفعلين بمصدريهما للإيذان بغرابتهما وخروجهما عن الحدود المعهودة، أي: مَوْرًا عجيبًا وسَيرًا بديعًا لا يُدرَك كنههما.

﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾

﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي: إذا وقع ذلك، أو إذا كان الأمر كما ذُكر، فويلٌ يومَ إذ يقع ذلك لهم.

﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ﴾ أي: اندفاع عجيب في الأباطيل والأكاذيب ﴿يَلْعَبُونَ﴾ يلهُون.

---

[١] مرويّ عن ابن عبّاس في معالم التنزيل للبغوي، ٣٨٦/٧، والكشّاف للزمخشري، ٣٠٩/٤.

[٢] القول في الكشّاف للزمخشري، ٣٠٩/٤.

[٣] القولان في اللباب لابن عادل، ١١٩/١٨.

﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ أي: يُدفعون إليها دفعًا عنيفًا شديدًا بأن يُغَلّ أيديهم إلى أعناقهم ويُجمَع نواصيهم إلى أقدامهم فيُدفَعوا إلى النار. وقُرئ: "يُدْعَوْنَ"[1] مِن الدُّعاء، فيكون ﴿دَعًّا﴾ حالًا بمعنى مدعوعين. و﴿يَوْمَ﴾ إمّا بدل مِن ﴿يَوْمَ تَمُورُ﴾، أو ظرف لقول مقدَّر قبل قوله تعالى: ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ أي: يقال لهم ذلك، ومعنى التكذيب بها تكذيبُهم بالوحي الناطق بها.

وقوله تعالى: ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَا﴾ توبيخ وتقريع لهم، حيث كانوا يسمُّونه سِحرًا، كأنّه قيل: كنتُم تقولون للقرآن الناطق بهذا: "سِحرٌ"، فهذا أيضًا سِحرٌ. وتقديم الخبر لأنّه محطّ الإنكار ومدارُ التوبيخ. ﴿أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ أي: أم أنتم عُمْيٌ عن المخبَر عنه / كما كنتم عُميًا عن الخبر، أو أم سُدَّت أبصاركم كما سُدَّت في الدنيا على زعمكم، حيث كنتم تقولون ﴿إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ [الحجر، ١٥/١٥]. [١٣٣ظ]

﴿ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ﴾ أي: ادخلوها وقاسُوا شدائدها فافعلوا ما شئتم مِن الصبر وعدمه. ﴿سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي: الأمران في عدم النفع لا بدَفْع العذاب ولا بتخفيفه.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ تعليل للاستواء، فإنّ الجزاء حيث كان واجبَ الوقوع حتمًا كان الصبر وعدمُه سواءً في عدم النفع.

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾﴾

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ﴾ أي: في أيّة جنّاتٍ وأيّ نعيمٍ، على أنّ التنوين للتفخيم، أو في ﴿جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ﴾ مخصوصة بـ﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾ على أنّه للتنويع. ﴿فَٰكِهِينَ﴾ ناعمين متلذِّذين ﴿بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾. وقُرئ: "فَكِهِينَ"،[2] و"فَاكِهُونَ"،[3] على أنّه الخبر، والظرف لغوٌ متعلِّق بالخبر أو خبرٌ آخرُ.

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن عليّ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٤٩.

[2] قرأ بها أبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢/٣٥٤.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٥٠.

﴿وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ عطفٌ على ﴿ءَاتَىٰهُمْ﴾ على أنّ ﴿مَا﴾ مصدريّة، أو على خبر ﴿إِنَّ﴾، أو حالٌ بإضمار "قد" إمّا مِن المستكنّ في الخبر أو في الحال، وإمّا مِن فاعل ﴿ءَاتَىٰ﴾ أو مِن مفعوله أو منهما، وإظهارُ الربِّ في موقع الإضمار مضافًا إلى ضميرهم للتشريف والتعليل.

﴿كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ١٩ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ۖ وَزَوَّجْنَـٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ٢٠﴾

﴿كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ﴾ أي: يقال لهم كلوا واشربوا أكلًا وشُربًا ﴿هَنِيٓـًٔا﴾ أو طعامًا وشرابًا هنيئًا وهو الذي لا تنغيص فيه ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بسببه أو بمقابلته، وقيل: الباء زائدة،[1] و﴿مَا﴾ فاعل ﴿هَنِيٓـًٔا﴾، أي: هَنَأكم ما كنتم تعملون، أي: جزاؤه.

﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ﴾ مصطفّة ﴿وَزَوَّجْنَـٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾. وقُرئ: "بِحُورِ عِينٍ"[2] على إضافة الموصوف إلى صفته بالتأويل المشهور. وقُرئ: "بِعِيسٍ عِينٍ"،[3] و"الباء" مع أنّ التزويج ممّا يتعدّى إلى مفعولين لِما فيه مِن معنى الوصل والإلصاق، أو للسببيّة؛ إذ المعنى صيّرناهم أزواجًا بسببهنّ، فإنّ الزوجيّة لا تتحقّق بدون انضمامهنّ إليهم.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَـٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَـٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ۚ كُلُّ ٱمْرِىٍٕ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ٢١﴾

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾... إلى آخره، كلامٌ مستأنَف مَسوق لبيان حال طائفة مِن أهل الجنّة إثر بيان حال الكلّ وهم الذين شاركَتْهم ذرّيّتُهم في الإيمان، وهو مبتدأ خبره ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ﴾.

[١٣٤و] وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعَتْهُمْ / ذُرِّيَّتُهُم﴾ عطفٌ على ﴿ءَامَنُواْ﴾، وقيل: اعتراض.[4] وقوله تعالى: ﴿بِإِيمَـٰنٍ﴾ متعلِّق بالاتّباع، أي: اتّبعتهم ذرّيّتُهم بإيمان في الجملة

---

[1] كما في الكشّاف للزمخشري، ٣١٠/٤.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن الصُّوفي والأديب والعنبري عن أبي بكر وعكرمة. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٧١٨.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود والنخعي. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٧١٨.

[4] كما في الكشّاف للزمخشري، ٣١١/٤.

قاصرٍ عن رتبة إيمان الآباء. واعتبارُ هذا القيد للإيذان بثبوت الحكم في الإيمان الكامل أصالةً لا إلحاقًا.

وقُرئ: "ذُرِيَّاتُهُمْ"[١] للمبالغة في الكثرة و"ذِرِيَّاتُهُمْ"[٢] بكسر "الذال". وقُرئ: "وَأَتْبَعْنَاهُمْ ذُرِيَّاتِهِمْ"،[٣] أي: جعلناهم تابعين لهم في الإيمان. وقُرئ: "أَتْبَعْتُهُمْ".[٤]

﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ أي: في الدرجة، كما رُوي أنّه عليه السلام قال: «إنّه تعالى يرفع ذُرّيّة المؤمن في درجته وإن كانوا دونه لتقرّ بهم عينه»،[٥] ثمّ تلا هذه الآيةَ.

﴿وَمَآ أَلَتْنَٰهُم﴾ وما نقصنا الآباءَ بهذا الإلحاقِ ﴿مِّنْ عَمَلِهِم﴾ مِن ثواب عملهم ﴿مِّن شَىْءٍ﴾ بأن أعطينا بعضَ مثوباتهم أبناءهم، فينتقصَ مثوبتُهم وينحطَّ درجتهم، وإنّما رفعناهم إلى منزلتهم بمَحْض التفضّل والإحسان.

وقُرئ: "أَلِتْنَاهُمْ"[٦] بكسر "اللام" مِن "أَلِتَ يأْلَتُ" كـ"عَلِم يعلَم"، والأوّل كـ"ضَرَب يضرِب"، و"لِتْنَاهُمْ" مِن "لات يليت"، و"آلَتْنَاهُمْ"[٧] مِن "آلتَ يُولِتُ" و"وَلَتْنَاهُمْ"[٨] مِن "وَلَت يَلِت"، والكلُّ بمعنًى واحد.

هذا، وقد قيل: الموصول معطوف على ﴿حُورٍ﴾، والمعنى قرنّاهم بالحُور وبالذين آمنوا، أي: بالرُّفقاء والجُلساء منهم، فيتمتّعون تارةً بملاعبة الحُور، وأخرى بمؤانسة الإخوان المؤمنين.[٩]

وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعَتْهُمْ﴾ عطفٌ على ﴿زَوَّجْنَٰهُم﴾. وقوله تعالى: ﴿بِإِيمَٰنٍ﴾ متعلّق بما بعده، أي: بسبب إيمان عظيم رفيعِ المحلّ، وهو إيمان الآباء،

---

١ قرأ بها ابن عامر وأبو عمرو ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٧٧/٢.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن الضحّاك. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٥٠.

٣ قرأ بها أبو عمرو. النشر لابن الجزري، ٣٧٧/٢.

٤ قراءة شاذّة، غير منسوبة. الكشّاف للزمخشري، ٣١١/٤.

٥ المستدرك للحاكم، ٥٠٩/٢ (٣٧٤٤)؛ معالم التنزيل للبغوي، ٣٨٨/٧؛ الكشّاف للزمخشري، ٣١١/٤.

٦ قرأ بها ابن كثير. النشر لابن الجزري، ٣٧٧/٢.

٧ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعرج. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٥٠.

٨ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبان بن تغلب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٥٠.

٩ الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٣١٠/٤-٣١١.

ألحقنا بدرجاتهم ذرّيّتهم وإن كانوا لا يستأهلونها تفضّلًا عليهم وعلى آبائهم ليتمّ سرورهم ويكمل نعيمهم، أو بسبب إيمانٍ داني المنزلة وهو إيمان الذُّرّية، كأنّه قيل: بشيء مِن الإيمان لا يؤهِّلهم لدرجة الآباء ألحقناهم[١] بهم.

﴿كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ﴾ قيل: هو "فعيل" بمعنى "المفعول"، والمعنى: كلّ امرئ مرهون عند الله تعالى بالعمل الصالح،[٢] فإن عَمِله فكّه وإلّا أهلَكه. وقيل: بمعنى "الفاعل"، والمعنى: كلّ امرئ بما كسَب راهن، أي: دائم ثابت. وهذا أنسَب بالمقام، فإنّ الدوام يقتضي / عدم المفارقة بين المرء وعمله ومِن ضرورته ألّا ينقص مِن ثواب الآباء شيء، فالجملة تعليل لِما قبلها. [١٣٤ظ]

﴿وَأَمۡدَدۡنَٰهُم بِفَٰكِهَةٖ وَلَحۡمٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ ٢٢ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأۡسٗا لَّا لَغۡوٞ فِيهَا وَلَا تَأۡثِيمٞ ٢٣ وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ غِلۡمَانٞ لَّهُمۡ كَأَنَّهُمۡ لُؤۡلُؤٞ مَّكۡنُونٞ ٢٤﴾

﴿وَأَمۡدَدۡنَٰهُم بِفَٰكِهَةٖ وَلَحۡمٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ﴾ وزدناهم على ما كان لهم مِن مبادي التنعّم وقتًا فوقتًا ما يشتهون مِن فنون النعماء وألوان الآلاء.

﴿يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا﴾ أي: يتعاطَون فيها هم وجلساؤهم بكمال رغبة واشتياق، كما ينبئ عنه التعبير عن ذلك بالتنازع. ﴿كَأۡسٗا﴾ أي: خمرًا تسميةً لها باسم محلّها ﴿لَّا لَغۡوٞ فِيهَا﴾ أي: في شربها، حيث لا يتكلّمون في أثناء الشرب بلَغو الحديث وسَقَط الكلام. ﴿وَلَا تَأۡثِيمٞ﴾ ولا يفعلون ما يُؤثّم به فاعله، أي: يُنسَب إلى الإثم لو فعله في دار التكليف، كما هو ديدن المنادمين في الدنيا، وإنّما يتكلّمون بالحِكَم وأحاسن الكلام، ويفعلون ما يفعله الكرام. وقُرئ: "لَا لَغْوَ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمَ"[٣] بالفتح.

﴿وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ﴾ أي: بالكأس ﴿غِلۡمَانٞ لَّهُمۡ﴾ أي: مماليكُ مخصوصون بهم، وقيل: هم أولادهم الذين سبقوهم.[٤] ﴿كَأَنَّهُمۡ لُؤۡلُؤٞ مَّكۡنُونٞ﴾ مَصون في الصَّدَف مِن بياضهم وصفائهم، أو مخزون؛ لأنّه لا يُخزَن إلّا الثمينُ الغاليْ القِيمةِ.

---

١ س: ألحقنا.

٢ كما في الكشّاف للزمخشري، ٤/٤١١.

٣ قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٢١١.

٤ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣/٣٣١.

قيل: لقتادةَ: هذا الخادم فكيف المخدوم؟ فقال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «والذي نفسي بيده إنّ فضل المخدوم على الخادم كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب».[1] وعنه عليه السلام: «إنّ أدنى أهل الجنّة منزلةً مَن يُنادي الخادمَ مِن خُدّامه فيُجيبه ألفٌ ببابه: لبّيكَ لبّيكَ».[2]

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ۝٢٥ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ۝٢٦ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ۝٢٧ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ۝٢٨﴾

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ أي: يسأل كلّ بعض منهم بعضًا آخرَ عن أحواله وأعماله فيكون كلّ بعضٍ سائلًا ومسئولًا، لا أنّه يسأل بعض معيَّنٌ منهم بعضًا آخرَ معيَّنًا.

﴿قَالُوٓاْ﴾ أي: المسئولون، وهم كلّ واحد منهم في الحقيقة ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ﴾ أي: في الدنيا ﴿فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ أرقّاء القلوب خائفين مِن عصيان الله تعالى معتنين بطاعته أو وَجِلين مِن العاقبة.

﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ بالرحمة أو التوفيق للحقّ ﴿وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾ عذاب النار النافذة في المسامّ / نفوذَ السموم. وقُرئ: "وَوَقَّانَا"[3] بالتشديد. [١٣٥و]

﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ﴾ أي: نعبده، أو نسأله الوقاية ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ﴾ المحسِن ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ الكثير الرحمة الذي إذا عُبد أثاب وإذا سُئل أجاب. وقُرئ: "أَنَّهُ"[4] بالفتح، بمعنى "لأنّه".

﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ۝٢٩ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ۝٣٠ قُلْ تَرَبَّصُواْ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ۝٣١﴾

﴿فَذَكِّرْ﴾ فاثبُت على ما أنت عليه مِن التذكير لِما أُنزل إليك مِن الآيات والذِّكر الحكيم، ولا تكترث بما يقولون ممّا لا خيرَ فيه مِن الأباطيل.

---

[1] جامع البيان للطبري، ٥٨٩/٢١؛ معالم التنزيل للبغوي، ٣٩٠/٧؛ الكشّاف للزمخشري، ٣١١/٤.

[2] الكشف والبيان للثعلبي، ٣٧/٢٥؛ الكشّاف للزمخشري، ٣١٢/٤.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حَيْوَة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٥٠.

[4] قرأ بها أبو عمرو والكسائي ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٧٨/٢.

﴿فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ﴾ بحمده وإنعامه بصدق النبوّة ورجاحة العقل ﴿بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ كما يقولون قاتلهم الله أنّى يؤفكون.

﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ وهو ما يُقلِق النفوس ويشخص بها مِن حوادث الدهر، وقيل: ﴿ٱلْمَنُونِ﴾: الموت، وهو في الأصل "فَعُول" مِن "مَنَّه" إذا قطعه؛ لأنّ الموت قَطُوع،[١] أي: بل أيقولون: ننتظر به نوائبَ الدهر؟

﴿قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ﴾ أتربّص هلاككم كما تتربّصون هلاكي، وفيه عِدَة كريمة بإهلاكهم.

﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾

﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم﴾ أي: عقولهم ﴿بِهَٰذَآ﴾ أي: بهذا التناقض في المقال، فإنّ الكاهن يكون ذا فِطنة ودِقّة نظر في الأمور، والمجنون مغطّى عقلُه مختلٌّ فِكره، والشاعر ذو كلام موزون متّسقٍ مخيّل، فكيف يجتمع أوصاف هؤلاء في واحد؟ وأمرُ الأحلام بذلك مجازٌ مِن أدائها إليه.

﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ مُجاوِزون الحدودَ في المكابرة والعِناد، لا يحومون حول الرُّشد والسَّداد، ولذلك يقولون ما يقولون مِن الأكاذيب الخارجة عن دائرة العقول والظنون. وقُرئ: "بَلْ هُمْ".[٢]

﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ﴾ أي: اختلقه مِن تلقاء نفسه ﴿بَل لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ فلكفرهم وعِنادهم يرمون بهذه الأباطيل التي لا يخفى على أحد بطلانها، كيف لا، وما رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إلّا واحد مِن العرب، فكيف أتى بما عجز عنه كافّة الأمم مِن العرب والعجم؟

﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ﴾ مِثلِ القرآن في النعوت التي استقلّ بها مِن حيث النظمُ / ومِن حيث المعنى ﴿إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ﴾ فيما زعموا، فإنّ صدقهم في ذلك [١٣٥ظ]

---

[١] القول في الكشّاف للزمخشري، ٣١٢/٤.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن مجاهد. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٥٠.

يستدعي قدرتَهم على الإتيان بمِثله بقضيّة مشاركتهم له عليه السلام في البشريّة والعربيّة، مع ما بهم مِن طول الممارسة للخُطَب والأشعار وكثرةِ المزاولة لأساليب النظمِ والنثرِ والمبالغة في حفظ الوقائع والأيّام، ولا ريبَ في أنّ القدرة على الشيء مِن موجِبات الإتيان به ودواعي الأمر بذلك.

﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝٣٥ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ۝٣٦ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ۝٣٧ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ۖ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۝٣٨﴾

﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ﴾ أي: أم أُحدِثوا وقُدِّروا هذا التقديرَ البديع مِن غير مُحدِث ومقدِّر؟ وقيل: أم خُلِقوا مِن أجل لا شيءَ مِن عبادة وجزاء. ﴿أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ لأنفسهم فلذلك لا يعبدون الله سبحانه.

﴿أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ أي: إذا سُئلوا: مَن خلقكم وخلَق السماواتِ والأرضَ؟ قالوا: الله، وهم غير موقنين بما قالوا، وإلّا لَما أعرضوا عن عبادته.

﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ﴾ أي: خزائن رزقه ورحمته حتّى يرزُقوا النبوّة مَن شاءوا ويُمسِكوها عمّن شاءوا، أو عندهم خزائنُ عِلمه وحكمته حتّى يختاروا لها مَن اقتضت الحكمة اختيارَه.

﴿أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ﴾ أي: الغالبون على الأمور يدبِّرونها كيفما شاءوا حتّى يدبِّروا أمر الربوبيّة ويبنوا الأمورَ على إرادتهم ومشيئتهم. وقُرِئ: "المُصَيْطِرُونَ"[1] بـ"الصاد" لمكان "الطاء".

﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ﴾ منصوب إلى السماء ﴿يَسْتَمِعُونَ فِيهِ﴾ صاعدين إلى كلام الملائكة وما يُوحى إليهم مِن عِلم الغيب حتّى يعلموا ما هو كائن مِن الأمور التي يتقوّلون فيها رَجمًا بالغيب، ويُعلِّقون بها أطماعهم الفارغة. ﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ بحجّة واضحة تُصدِّق استماعَه.

---

١ قرأ بها نافع وأبو عمرو والكسائي وأبو جعفر ويعقوب وخلف والبزي وهشام وأبو بكر. النشر لابن الجزري، ٣٧٨/٢-٣٧٩.

﴿أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ۝٣٩ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ۝٤٠ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ۝٤١ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ۝٤٢ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٤٣﴾

﴿أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ﴾ / تسفيةٌ لهم وتركيكٌ لعقولهم وإيذانٌ بأنّ مَن هذا [١٣٦و]
رأيه لا يكاد يُعدّ مِن العقلاء فضلًا عن الترقّي إلى عالم الملكوت والتطلّع على الأسرار الغيبيّة. والالتفاتُ إلى الخطاب لتشديد ما في ﴿أَمْ﴾ المنقطعة مِن الإنكار والتوبيخ.

﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا﴾ رجوع إلى خطابه عليه السلام وإعراضٌ عنهم، أي: بل أتسألهم أجرًا على تبليغ الرسالة ﴿فَهُم﴾ لأجل ذلك ﴿مِّن مَّغْرَمٍ﴾ مِن التزام غرامة فادحة ﴿مُّثْقَلُونَ﴾ مُحمَّلون الثِّقَل فلذلك لا يتّبعونك.

﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ﴾ أي: اللوح المحفوظ المُثبَت فيه الغيوب ﴿فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ ما فيه حتى يتكلّموا في ذلك بنفي أو إثبات.

﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا﴾ هو كيدهم برسول الله صلّى الله عليه وسلّم في دار الندوة. ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ هم المذكورون. ووضعُ الموصول موضعَ ضميرهم للتسجيل عليهم بما في حيّز الصلة مِن الكفر وتعليلِ الحُكم به أو جميعِ الكفَرة، وهم داخلون فيهم دخولًا أوّليًا. ﴿هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ﴾ أي: هم الذين يحيق بهم كيدُهم أو يعود عليهم وباله لا مَن أرادوا أن يكيدوه وهو ما أصابهم يوم بدر، أو هم المغلوبون في الكيد مِن "كايَدتُه فكِدتُه".

﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ يُعينهم ويحرسهم مِن عذابه ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: عن إشراكهم، أو عن شركة ما يُشركونه.

﴿وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ۝٤٤ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ۝٤٥ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ۝٤٦ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٤٧﴾

﴿وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا﴾ قطعةً ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا﴾ لتعذيبهم ﴿يَقُولُوا۟﴾ مِن فَرط طغيانهم وعِنادهم ﴿سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ أي: هم في الطغيان بحيث لو أسقطناه عليهم

حسبما قالوا: ﴿أَوۡ تُسۡقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمۡتَ عَلَيۡنَا كِسَفًا﴾ [الإسراء، ٩٢/١٧] لقالوا: "هذا سحابٌ تراكمَ بعضُها على بعض يُمطِرنا"، ولم يصدِّقوا أنّه كِسْف ساقط للعذاب.

﴿فَذَرۡهُمۡ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ﴾ وقُرئ: "حَتَّى يَلْقَوا"[1] ﴿يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي فِيهِ يُصۡعَقُونَ﴾ على البناء للمفعول مِن "صَعَقَتْه الصاعقة" أو مِن "أصعقَتْه". وقُرئ: "يَصْعَقُونَ"[2] بفتح "الياء" و"العين"، وهو يوم يُصيبهم الصعقةُ / بالقتل يوم بدر، لا النفخة الأولى كما قيل؛[3] إذ لا يُصعَق بها إلّا مَن كان حيًّا حينئذ. [١٣٦ظ]

ولأنّ قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ لَا يُغۡنِي عَنۡهُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـٔٗا﴾ أي: شيئًا مِن الإغناء بدل مِن ﴿يَوۡمَهُمُ﴾. ولا يخفى أنّ التعرّض لبيان عدم نفعِ كيدهم يستدعي استعمالهم له طمعًا في الانتفاع به، وليس ذلك إلّا ما دبّروه في أمره صلّى الله عليه وسلّم مِن الكيد الذي مِن جملته مُناصبتهم يومَ بدر، وأمّا النفخة الأولى فليست ممّا يجري في مدافعته الكيدُ والحِيَلُ. وقيل: هو يوم موتهم.[4] وفيه ما فيه مع ما يأباه الإضافة المنبئة عن اختصاصه بهم. ﴿وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾ مِن جهة الغير في دَفْع العذاب عنهم.

﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ أي: لهم، ووضعُ الموصول موضعَ الضمير لِما ذُكر مِن قبل، أي: وإنّ لهؤلاء الظلَمة ﴿عَذَابٗا﴾ آخرَ ﴿دُونَ ذَٰلِكَ﴾ دون ما لاقوه مِن القتل، أي: قبله، وهو القحط الذي أصابهم سبعَ سنين، أو وراءه كما في قوله:

تُريكَ القَذى مِن دونها وهو دونها[5]

وهو عذاب القبر وما بعده مِن فنون عذاب الآخرة. وقُرئ: "دُونَ ذَلِكَ قَرِيبًا".[6]

---

١ قرأ بها أبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٣٧٠/٢، ٣٧٩.

٢ قرأ بها نافع وابن كثير وأبو عمرو والكسائي وحمزة أبو جعفر يعقوب وخلف. النشر لابن الجزري، ٣٧٩/٢.

٣ كما في الكشّاف للزمخشري، ٣١٣/٤.

٤ القول في معالم التنزيل للبغوي، ٣٩٤/٧.

٥ وفي هامش م: استشهاد لكلا المعنيين. «منه». | والشعر للأعشى في ديوانه، ص ٢١٩، وتمامه:

إذا ذاقها مَن ذاقها يتمطّقُ

وهو له في معجم مقاييس اللغة لابن فارس، «مطق»؛ والكشّاف للزمخشري، ٨٢/١ (البقرة، ٢٣/٢)؛ وأساس البلاغة للزمخشري، «مطق». وفيها جميعًا «وهو دونه» مكان «وهو دونها».

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود. الكشّاف للزمخشري، ٣١٣/٤.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنّ الأمر كما ذكر، وفيه إشارةٌ إلى أنّ فيهم مَن يعلم ذلك، وإنّما يُصرّ على الكفر عِنادًا، أو لا يعلمون شيئًا أصلًا.

﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾﴾

﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ بإمهالهم إلى يومهم الموعود وإبقائك فيما بينهم مع مُقاساة الأحزان ومُعاناة الهموم. ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ أي: في حفظنا وحمايتنا بحيث نراقبك ونكْلَؤك، وجُمع "العين" لجمع الضمير والإيذانِ بغاية الاعتناء بالحفظ.

﴿وَسَبِّحْ﴾ أي: نزّهه تعالى عمّا لا يليق به ملتبِسًا ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ على نعمائه الفائتة للحصر ﴿حِينَ تَقُومُ﴾ مِن أيّ مكان قمتَ. قال سعيد بن جُبير وعطاء، أي: قل حين تقوم مِن مجلسك: «سبحانك اللّهمّ وبحمدك»،[1] وقال ابن عبّاس رضي الله عنهما: «معناه صلِّ لله حين تقوم مِن مقامك»،[2] وقال الضحّاك والربيع: «إذا قمتَ إلى الصلاة / فقل: سبحانك اللّهمّ وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جَدّك ولا إلهَ غيرُك».[3] [١٣٧و]

وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ إفراد لبعض الليل بالتسبيح لِما أنّ العبادة فيه أشقُّ على النفس وأبعدُ عن الرِّياء كما يلوِّح به تقديمُه على الفعل. ﴿وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾ أي: وقتَ إدبارها مِن آخر الليل، أي: غيبتها بضوء الصباح. وقيل: التسبيح مِن الليل: صلاةُ العشاءين، وإدبارُ النجوم: صلاةُ الفجر. وقرئ: "أَدْبَارَ النُّجُومِ"[4] بالفتح، أي: في أعقابها إذا غربتْ أو خفيتْ.

عن النبيّ عليه السلام: «مَن قرأ سورة الطور كان حقًّا على الله تعالى أن يؤمِنه مِن عذابه وأن ينعِّمه في جنّته».[5]

---

١ معالم التنزيل للبغوي، ٣٩٤/٧.

٢ معالم التنزيل للبغوي، ٣٩٥/٧.

٣ جامع البيان للطبري، ٦٠٦/٢١؛ معالم التنزيل للبغوي، ٣٩٥/٧.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعمش وزيد عن يعقوب وسالم بن أبي الجعد. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٤٧؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٧٢١.

٥ الكشف والبيان للثعلبي، ٨/٢٥ (الطور، ٥٢/١)؛ التفسير الوسيط للواحدي، ١٨٣/٤ (الطور، ٥٢/١)؛ الكشّاف للزمخشري، ٣١٤/٤. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

٥٢

سُورَةُ الطُّورِ

مكية، تسعٌ وأربعون آية.

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ ﴿والطُّورِ﴾ أي: الجبل الذي كلّم الله عليه مُوسَى، ٢ ـ ٣ ـ ﴿وكِتابٍ مَسطُورٍ في رَقٍّ مَنشُورٍ﴾ أي: التوراةِ أو القُرآن، ٤ ـ ﴿والبَيتِ المَعمُورِ﴾ ـ هو في السماء الثالثة أو السادسة أو السابعة بحِيال الكعبة، يزوره كُلَّ يوم سبعون ألفَ ملَكٍ بالطواف والصلاة، لا يعودون إليه أبدًا ـ.................

سُورَةُ الطُّورِ

قولُهُ: (الجَبَلِ) أي: طورِ سينينَ، وهو جبلٌ بمدينَ.

قولُهُ: (عَلَيهِ مُوسَى) الأولى: موسى عليهِ السَّلامُ، أو ما طارَ مِنْ أوجِ الإيجادِ إلى حضيضِ الموادِّ، أو مِن عالمِ الغيبِ إلى عالمِ الشَّهادةِ[١].

قولُهُ: (أوِ القُرآنِ) الأولى: تقديمُ القرآنِ، أو ما كتبَهُ اللهُ في اللَّوحِ المحفوظِ، أو ما يكتبُهُ الحفظَةُ، والرَّقُّ: الجلدُ الَّذي يُكتَبُ فيه، استُعيرَ لما كتبَ فيه الكتابُ، وتنكيرُهُما للتَّعظيمِ، والمسطورُ: المكتوبُ، والسَّطرُ: ترتيبُ الحروفِ المكتوبةِ.

قولُهُ: (الثَّالِثَةِ) أو الرَّابعةِ، واقتصرَ عليه البيضاويُّ[٢].

قولُهُ: (أوِ السَّابِعَةِ) اقتصرَ عليهِ البغويُّ[٣]، أو المرادُ به: الكعبةُ وعمارَتُها بالحجَّاجِ والمجاورينَ، أو قلبُ المؤمنِ وعمارتُهُ بالمعرفةِ والإخلاصِ.

---

(١) انظر: «تفسير البيضاوي» (٥/ ١٥٢).

(٢) انظر المصدر السابق.

(٣) انظر: «معالم التنزيل» (٤/ ٢٨٩).

٥ ـ ﴿والسَّقفِ المَرفُوعِ﴾ أي: السماء، ٦ ـ ﴿والبَحرِ المَسجُورِ﴾ أي: المملوء، ٧ ـ ﴿إنَّ عَذابَ رَبِّكَ لَواقِعٌ﴾: لنازلٌ بمستحقّه ٨ ـ ﴿مالَهُ مِن دافِعٍ﴾ عنه ٩ ـ ﴿يَومَ﴾: معمول لـ «واقع» ﴿تَمُورُ السَّماءُ مَورًا﴾ تتحرّك وتدور، ١٠ ـ ﴿وتَسِيرُ الجِبالُ سَيرًا﴾ تصير هباء منثورًا. وذلك في يوم القيامة.

١١ ـ ﴿فوَيلٌ﴾: شِدّةُ عذاب ﴿يَومَئِذٍ لِلمُكَذِّبِينَ﴾ الرسلَ، ١٢ ـ ﴿الَّذِينَ هُم في خَوضٍ﴾: باطل ﴿يَلعَبُونَ﴾ أي: يتشاغلون بكفرهم، ١٣ ـ ﴿يَومَ يُدَعُّونَ إلَى نارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾: يُدفعون بعُنف ـ بدلٌ من «تمور» ـ ويقال لهم تبكيتًا: ١٤ ـ ١٥ ـ ١٦ ـ ﴿هٰذِهِ النّارُ الَّتِي كُنتُم بِها تُكَذِّبُونَ. أفَسِحرٌ هذا﴾ العذابُ الذي تَرَون كما كنتم تقولون في الوحي: «هذا سِحرٌ»؟ ﴿أم أنتُم لا تُبصِرُونَ؟ اصلَوها، فاصبِرُوا﴾ عليها ﴿أو لا تَصبِرُوا﴾. صبرُكم وجزَعُكم ﴿سَواءٌ عَلَيكُم﴾ لأنّ صبركم لا ينفعكم. ﴿إنَّما تُجزَونَ ما كُنتُم تَعمَلُونَ﴾ أي: جزاءه.

١٧ ـ ١٨ ـ ﴿إنَّ المُتَّقِينَ في جَنّاتٍ ونَعِيمٍ، فاكِهِينَ﴾: مُتلذّذِينَ ﴿بِما﴾: مصدريّةٌ ﴿آتاهُم﴾: أعطاهم ﴿رَبُّهُم، ووَقاهُم رَبُّهُم عَذابَ الجَحِيمِ﴾ ـ عطفٌ على «آتاهم» ـ أي: بإيتائهم ووقايتهم، ويقال لهم: ١٩ ـ ٢٠ ـ ﴿كُلُوا واشرَبُوا هَنِيئًا﴾: حالٌ أي: مُتهنِّئين ﴿بِما﴾ ـ الباء: سببيّة ـ..............

قولُهُ: (أي: المَملُوءِ) وهو المحيطُ.

قولُهُ: (عَنهُ) أي: يدفعُهُ عنه.

قولُهُ: (تَتَحَرَّكُ) تموَّجُ، وقيل: تضطربُ، والمورُ: تردُّدٌ في المجيءِ والذّهابِ.

قولُهُ: (تَصِيرُ) أي: تسيرُ عن وجهِ الأرضِ فتصيرُ هباءً.

قولُهُ: (شِدَّةُ عَذابٍ) أي: إذا وقعَ ذلك فوَيلٌ لهم.

قولُهُ: (باطِلٍ) الأظهرُ: في الخوضِ في الباطِلِ.

قولُهُ: (العَذابُ) أي: كنتُم تقولونَ للوحي: هذا سحرٌ أفهذا المصداقُ أيضاً سحرٌ؟ وتقديمُ الخبرِ؛ لأنّهُ المقصودُ بالإنكارِ والتّوبيخِ، وقولُهُ تعالى: (﴿أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾) هذا أيضاً كما كنتُم لا تبصِرونَ في الدُّنيا ما يدلُّ عليهِ، وهو تقريعٌ وتهكُّمٌ.

قولُهُ: (صَبرُكُم وجَزَعُكُم) يعني: الأمرانِ الصَّبرُ وعدمُهُ سيّان.

قولُهُ: (حَالٌ) أي[1]: أكلاً وشرباً هنيئًا، أو طعاماً وشراباً هنيئاً، وهو الّذي لا تنغيصَ ولا تكديرَ فيه.

قولُهُ: (سَبَبِيَّةٌ) أو بدلُهُ.

---

(١) في (م): «أو».

﴿كُنتُم تعمَلُونَ، مُتَكِئِينَ﴾: حالٌ من الضمير المُستكنّ في قوله «في جَنّات»، ﴿علَى سُرُرٍ مَصفُوفةٍ﴾: بعضُها إلى جنب بعض، ﴿وزَوَّجْناهُم﴾: عطفٌ على «في جَنّات» أي: قرنّاهم ﴿بِحُورٍ عِينٍ﴾: عِظامِ الأعيُن حِسانِها.

٢١ ـ ﴿والَّذِينَ آمَنُوا﴾: مبتدأٌ ﴿وأتبَعْناهُم﴾: معطوف على «آمنوا» ﴿ذُرِّيّاتِهِم﴾ الصغارَ والكبار ﴿بِإيمانٍ﴾ من الكبار ومن الآباء في الصغار، والخبرُ: ﴿ألحَقْنا بِهِم ذُرِّيّاتِهِم﴾ المذكورين في الجنّة، فيكونون في درجتهم، وإن لم يعملوا بعملهم تكرمةً للآباء باجتماع الأولاد إليهم، ﴿وما ألَتْناهُم﴾، بفتح اللام وكسرها: نَقَصناهم ﴿مِن عَمَلِهِم مِن﴾: زائدةٌ ﴿شَيءٍ﴾ يُزاد في عمل الأولاد ـ ﴿كُلُّ امرِئٍ بِما كَسَبَ﴾ من عملٍ خير أو شرّ ﴿رَهِينٌ﴾: مرهون، يُؤاخذ بالشرّ ويُجازَى بالخير ـ ٢٢ ـ ﴿وأمدَدْناهُم﴾: زِدناهم في وقت بعد وقت، ﴿بِفاكِهةٍ ولَحمٍ مِمّا يَشتَهُونَ﴾، وإن لم يُصرّحوا بطلبه، ٢٣ ـ ﴿يَتَنازَعُونَ﴾: يتعاطَون بينهم ﴿فِيها﴾ أي: الجنّةِ ﴿كأسًا﴾: خمرًا، ﴿لا لَغْوٌ فِيها﴾ أي: بسبب شربها يقع بينهم ﴿ولا تأثِيمٌ﴾ ....

قولُهُ: (بَعْضُهَا) أي: مصطفّةٌ وموصولةٌ.

قولُهُ: (عَطْفٌ عَلَى: ﴿فِي جَنَّاتٍ﴾) الأقربُ أن يكونَ معطوفاً على: ﴿آتاهُم﴾، أو حالٌ بتقديرِ: قد أو بدونِهِ، والأظهرُ أنّه استئنافٌ.

قولُهُ: (قَرَنَّاهُم) أي: الباءُ؛ لما في التّزويجِ من معنى الوصلِ والإلصاقِ والقِرَانِ.

قولُهُ: (عِظَامِ الأَعيُنِ) والحورُ: بيضُ الألوانِ.

قولُهُ: (مَعْطُوفٌ) الأظهرُ أنّه اعتراضٌ؛ لتعليلِ الإلحاقِ.

قولُهُ: (المَذْكُورِينَ) بالتّثنيةِ.

قولُهُ: (وكَسرِهَا) مكّيٌّ[1].

قولُهُ: (مَرْهُونٌ) عندَ اللهِ، فإن عملَ صالحاً فكّه، وإلّا أهلكَهُ.

قولُهُ: (بَينَهُم) ويتناوَلونَ، وقيل: يتجاذَبونَ، وقيل: يتعاطَونَ هم وجلساؤُهم بتجاذُبٍ[2].

قولُهُ: (خَمْراً) سمّاها باسمِ محلِّها، ولذلك أنّثَ ضميرَ: ﴿فِيهَا﴾.

---

(١) انظر: «العنوان في القراءات السبع» (ص: ١٨١).

(٢) انظر: «أنوار التنزيل» (٥/ ١٥٤).

به يلحقهم، بخِلاف خمر الدنيا، ٢٤ ـ ﴿ويَطُوفُ علَيهِم﴾ للخِدمة ﴿غِلمانٌ﴾: أرقّاءُ ﴿لَهُم، كأَنَّهُم﴾ حُسنًا ولطافة ﴿لُؤلُؤٌ مَكنُونٌ﴾: مصون في الصدف لأنه فيها أحسن منه في غيرها.

٢٥ ـ ﴿وأقبَلَ بَعضُهُم علَى بَعضٍ، يَتَساءَلُونَ﴾: يسأل بعضهم بعضًا عمّا كانوا عليه وما وصلوا إليه تلذّذًا واعترافًا بالنعمة. ٢٦ ـ ﴿قالُوا﴾ إيماءً إلى عِلّة الوصول: ﴿إنّا كُنّا قَبلُ في أهلِنا﴾ في الدنيا ﴿مُشفِقِينَ﴾: خائفين من عذاب الله، ٢٧ ـ ﴿فمَنَّ اللهُ علَينا﴾ بالمغفرة، ﴿ووَقانا عَذابَ السَّمُومِ﴾ أي: النارِ لدخولها في المسامّ. وقالوا إيماء أيضًا: ٢٨ ـ ﴿إنّا كُنّا مِن قَبلُ﴾ أي: في الدنيا ﴿نَدعُوهُ﴾ أي: نعبده مُوحّدين. ﴿إنَّهُ﴾ ـ بالكسر استئنافًا وإن كان تعليلاً معنًى، ....

قولُهُ: (يَلحَقُهُم) أي: لا يتكلّمونَ بلغوِ الحديثِ في أثناءِ شُربِها ولا يفعَلونَ ما يُؤثَمُ به فاعلُهُ؛ أي: يُنسَبُ إلى الإثمِ، كما هو عادةُ الشّاربينَ في الدُّنيا.

قولُهُ: (للخِدمَةِ) أو بالكأسِ.

قولُهُ: (أَرِقّاءُ) أي: مماليكُ مخصوصونَ بهم، وقيل: هم أولادُهُمُ الّذين سبَقوهُم، وقيل: هم أولادُ الكفّارِ خدمُ أهلِ الجنَّةِ، والأظهرُ أنَّ المرادَ الأوّلُ، عن عبدِ اللهِ بنِ عَمرو: ما مِن أحدٍ من أهلِ الجنَّةِ إلّا يسعى عليهِ ألفُ غلامٍ، كلُّ غلامٍ على عملٍ ما عليهِ صاحبُهُ[1].

قولُهُ: (مَصُونٌ في الصَّدفِ) من بياضِهِم وصفائِهِم، وعنهُ عليه السَّلامُ: «فضلُ المخدومِ على الخادمِ كفضلِ القمرِ ليلةَ البَدرِ على سائرِ الكواكبِ»[2].

قولُهُ: (لأنَّهُ فِيهَا) أنّثَ ضميرَ «الصدف»؛ لأنّه اسمُ جمعٍ لا يَعقِلُ، فيجوزُ تذكيرُهُ وتأنيثُهُ.

قولُهُ: (عمَّا كَانُوا) من الأحوالِ والأعمالِ.

قولُهُ: (مِن عَذَابِ اللهِ) أو من عصيانِهِ.

قولُهُ: (بالمَغفِرَةِ) والرَّحمةِ أو التَّوفيقِ.

قولُهُ: (لدُخُولِهَا) أي: عذابَ النّارِ، النّافذةِ في المسامِّ نفوذَ السُّمومِ.

قولُهُ: (أي: فِي الدُّنيَا) أي: من قبلِ ذلكَ.

قولُهُ: (نَعبُدُهُ) أو نسألُهُ الوقايةَ.

---

(١) رواه ابن المبارك في «الزهد والرقائق» (١٥٨٠)، والطبري في «تفسيره» (٢١/ ٦٤١)، وأبو نعيم في «صفة الجنة» (٢/ ١٧٥).

(٢) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٣٠١٢)، والطبري في «تفسيره» (٢٢/ ٤٧٦) عن قتادة مرسلًا.

وبالفتح تعليلاً لفظًا ـ ﴿هُو البَرُّ﴾: المُحسن الصادق في وعده ﴿الرَّحِيمُ﴾: العظيم الرحمة.

٢٩ ـ ﴿فذَكِّرْ﴾: دُمْ على تذكير المُشركين ولا ترجِع عنه لقولهم لك: كاهنٌ مجنون. ﴿فما أنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾: بإنعامه عليك ﴿بِكاهِنٍ﴾: خبرُ «ما» ﴿ولا مَجنُونٍ﴾: معطوفٌ عليه. ٣٠ ـ ﴿أم﴾ بل ﴿يَقُولُونَ﴾: هو ﴿شاعِرٌ، نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيبَ المَنُونِ﴾: حوادثَ الدهر فيه، فيَهلِكُ كغيره من الشُّعراء؟ ٣١ ـ ﴿قُلْ: تَرَبَّصُوا﴾ هَلاكي. ﴿فإنِّي مَعَكُم مِنَ المُتَرَبِّصِينَ﴾ هَلاكَكم. فعُذِّبوا بالسيف يوم بدر. والتربّص: الانتظار.

٣٢ ـ ﴿أم تأمُرُهُم أحلامُهُم﴾: عُقولهم ﴿بِهذا﴾ أي: قولِهم له: شاعرٌ كاهن مجنون؟ أي: لا تأمرهم بذلك ﴿أم﴾: بل ﴿هُم قَومٌ طاغُونَ﴾ بعِنادهم. ٣٣ ـ ﴿أم يَقُولُونَ: تَقَوَّلَهُ﴾: اختلَقَ القرآن؟ لم يَختلقه، ﴿بَل لا يُؤمِنُونَ﴾ استكبارًا. فإن قالوا: اختلقه ٣٤ ـ ﴿فلْيأتُوا بِحَدِيثٍ﴾ مُختلَق ﴿مِثلِهِ، إن كانُوا صادِقِينَ﴾ في قولهم.

قولُهُ: (وبالفَتحِ) نافعٌ والكسائيُّ[1].

قولُهُ: (العَظِيمُ) أو الكثيرُ.

قولُهُ: (ولا تَرجِعْ عنه) أي: عن تذكيرِهم، ولا تكترِث بقولِهم.

قولُهُ: (حَوادِثَ الدَّهرِ) ممَّا يُقلِقُ النُّفوسَ، وقيل: الموتَ.

قولُهُ: (بذَلِكَ) بهذا التَّناقضِ في القولِ، فإنَّ الكاهنَ يكونُ ذا فطنةٍ ودقَّةِ نظرٍ، والمجنونُ مغطًّى عقلُهُ، والشَّاعرُ يكون ذا كلامٍ موزونٍ مقفًّى مخيَّلٍ، ولا يتأتَّى ذلك من المجنونِ، وأمرُ الأحلامِ مجازٌ عن تأديتِها إليه.

قولُهُ: (بعِنَادِهِم) أي: مجاوِزونَ الحدَّ في العنادِ، وقُرِئَ: (بَلْ هُمْ)[2].

قولُهُ: (اختَلَقَ) من تلقاءِ نفسِهِ.

قولُهُ: (استِكْباراً) فيَرمونَ بهذه المطاعنَ لكفرِهم وعنادِهم واستكبارِهم عن قبولِ الحقِّ.

قولُهُ: (اختَلَقَهُ) وإنَّما خصَّ التَّقوُّلَ؛ لأنَّ سائرَ الأقسامِ ظاهرُ الفسادِ.

قولُهُ: (في قَولِهِم) وزعمِهِم؛ إذ فيهم كثيرٌ من الفصحاءِ، أو من الكهَّانِ والشُّعراءِ، فهو ردٌّ للأقوالِ المذكورةِ بالتَّحدِّي، ولا خلافَ في أنَّ ما دونَ الآيةِ غيرُ معجزٍ، وكذا الآيةُ القصيرةُ، كذا قالَهُ الكمالُ[3]، والمرادُ بالطَّويلةِ: ما كانَ مقدارَ أقصرِ سورةٍ، قالَهُ الكافيجيُّ.

---

(١) انظر: «العنوان في القراءات السبع» (ص: ١٨١).

(٢) وهي قراءة شاذة ونسبت لمجاهد، انظر: «شواذ القراءات» (ص: ٤٥٠).

(٣) لم أتبينه، وانظر: «أصول السرخسي» (١/ ٢٨٠).

٣٥ ـ ﴿أم خُلِقُوا مِن غَيرِ شَيءٍ﴾ أي: خالقٍ؟ ﴿أم هُمُ الخالِقُونَ﴾ أنفسَهم، ولا يُعقل مخلوق بدون خالق، ولا معدومٌ يَخلق؟ فلا بُدّ لهم من خالق، هو الله الواحد. فلِمَ لا يُوحّدونه ويُؤمنون برسوله وكتابه؟ ٣٦ ـ ﴿أم خَلَقُوا السَّماواتِ والأرضَ﴾، ولا يقدر على خلقهما إلاّ الله الخالق؟ فلِمَ لا يعبدونه؟ ﴿بَل لا يُوقِنُونَ﴾ به. وإلاّ لآمنوا بنبيّه. ٣٧ ـ ﴿أم عِندَهُم خَزائِنُ رَبِّكَ﴾ من النبوّة والرزق وغيرهما، فيخصّوا من شاؤوا بما شاؤوا؟ ﴿أم هُمُ المُسَيطِرُونَ﴾: المُتسلّطون الجبّارون؟ وفِعله: سَيطَرَ. ومثله: بَيطَرَ وبَيقَرَ.

٣٨ ـ ﴿أم لَهُم سُلَّمٌ﴾: مَرقًى إلى السماء، ﴿يَستَمِعُونَ فِيهِ﴾ أي: عليه كلامَ الملائكة، حتّى يُمكنَهم مُنازعةُ النبيّ بزعمهم؟ إن ادَّعوا ذلك ﴿فَلْيأتِ مُستَمِعُهُم﴾: مُدّعي الاستماع عليه ﴿بِسُلطَانٍ مُبِينٍ﴾: بحُجّة بيّنة واضحة. ولشَبَه هذا الزعم بزعمهم أنّ الملائكة بناتُ الله قال تعالى: ٣٩ ـ ﴿أم لَهُ البَنَاتُ﴾ أي: بزعمكم ﴿ولَكُمُ البَنُونَ﴾؟ تعالى الله عمّا زعموه!

٤٠ ـ ﴿أم تَسأَلُهُم أجرًا﴾ على ما جِئتَهم به من الدِّين، ﴿فَهُم مِن مَغرَمٍ﴾: غُرمِ ذلك ﴿مُثقَلُونَ﴾ فلا يُسلِمُون؟ ٤١ ـ ﴿أم عِندَهُمُ الغَيبُ﴾ أي: عِلمُه، ﴿فَهُم يَكتُبُونَ﴾..........

قولُـهُ: (أي: خَالِـقٍ) فلـذا لا يعبدونَـهُ، أو مـن أجلِ لا شـيءَ من عبـادةٍ ومجـازاةٍ، ويؤيِّدُ الأوّلَ مـا بعدَهُ، و(﴿أم﴾) في هذهِ الآياتِ منقطعةٌ، ومعنى الهمزةِ فيها الإنكارُ فقط، أو معَ التّوبيخِ.

قولُهُ: (لآمَنُوا بِنَبِيِّهِ) ولما أعرَضُوا عن عبادتِهِ.

قولُهُ: (مِنَ النُّبوَّةِ) الأظهرُ: خزائنُ رزقِهِ حتَّى يرزُقوا النُّبوَّةَ من شاؤُوا.

قولُهُ: (المُتَسَلِّطُونَ) الغالبونَ على الأشياءِ، يدبِّرونَها كيفَ شاؤوا.

قولُهُ: (مَرْقًى) أي: مُرتقًى.

قولُهُ: (كَلامَ المَلائِكَةِ) وما يوحى إليهم مِن علمِ الغيبِ حتَّى يعلموا ما هو كائنٌ.

قولُهُ: (وَاضِحَةٍ) تُصَدِّقُ استماعَهُ.

قولُهُ: (تَعَالَى اللهُ) فيه تسفيهٌ لهم، وإشعارٌ بأنَّ من هذا رأيُهُ لا يُعَدُّ من العُقلاءِ، فضلاً أن يترقَّى بروحِهِ إلى عالمِ الملكوتِ فيتطَّلعَ على الغيوبِ.

قولُهُ: (عَلَى مَا جِئتَهُم) أي: تبليغِهِ.

قولُهُ: (غُرمِ) أي: التزامِهِ، وقولُهُ: (﴿مُثقَلُونَ﴾) أي: مُحمَّلونَ الثِّقلَ، فلذلك زهَدوا في اتِّباعِكَ.

قولُهُ: (أي: عِلمُهُ) أو اللَّوحُ المحفوظُ المثبتُ فيه المغيَّباتِ.

ذلك حتّى يُمكنَهم مُنازعةُ النبيّ في البعث وأمر الآخرة بزعمهم؟ ٤٢ ـ ﴿أم يُرِيدُونَ كَيدًا﴾ بك ليُهلكوك في دار الندوة. ﴿فالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ المَكِيدُونَ﴾: المغلوبون المُهلَكون. فحفظَه الله منهم ثمّ أهلكهم ببدر. ٤٣ ـ ﴿أم لَهُم إلـٰـهٌ غيرُ اللهِ؟ سُبحانَ اللهِ عَمّا يُشرِكُونَ﴾ به من الآلهة! والاستفهام بـ «أم» في مواضعها للتقبيح والتوبيخ.

٤٤ ـ ﴿وإن يَرَوا كِسْفًا﴾: بعضًا ﴿مِنَ السَّماءِ ساقِطًا﴾ عليهم، كما قالوا: «فأسقِطْ علَينا كِسْفًا مِنَ السَّماءِ» أي: تعذيبًا لهم، ﴿يَقُولُوا﴾: هذا ﴿سَحابٌ مَركُومٌ﴾: مُتراكب نَرتوِي به، ولا يُؤمنوا. ٤٥ ـ ﴿فذَرْهُم حَتَّى يُلاقُوا يومَهُمُ الَّذِي فِيهِ يَصعَقُونَ﴾: يَموتون، ٤٦ ـ ﴿يومَ لا يُغني﴾: بدلٌ من «يومَهم» ﴿عَنهُم كَيدُهُم شَيئًا! ولا هُم يُنصَرُونَ﴾: يُمنعون من العذاب في الآخرة. ٤٧ ـ ﴿وإنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ بكُفرهم ﴿عَذابًا دُونَ ذلِكَ﴾ في الدنيا، قبل موتهم ـ فعُذِّبوا بالجوع والقحط سبعَ سنين وبالقتل يوم بدر ـ ﴿ولكِنَّ أكثَرَهُم لا يَعلَمُونَ﴾ أنّ العذاب ينزل بهم.

٤٨ ـ ﴿واصبِرْ لِحُكمِ رَبِّكَ﴾ بإمهالهم ولا يضِقْ صدرك ـ ﴿فإنَّكَ بِأعيُنِنا﴾: بمرأى منّا نراك ونحفظك ـ ﴿وسَبِّحْ﴾ مُلتبسًا ﴿بِحَمدِ رَبِّكَ﴾ أي: قل: سبحانَ اللهِ وبحمده، ﴿حِينَ تَقُومُ﴾ من منامك أو من مجلسك، ٤٩ ـ ﴿ومِنَ اللَّيلِ فسَبِّحْهُ﴾ حقيقةً أيضًا ﴿وإدبارَ النُّجُومِ﴾: مصدرٌ، أي: عَقِبَ غُروبها سبّحْه أيضًا، أو صلِّ في الأوّل العِشاءين وفي الثاني الفجرَ، وقيل: الصُّبحَ.

قولُهُ: (ذَلِكَ) منهُ.

قولُهُ: (بِهِ) أي: شِرْكةِ ما يُشرِكونَ به، أو عن إشراكِهِمْ.

قولُهُ: (بَعْضاً) أي: قطعةً.

قولُهُ: (مُتَرَاكِبٌ) أي: متراكمٌ بعضها على بعضٍ.

قولُهُ: (يَمُوتُونَ) وقرأها شاميٌّ وعاصمٌ بضمِّ الياءِ(١) من صعقَهُ أو أصعقَهُ.

قولُهُ: (أي: فِي الدُّنيَا) أو في البرزخِ.

قولُهُ: (بِمَرْأى) أي: في حِفظِنا بحيثُ نراكَ ونكلؤُك، وجمعُ العينِ لجمعِ الضَّميرِ، والمبالغةِ بكثرةِ أسبابِ الحفظِ.

قولُهُ: (مَجلِسِكَ) أي: في أيِّ مكانٍ قمْتَ.

قولُهُ: (حَقِيقَةً) أو مجازاً أُرِيْدَ به الصَّلاةُ، فإنَّ العبادةَ فيه أشقُّ على النَّفسِ، وأبعدُ عن الرِّياءِ، واللهُ أعلمُ.

---

(١) انظر: «العنوان في القراءات السبع» (ص: ١٨١).

سورة الطور

مكية كما روي عن ابن عباس وابن الزبير رضي الله عنهم، ولم نقف على استثناء شيءٍ منها، وهي تسعٌ وأربعون آيةً في الكوفي والشامي، وثمانٌ وأربعون في البصري، وسبعٌ وأربعون في الحجازي[1].

ومناسبةُ أولها لآخر ما قبلَها اشتمالُ كلٍّ على الوعيد، وقال الجلال السيوطي: وجهُ وَضْعها بعد «الذاريات» تشابُهُهما في المطلع والمقطع، فإنَّ في مطلع كلٍّ منهما صفةَ حالِ المتقين، وفي مقطع كلٍّ منهما صفةَ حال الكفار[2].

ولا يخفَى ما بين السورتَين الكريمَتين من الاشتراك في غير ذلك.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلطُّورِ ۝١﴾ الطور اسمٌ لكلِّ جبلٍ على ما قيل في اللغة العربية عند الجمهور، وفي اللغة السريانية عند بعضٍ، ورواه ابنُ المنذر وابنُ جرير عن مجاهد[3]. والمراد به هنا طورُ سِيْنِيْنَ الذي كلَّم الله تعالى موسى عليه السلام عنده، ويقال له: طورُ سيناء أيضاً. والمعروفُ اليومَ بذلك ما هو بقرب التِّيهِ بين مصرَ والعقبة.

وقال أبو حيان في تفسير سورة «والتين»: لم يختلف في طور سيناء أنَّه جبلٌ

---

(١) جاء في هامش الأصل: والاختلاف في «والطور» و«إلى نار جهنم دعًا».

(٢) تناسق الدرر في تناسب السور ص ٧٩.

(٣) الطبري ٢١/ ٥٦٠، وعزاه لابن المنذر السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١١٧.

بالشام، وهو الذي كلَّم اللهُ تعالى عليه موسى عليه السلام[١]، وقال في تفسيره هذه السورة: في الشام جبلٌ يُسمَّى الطور، وهو طورُ سيناء، فقال نوف البكالي: إنَّه الذي أقسَمَ الله سبحانه به لفضله على الجبال، قيل: وهو الذي كلَّم الله تعالى عليه موسى عليه السلام[٢]. انتهى، فلا تغفل.

وحكى الراغبُ أنَّه جبلٌ محيطٌ بالأرض[٣]! ولا يصحُّ عندي، وقيل: جبلٌ من جبال الجنة، وروى فيه ابنُ مردويه عن أبي هريرة وعن كثير بن عبد الله حديثاً مرفوعاً[٤]، ولا أظنُّ صحتَه، واستظهرَ أبو حيان أنَّ المراد الجنسُ لا جبلٌ معيَّن[٥]. وروي ذلك عن مجاهد والكلبي، والذي أُعوِّل عليه ما قدمته.

﴿وَكِتَٰبٍ مَّسۡطُورٍ ۝٢﴾ مكتوبٍ على وجه الانتظام، فإنَّ السطر ترتيبُ الحروف المكتوبة، والمرادُ به على ما قال الفراء: الكتابُ الذي يُكتَب فيه الأعمال، ويُعطاهُ العبدُ يوم القيامة بيمينه أو بشماله[٦]، وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿وَنُخۡرِجُ لَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ كِتَٰبٗا يَلۡقَىٰهُ مَنشُورًا﴾ [الإسراء: ١٣].

وقال الكلبي: هو التوراة. وقيل: هي والإنجيل والزبور. وقيل: القرآن. وقيل: اللَّوح المحفوظ. وفي «البحر»: لا ينبغي أنْ يحمل شيءٌ مِن هذه الأقوالِ على التعيين، وإنما تُورَدُ على الاحتمال[٧].

والتنكير قيل: للإفراد نوعاً، وذلك على القول بتعدُّده، أو للإفراد شخصاً، وذلك على القول المقابل، وفائدتُه الدلالةُ على اختصاصه من جنس الكتب بأمرٍ

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٤٨٩.
(٢) البحر المحيط ٨/ ١٤٦.
(٣) مفردات الراغب (طور).
(٤) عزاهما لابن مردويه السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١١٧، وكثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف قال عنه الدارقطني وغيره: متروك. ينظر ميزان الاعتدال ٢/ ٤٦٧ و٣/ ٤٠٦-٤٠٧.
(٥) البحر ٨/ ١٤٦.
(٦) معاني القرآن ٣/ ٩١.
(٧) البحر المحيط ٨/ ١٤٦.

يتميَّز به عن سائرها، والأولَى على وجهَي التنكير إذا حُمِلَ على أحد الكتابَين - أعني: القرآنَ والتوراة - أنْ يكونَ من باب ﴿لِيَجْزِىَ قَوْمًا﴾ [الجاثية:١٤]، ففي التنكير كمال التعريف، والتنبيه على أنَّ ذلك الكتاب لا يخفَى نُكِّر أو عُرِّف، ومِن هذا القبيل التنكير في قوله تعالى: ﴿فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ۝٣﴾ والرَّقُّ بالفتح ويكسر، وبه قرأ أبو السمال[١]: جلدٌ رقيقٌ يُكتَب فيه، وجمعُه رُقُوق، وأصلُه على ما في «مجمع البيان» من اللمعان يقال: تَرَقْرَقَ الشيءُ إذا لَمَعَ[٢]. أو من الرِّقة ضدُّ الصفاقة على ماقيل، وقد تجوِّزُ فيه عما يُكتَب فيه الكتاب من ألواحٍ وغيرها.

و«المنشور»: المبسوطُ، والوصفُ به قيل: للإشارة إلى صحة الكتابِ وسلامته من الخطأ حيث جُعِل معرضاً لنظر كلِّ ناظرٍ آمناً عليه من الاعتراض لسلامته عما يوجبه، وقيل: هو لبيان حاله التي تضمَّنتها الآيةُ المذكورة آنفاً بناءً على أنَّ المرادَ به صحائفُ الأعمال، ولبيان أنَّه ظاهرٌ للملائكة عليهم السلام يرجعون إليه بسهولة في أمورهم بناءً على أنَّه اللوح، أو للناس لا يمنعُهم مانعٌ عن مطالعته والاهتداءِ بهديه بناء على الأقوال الأُخَر.

وفي «البحر»: «منشور» منسوخٌ ما بين المشرق والمغرب[٣].

﴿وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ۝٤﴾ هو بيتٌ في السماء السابعة يدخلُه كلَّ يومٍ سبعونَ ألف ملَكٍ لا يعودُون إليه حتى تقوم الساعة، كما أخرج ذلك ابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في «الشعب» عن أنس مرفوعاً[٤].

وأخرج عبد الرزاق وجماعة عن أبي الطفيل أنَّ ابنَ الكوَّاء سأل علياً[٥] كرم الله

---

(١) المحرر الوجيز ٥/١٨٦، والبحر المحيط ٨/١٤٦.

(٢) مجمع البيان ٢٧/ ٢٥.

(٣) البحر المحيط ٨/ ١٤٦ دون قوله: منسوخ.

(٤) تفسير الطبري ٢١/ ٥٦٢-٥٦٣، والمستدرك ٢/ ٤٦٨، وشعب الإيمان (٣٩٩٣)، وعزاه لابن المنذر وابن مردويه السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١١٧.
وأخرجه أحمد (١٧٨٣٦)، والبخاري (٣٢٠٧)، ومسلم (١٦٤) من حديث أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة، ضمن حديث الإسراء.

(٥) في الأصل: سأل عنه علياً.

تعالى وجهه فقال: ذلك الضُّرَاحُ بيتٌ فوقَ سبع سماوات تحت العرش يدخلُه كلَّ يومٍ سبعون ألفَ ملك.. إلخ[1].

وجاء في روايةٍ عنه كرم الله تعالى وجهه، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أنَّه حيالَ الكعبة بحيث لو سَقَط سَقَط عليها[2].

وروي عن مجاهد وقتادة وابن زيد أنَّ في كلِّ سماءٍ بحيال الكعبة بيتاً حرمتُه كحرمتها، وعمارتُه بكثرة الواردين عليه من الملائكة عليهم السلام كما سمعتَ.

وقال الحسن: هو الكعبةُ يعمُرُه الله تعالى كلَّ سنةٍ بستِّ مئةِ ألفٍ من الناس، فإنْ نقصوا أتمَّ سبحانه العددَ من الملائكة. وأنت تعلم أنَّ من المجاز المشهور: مكان معمورٌ، بمعنى مأهول مسكون تَحُلُّ الناس في محلٍّ هو فيه، فعمارة الكعبة بالمجاورين عندها وبحُجَّاجها، صحَّ خبرُ الحسن المذكور أم لا.

﴿وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ۝٥﴾ أي: السماء كما رواه جماعة ـ وصحَّحه الحاكم ـ عن الأمير كرم الله تعالى وجهه[3].

وعن ابن عباس: هو العرش، وهو سقفُ الجنة. وأخرجه أبو الشيخ عن الربيع بن أنس[4]. وعليه لابأسَ في تفسير البيت المعمورِ بالسماء كما رُوي عن مجاهد، وعَمارتُها بالملائكة أيضاً، فما فيها موضعُ إهابٍ إلا وعليه ملكٌ ساجدٌ أو قائمٌ.

﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ۝٦﴾ أي: الموقد ناراً. أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ في «العظمة» عن سعيد بن المسيب قال: قال عليٌّ كرم الله تعالى وجهه لرجلٍ من اليهود: أينَ موضعُ النارِ في كتابكم؟ قال: البحر. فقال كرم الله تعالى وجهه: ما أراه إلا صادقاً، وقرأ: (وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ)، ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ

(١) مصنف عبد الرزاق (٨٨٧٥)، وأخرجه الطبري ٢١/ ٥٦٤، والضياء المقدسي في المختارة (٥٥٧).
(٢) الأثران في تفسير الطبري ٢١/ ٥٦٣-٥٦٤.
(٣) المستدرك ٢/ ٤٦٨، وأخرجه الطبري ٢١/ ٥٦٦.
(٤) العظمة (٢٥٣).

سُجِّرَتْ﴾ [التكوير:٦][١]. وبذلك قال مجاهد وشِمْرُ بن عطية والضحاك ومحمد بن كعب والأخفش.

وقال قتادة: «المسجور»: المملوء؛ يقال: سَجَرَه، أي: ملأه. والمرادُ به عند جمعٍ البحرُ المحيط.

وقيل: بحرٌ في السماء تحت العرش، وأخرج ذلك ابن أبي حاتم وغيرُه عن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه[٢]، وابن جرير عن ابن عمرو رضي الله عنهما[٣]. وفي «البحر» أنَّهما قالا[٤]: فيه ماء غليظٌ، ويقال له: بحرُ الحياة يُمطَرُ العبادُ منه بعد النفخةِ الأُولَى أربعينَ صباحاً، فينبتون في قبورهم.

وأخرج أبو الشيخ عن الربيع أنَّه الماء الأعلى الذي تحت العرش[٥]. وكأنَّه أراد به الفضاءَ الواسعَ المملوء ملائكةً.

وعن ابن عباس: «المسجور»: الذي ذهب ماؤُه، ورَوَى ذو الرُّمَّة الشاعر ـ وليس له كما قيل حديثٌ غيرُ هذا ـ عن الحِبْر قال: خرجَتْ أمةٌ لتستقي فقالت: إنَّ الحوض مسجورٌ، أي: فارغ، فيكونُ من الأضداد[٦]. وحُمِل كلامُه رضي الله عنه على إرادة البحرِ المعروف، وأنَّ ذهاب مائه يومَ القيامة.

وفي رواية عنه أنَّه فسَّره بالمحبوس، ومنه: ساجور الكلب، وهي القلادةُ التي

(١) تفسير الطبري ٢١/ ٥٦٧-٥٦٨، والعظمة (٩٣١)، وأخرجه أيضاً البيهقي في البعث والنشور (٤٩٥).

(٢) عزاه لابن أبي حاتم السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١١٨، وأخرجه الطبري ٢١/ ٥٧٠.

(٣) تفسير الطبري ٢١/ ٥٧٠، ووقع في الأصل و(م): ابن عمر، والمثبت من تفسير الطبري والدر المنثور ٦/ ١١٨.

(٤) أي: زيادة على قولهما: بحر في السماء تحت العرش. البحر المحيط ٨/ ١٤٧.

(٥) العظمة (٢٥٣)، ووقع في الأصل و(م): الملأ، بدل: الماء. والمثبت من العظمة، ومثله في الدر المنثور ٦/ ١١٨.

(٦) البحر المحيط ٨/ ١٤٦، والخبر أخرجه الثعلبي في تفسيره ٩/ ١٢٥، والشيرازي في الألقاب كما في الدر المنثور ٦/ ١١٨.

تمسكه، وكأنَّه عنى: المحبوس مِن أنْ يَفيضَ فيُغرقَ جميعَ الأرض، أو يَغيضَ فتبقَى الأرضُ خاليةً منه.

وقيل: «المسجور» المختلطُ، وهو نحو قولهم للخليل المخالط: سجيرٌ، وجعَلَه الراغبُ من سجرتُ التنُّورَ؛ لأنَّه سجيرٌ في مودَّة صاحبه(١). والمرادُ بهذا الاختلاط: تلاقي البحار بمياهها واختلاطُ بعضها ببعضٍ، وعن الربيع: اختلاطُ عَذْبها بملحها. وقيل: اختلاطُها بحيوانات الماء.

وقيل: المفجورُ، أَخْذاً من قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾ ويحتمله ما أخرجه ابنُ المنذر عن ابن عباس من تفسيره بالمرسل(٢)، وإذا اعتُبر هذا مع ما تقدَّم عنه آنفاً من تفسيره بالمحبوس يكون مِن الأضداد أيضاً.

وقال منبه(٣) بن سعيد: هو جهنم سُمِّيَت بحراً لسعتها وتموُّجها.

والجمهورُ على أنَّ المراد به بحرُ الدنيا، وبه أقول، وبأنَّ المسجور بمعنى المُوقَد.

ووَجْه التناسب بين القرائن بعد تعيُّن ما سيق له الكلام لائحٌ، وهو هاهنا إثباتُ تأكيدِ عذابِ الآخرة وتحقيقُ كينونته ووقوعه، فأَقسَمَ سبحانه له بأمورٍ كلُّها دالةٌ على كمال قدرته عز وجل، مع كونها متعلِّقةً بالمبدأ والمعاد، فالطور لأنَّه محلُّ مكالمة موسى عليه السلام، ومهبطُ آيات المبدأ والمعاد يناسبُ حديثَ إثبات المعاد، وكتاب الأعمال كذلك مع الإيماء إلى أنَّ إيقاعَ العذاب عدلٌ منه تعالى فقد تحقَّق، ودوِّن في «الكتاب» ما يجرُّ إليه قبل.

«والبيت المعمور» لأنَّه مَطافُ الرسل السماوية، ومظهرٌ لعظمته تعالى، ومحلٌّ لتقديسهم وتسبيحهم إياه جلَّ وعلا.

«والسقف المرفوع» لأنَّه مستقرُّهم ومنه تَنزِلُ الآيات، وفيه الجنة.

---

(١) مفردات الراغب (سجر).

(٢) عزاه لابن المنذر السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١١٨.

(٣) كذا في الأصل و(م)، وفي البحر ٨/ ١٤٧ (والكلام منه): قتيبة بن سعيد، ولعل الصواب: منذر بن سعيد، كما في المحرر الوجيز ٥/ ١٨٧.

«والبحر المسجور» لأنَّه محلُّ النار.

وإذا حُمِلَ الكتاب على التوراة كان التناسبُ مع ما قبلَه حسبَ النظر الجليل أظهرَ. ولم يحمله عليها كثيرٌ لزَعْمِ أنَّ «الرق المنشور» لا يناسبُها لأنَّها كانت في الألواح، ولا يخفى عليك أنَّ شيوعَ الرَّق فيما يُكتَب فيه الكتاب مطلقاً يُضعِّف هذا الزعم في الجملة، ثم إنَّ المعروف أنَّ التوراة لا يكتبُها اليهودُ اليوم إلا في رَقٍّ، وكأنَّهم أخذوا ذلك من أسلافهم.

وقال الإمام: يحتملُ أنْ تكونَ الحكمةُ في القَسَم بـ «الطور» و«البيت المعمور» و«البحر المسجور» أنَّها أماكنُ خَلوةٍ لثلاثة أنبياء مع ربِّهم سبحانه، أما الطورُ فلموسى عليه السلام، وقد خاطَبَ عنده ربَّه عز وجل بما خاطب، وأما البيتُ المعمور فلرسول الله ﷺ وقد قال عنده: «سلامٌ علينا وعلى عبادِ الله الصالحين»[1]، «لا أُحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيتَ على نفسك»[2]؛ وأما البحرُ فليونسَ عليه السلام قال فيه: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء:٨٧] فلشرفها بذلك أَقسَم الله تعالى بها، وأما ذِكرُ «الكتاب» فلأنَّ الأنبياء كان لهم في هذه الأماكن كلامٌ، والكلامُ في الكتاب، وأما ذِكرُ «السقف المرفوع» فلبيان رِفعة البيت المعمور ليعلم عظمة شأنِ النبي ﷺ، ثم ذكر وجهاً آخرَ[3]، ولعمري إنَّه لم يأتِ بشيء فيهما.

والواو الأُولى للقسم وما بعدَها على ما قال أبو حيان للعطف، والجملةُ المقسَمُ عليها قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝٧﴾[4] أي: لكائنٌ على شدةٍ، كأنَّه مهيَّأٌ في مكان مرتفعٍ فيقَعُ على مَن يحلُّ به من الكفار؛ وفي إضافته إلى الربِّ مع إضافة الربِّ إلى ضميره عليه الصلاة والسلام أمانٌ له ﷺ، وإشارةٌ إلى أنَّ العذاب واقعٌ بمن كذَّبه.

---

(١) قطعة من حديث أخرجه أحمد (٢٦٦٥)، ومسلم (٤٠٣) عن ابن عباس، وسلف ١٠/ ٤٧٨.

(٢) أخرجه أحمد (٢٥٦٥٥)، ومسلم (٤٨٦) من حديث عائشة رضي الله عنها، وسلف ١/ ٢٦٢.

(٣) مفاتيح الغيب ٢٨/ ٢٤٠ بنحوه.

(٤) البحر المحيط ٨/ ١٤٧.

وقرأ زيد بنُ عليٍّ رضي الله عنهما: «واقعٌ» بدون لام[١].

وقوله تعالى: ﴿مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ﴿٨﴾﴾ خبرٌ ثانٍ لـ «إنَّ» أو صفةٌ لـ «وَاقع» أو هو جملةٌ معترضة، و«مِن دافع» إما مبتدأ للظرف أو مرتفِعٌ به على الفاعلية، و«مِن» مزيدةٌ للتأكيد. ولا يخفى ما في الكلام من تأكيد الحكمِ وتقريره.

وقد رُوي أنَّ عمر رضي الله عنه قرأ من أول السورة إلى هنا فبكى ثم بكى حتى عِيْدَ من وَجَعِه وكان عشرين يوماً.

وأخرج أحمد وسعيد بن منصور وابن سعد عن جُبير بن مطعم قال: قدمتُ المدينةَ على رسول الله ﷺ لأكلِّمه في أُسارَى بدرٍ، فدفعتُ إليه وهو يُصلِّي بأصحابه صلاة المغرب، فسمعتُه يقرأُ: (وَٱلطُّورِ) إلى: (إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ * مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ) فكأنما صُدِعَ قلبي[٢]. وفي روايةٍ: فأسلمتُ خوفاً من نزول العذاب، وما كنتُ أظنُّ أنْ أقومَ مِن مقامي حتى يقعَ بي العذاب. وهو لا يأبى أن يكون المرادُ الوقوعَ يومَ القيامة.

ومن غريب ما يُحكَى أنَّ شخصاً رأى في النوم[٣] مكتوباً في كفِّه خمسَ واواتٍ فعُبِّرَت له بخير، فسألَ ابنَ سيرين فقال: تَهيَّأ لما لا يَسُرُّ. فقال له: مِن أين أخذتَ هذا؟ فقال: من قوله عز وجل: (وَٱلطُّورِ) إلى (إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ) فما مضَى يومان أو ثلاثة حتى أُحيطَ بذلك الشخص[٤].

وقوله سبحانه: ﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ﴿٩﴾﴾ منصوبٌ على الظرفية وناصبُه «واقعٌ» أو «دافعٌ» أو معنى النفي، وإيهامُ أنَّه لا ينتفي دفعُه في غير ذلك اليوم بناءً على اعتبار المفهوم لا ضيرَ فيه لعدم مخالفته للواقع؛ لأنَّه تعالى أمهلَهم في الدنيا

---

(١) المصدر السابق.
(٢) مسند أحمد (١٦٧٦٢)، وعزاه لسعيد بن منصور وابن سعد السيوطي في الدر المنثور ٦/١١٨. وأخرج نحوه البخاري (٧٦٥)، ومسلم (٤٦٣).
(٣) قوله: في النوم، ليس في (م).
(٤) البحر المحيط ٨/١٤٧.

وما أهملهم، ومنَعَ مكي أنْ يعمل فيه «واقع»[(١)]، ولم يذكر دليلَ المنع[(٢)]؛ ولا دليلَ له فيما يظهرُ.

ومعنى «تمور»: تضطربُ كما قال ابن عباس، أي: ترتجُّ وهي في مكانها، وفي رواية عنه: تشقَّقُ. وقال مجاهد: تدورُ. وأصل المور التردُّد في المجيء والذهاب، وقيل: التحرُّك في تموُّج، وقيل: الجَرَيان السريع، ويقال للجَرْي مطلقاً، وأنشدوا للأعشى:

كأنَّ مشْيَتَها مِن بيتِ جارتِها ... مورُ السحابة لا ريثٌ ولا عَجَلُ[(٣)]

﴿وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ۝١٠﴾ عن وجه الأرض، فتكونُ هباءً منبثّاً، والإتيان بالمصدرَين للإيذان بغرابتهما وخروجهما عن الحدود المعهودة، أي: موراً عجيباً وسيراً بديعاً لا يُدرَك كنههما.

﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ﴾ أي: إذا وقع ذلك ـ أو إذا كان الأمر كما ذكر ـ فويلٌ يوم إذ يقع ذلك ﴿لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ۝١٢﴾ أي: في اندفاعٍ عجيبٍ في الأباطيل والأكاذيب يلهون، وأصلُ الخوض المشيُ في الماء ثم تُجوِّزَ فيه عن الشروع في كلِّ شيءٍ، وغَلَب في الخوض في الباطل، كالإحضار عامٌّ في كلِّ شيءٍ ثم غَلَب استعمالُه في الإحضار للعذاب.

﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ۝١٣﴾ أي: يُدفعون دفعاً عنيفاً شديداً بأنْ تُغلَّ أيديهم إلى أعناقهم وتُجمَعَ نواصيهم إلى أقدامهم، فيدفعون إلى النار ويطرحون

---

(١) كذا في الأصل و(م)، ومطبوع البحر المحيط ٨/ ١٤٧ والكلام منه، والصواب: «دافع» كما في مشكل إعراب القرآن لمكي بن أبي طالب ٢/ ٦٩٠، والمحرر الوجيز ٥/ ١٨٧، والدر المصون ١٠/ ٦٥.

(٢) كذا نقل المصنف عن أبي حيان في البحر، والصواب أن مكي قد ذكر دليل المنع في مشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٩٠، ولكن تعقبه السمين بقوله: وهذا كلام صحيح في نفسه إلا أنه ليس في الآية شيء من ذلك.

(٣) ديوان الأعشى ص ١٠٥، والصحاح (مور)، والمحرر الوجيز ٥/ ١٨٧، ورواية الديوان: مرُّ، بدل: مور.

فيها. وقرأ زيد بنُ عليٍّ والسلمي وأبو رجاء: «يُدْعَون» بسكون الدال وفتح العين[١] من الدعاء، فيكون «دَعًا» حالاً، أي: يُنادَون إليها مَدعُوعِين[٢].

و«يوم» إما بدلٌ من «يوم تمور» أو ظرفٌ لقولٍ مقدَّر محكيٌّ به قولُه تعالى: ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ⑭﴾ أي: فيقال لهم ذلك يومَ.. إلخ، ومعنى التكذيب بها تكذيبُهم بالوحي الناطق بها.

وقوله تعالى: ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ﴾ توبيخٌ وتقريعٌ لهم حيث كانوا يسمُّونه سحراً، كأنَّه قيل: كنتُم تقولون للوحي الذي أنذركم بهذا: سحرٌ[٣]، أفهذا المصدَّقُ له سحرٌ أيضاً، وتقديمُ الخبر لأنَّه المقصودُ بالإنكار والمدارُ للتوبيخ.

﴿أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ أي: أم أنتم عُمْيٌ عن المخبَر به كما كنتم في الدنيا عُمياً عن الخبر، والفاء مؤذنةٌ بما ذكر[٤]، وذلك لأنَّها لمَّا كانت تقتضي معطوفاً عليه يصحُّ ترتُّبُ الجملة ـ أعني: «سحرٌ هذا» ـ عليه، وكانت هذه جملةً واردةً تقريعاً مثل: «هذه النار» إلخ لم يكن بدٌّ من تقدير ذلك على وجهٍ يصحُّ الترتُّب، ويكون مدلولاً عليه من السياق، فقُدِّر: كنتم تقولون.. إلى آخره، ودلَّ عليه قولُه تعالى: (فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ) وقوله سبحانه: (هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ).

وفي «الكشف»: إنَّ هذا نظيرُ ما تستدلُّ بحجَّةٍ فيقول الخصم: هذا باطلٌ. فتأتي بحجَّة أوضحَ من الأول مسكتةٍ وتقول: أفباطل هذا؟! تُعيِّره بالإلزام وبأنَّ[٥] مقالته الأُولَى كانت باطلةً، وفي مثله جاز أنْ يقدَّر القول على معنى: أفتقولُ: باطلٌ هذا، وأنْ لا يقدَّر لابتنائه على كلام الخصمِ وهذا أبلغُ.

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ١٨٧، والبحر المحيط ٨/ ١٤٧.
(٢) في هامش (م): الحال مقدرة لأن الدفع بعد الدعوة، وقيل: إنها مقارنة بإجراء قرب الوقوع مجرى المقارنة، وفيه نظر.
(٣) في (م): سحراً.
(٤) في الأصل: ذكرنا.
(٥) في (م): بأن.

و«أمْ» كما هو الظاهر منقطعةٌ، وفي «البحر»: لمَّا قيل لهم: هذه النار وقفُوا على الجهتَين اللَّتَين يمكن منهما دخولُ الشكِّ في أنَّها النار، وهي إما أنْ يكون ثَمَّ سحرٌ يلبس ذاتَ المرئي، وإما أنْ يكون في ناظر الناظر اختلالٌ[١]. والظاهرُ أنَّه جعل «أم» معادِلةً، والأول أبعدُ مغزًى.

﴿ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟﴾ أي: ادخلُوها وقاسُوا شدائدَها فافعلُوا ما شئتُم من الصبر وعدمه.

﴿سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي: الأمران سواءٌ عليكم في عدم النفع، إذ كلٌّ لا يدفعُ العذاب ولا يخفِّفُه، فـ «سواء» خبرُ مبتدأ محذوفٍ، وصحَّ الإخبار به عن المثنَّى لأنَّه مصدرٌ في الأصل، وجوِّزَ كونُه مبتدأً محذوفَ الخبر وليس بذاك.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ تعليلٌ للاستواء؛ فإنَّ الجزاء حيثُ كان متحتِّمَ الوقوع لسَبْق الوعيد به وقضائه سبحانه إياه بمقتضَى عدله كان الصبرُ وعدمُه مستويَين في عدم النفع.

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾﴾ شروعٌ في ذكر حال المؤمنين بعد ذكر حال الكافرين، كما هو عادةُ القرآن الجليل في الترهيب والترغيب، وجوِّزَ أنْ يكونَ من جملة المقول للكفار، إذ ذاك زيادةٌ في غَمِّهم وتنكيدهم، والأَوَّلُ أظهرُ، والتنوين في الموضعَين للتعظيم، أي: في جناتٍ عظيمة ونعيم عظيم، وجوِّز أنْ يكونَ للنوعية، أي: نوعٌ من الجنات ونوعٌ من النعيم مخصوصَين بهم، وكونُه عوضاً عن المضاف إليه، أي: جناتهم ونعيمهم، ليس بالقوي كما لا يخفَى.

﴿فَٰكِهِينَ﴾ متلذِّذين ﴿بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ من الإحسان، وقرئ: «فَكِهِينَ» بلا ألف[٢]، ونصبه في القراءتَين على الحال من الضمير المستتر في الجارِّ والمجرور، أعني «في جنات» الواقع خبراً لـ «إنَّ»، وقرأ خالد: «فاكهون» بالرفع[٣]

---

(١) البحر المحيط ٨/ ١٤٨.

(٢) هي قراءة أبي جعفر كما في النشر ٢/ ٣٥٤.

(٣) البحر المحيط ٨/ ١٤٨.

على أنَّه الخبر، و«في جنات» متعلِّقٌ به، لكنَّه قُدِّم عليه للاهتمام، ومَن أجاز تعدُّد الخبر أجازَ أنْ يكونَ خبراً بعد خبر.

﴿وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ عطف على «في جنات» على تقدير كونه خبراً، كأنَّه قيل: استقروا في جنات وَوَقاهم ربُّهم.. إلخ، أو على «آتاهم» إنْ جعلت «ما» مصدرية، أي: فاكهين بإيتائهم ربُّهم ووقايتهم عذابَ الجحيم، ولم يجوِّز كثيرٌ عطفَهُ عليه إنْ جُعِلَت موصولةً إذ يكون التقدير: فاكهين بالذي وقاهم ربُّهم، فلا يكون راجعٌ إلى الموصول، وجوَّزه بعضٌ بتقدير الراجع، أي: وقاهم به، على أنَّ الباء للملابسة.

وفي «الكشف»: لم يحمل على حذف الراجع لكثرة الحذفِ، ولو دَرَج لصار الفعل من المتعدِّي إلى ثلاثة مفاعيل، وهو مسموعٌ عند بعضهم ولا يخفى أنَّه وجهٌ سديدٌ أيضاً، والمعنى عليه أسدُّ؛ لأنَّ الفكاهة تلذُّذٌ يشتغل به صاحبُه، والتلذُّذ بالإيتاء يحتمل التجدُّد باعتبار تعدُّد المؤتَى، أما بالوقاية ـ أي: على تقدير المصدرية ـ فلا، وأقولُ: لعلَّه هو المنساقُ إلى الذهن.

وجوِّز أنْ يكونَ حالاً بتقدير «قد» أو بدونه، إما من المستكنِّ في الخبر، أو في الحال، وإما مِن فاعل «آتى»، أو من مفعوله، أو منهما. وإظهارُ الربِّ في موقع الإضمار مضافاً إلى ضميرهم للتشريف والتعليل.

وقرأ أبو حيوة: «وقَّاهم» بتشديد القاف(١).

﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا﴾ أي: يقال لهم: كلوا واشربوا أكلاً وشُرباً هنيئاً، أو: طعاماً وشراباً هنيئاً، فالكلام بتقدير القول، و«هنيئاً» نصب على المصدرية، لأنَّه صفة مصدر، أو على أنَّه مفعول به، وأيَّاما كان فقد تنازعَه الفعلان، والهَنِيءُ كلُّ ما لا يلحقُ فيه مشقَّة ولا يُعقِبُ وخامة.

﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: بسببه أو بمقابلته، والباء عليهما متعلِّقٌ بـ «كلوا

(١) المحرر الوجيز ٥/١٨٨، والبحر المحيط ٨/١٤٨.

واشربوا» على التنازع، وجوَّز الزمخشريُّ كونَها زائدةً، وما بعدها فاعل «هنيئاً»[١] كما في قول كُثيِّر:

هـنـيـئـاً مـريـئـاً غـيـرَ داءٍ مُـخـامـرٍ لـعـزَّةَ مـن أعـراضـنـا مـا اسـتـحـلَّـتِ[٢]

فإنَّ «ما» فيه فاعل «هنيئاً» على أنَّه صفة في الأصل بمعنى المصدر المحذوف فعلُه وجوباً لكثرة الاستعمال، كأنَّه قيل: هَنُؤَ لعزَّة المستحَلُّ مِن أعراضنا، وحينئذٍ كما يجوزُ أنْ يجعل «ما» هنا فاعلاً على زيادة الباء على معنى: هنأكم ما كنتُم تعملون، يجوز أنْ يجعل الفاعلُ مضمَراً راجعاً إلى الأكل أو الشرب المدلولِ عليه بفعله.

وفيه أنَّ الزيادةَ في الفاعل لم تثبت سماعاً في السعة في غير فاعل كَفَى[٣] على خلافٍ، ولا هي قياسيةٌ في مثل هذا، ومع ذلك يحتاجُ الكلام إلى تقدير مضافٍ، أي: جزاء ما كنتمُ. . إلخ، وفيه نوعُ تكلُّفٍ.

﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾ نصب على الحال قال أبو البقاء: من الضمير في «كلوا» أو في «وقاهم» أو في «آتاهم» أو في «فاكهين» أو في الظرف يعني «في جنات»[٤]، واستظهرَ أبو حيان الأخيرَ[٥].

﴿عَلَىٰ سُرُرٍ﴾ جمع سرير، معروف، ويُجمَع على أسرَّة، وهو من السرور إذ كان لأُولي النعمة، وتسمية سرير الميت به للتفاؤل بالسرور الذي يلحَقُ الميت برجوعه إلى جوار الله تعالى وخلاصِهِ من سجن الدنيا.

---

(١) الكشاف ٤/ ٢٤.

(٢) ديوان كثير ص ٧٨، قوله: مخامر، أي: مخالط. اللسان (خمر).

(٣) جاء في هامش الأصل: قيل قد سمعت الزيادة في غير فاعل كفى كما في قوله:

ألـم يـأتـيـك والأنـبـاء تـنـمـي بـمـا لاقـت لـبـون بـنـي زيـاد

ولا يخفى أنه لا يضر. انتهى.

(٤) إملاء ما من به الرحمن ٤/ ٣٥٤.

(٥) البحر المحيط ٨/ ١٤٨.

وقرأ أبو السمال: «سُرَر» بفتح الراء[1]، وهي لغةٌ لكلبٍ في المضعَّف فراراً من توالي ضمَّتَين مع التضعيف.

﴿مَّصۡفُوفَةٖ﴾ مجعولة على صفٍّ وخطٍّ مُستوٍ ﴿وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٖ﴾ أي: قرنَّاهم بهنَّ، قاله الراغب ثم قال: ولم يجيء في القرآن: زوَّجناهم حوراً، كما يقال: زوَّجته امرأةً، تنبيهاً على أنَّ ذلك لا يكونُ على حسب المتعارف فيما بيننا من المناكحة[2]، وقال الفراء: تزوجتُ بامرأة، لغةُ أَزْدِ شَنُوءة[3].

والمشهورُ أنَّ التزوُّج متعدٍّ إلى مفعول واحدٍ بنفسه، والتزويجَ متعدٍّ بنفسه إلى مفعولَين، وقيل فيما هنا: إنَّ الباء لتضمين الفعل معنى القِران أو الإلصاق. واعترض بأنَّه يقتضي معنى التزويج بالعقد، وهو لا يُناسبُ المقام، إذ العقدُ لا يكون في الجنة؛ لأنَّها ليست دارَ تكليفٍ، أو أنَّها للسببية والتزويجُ ليس بمعنى الإنكاح، بل بمعنى تصييرهم زوجَين زوجَين، أي: صيَّرناهم كذلك بسبب حورٍ عينٍ.

وقرأ عكرمة: «بحورِ عينٍ»[4] على إضافةِ الموصوف إلى صفتِهِ بالتأويل المشهور.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ إلخ كلامٌ مستأنَفٌ مسوقٌ لبيان حال طائفةٍ من أهل الجنة إثْرَ بيان حال الكلِّ، وهم الذين شاركتهم ذريتُهم في الإيمان، والموصولُ مبتدأٌ خبرُه «ألحقنا بهم»، وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم﴾ عطف على «آمنوا»، وقيل اعتراضٌ للتعليل، وقوله تعالى: ﴿بِإِيمَٰنٍ﴾ متعلِّقٌ بالاتِّباع، أي: اتَّبَعَتهم ذريَّتُهم بإيمان في الجملة، قاصرٍ عن رُتبة إيمانِ الآباء، إما بنفسه بناءً على تفاوت مراتبِ نفس الإيمان، وإما باعتبار عدم انضمامِ أعمالٍ مثلِ أعمال الآباء إليه، واعتبارُ هذا القيد للإيذان بثبوت الحكم في الإيمان الكامل أصالةً لا إلحاقاً.

(١) المحرر الوجيز ٥/ ١٨٨، والبحر المحيط ٨/ ١٤٨.
(٢) مفردات الراغب (زوج).
(٣) تهذيب اللغة للأزهري ١١/ ١٥٢، وحاشية الشهاب ٨/ ١٠٣.
(٤) القراءات الشاذة ص ١٤٦، والبحر المحيط ٨/ ١٤٦.

وقيل[1]: هو حالٌ من الذرية، وقيل: من الضمير، وتنوينُه للتعظيم. وقيل: منهما وتنوينُه للتنكير، والمعوَّل عليه ما قدَّمنا.

﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ في الدرجة؛ أخرج سعيد بن منصور وهنَّاد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم والبيهقي في «سننه» عن ابن عباس قال: إنَّ الله تعالى ليرفَعُ ذريَّةَ المؤمن معه في درجته في الجنة، وإنْ كانوا دونَه في العمل، لتقرَّ بهم عينُه، ثم قرأ الآية[2]. وأخرجه البزار وابن مردويه عنه مرفوعاً إلى النبي ﷺ[3]، وفي رواية ابن مردويه والطبراني عنه أنَّه قال: إنَّ النبي ﷺ قال: «إذا دَخَل الرجلُ الجنةَ سألَ عن أبويه وزوجتِهِ وولده فيقال له: إنَّهم لم يَبلُغُوا درجَتك وعملَك. فيقول: يا ربِّ قد عملتُ لي ولهم، فيؤمَرُ بإلحاقهم به» وقرأ ابن عباس الآية[4].

وظاهرُ الأخبار أنَّ المراد بإلحاقهم بهم إسكانُهم معهم لا مجرَّدُ رَفْعهم إليهم واتِّصالهم بهم أحياناً ولو للزيارة. وثبوت ذلك على العموم لا يبعد من فضل الله عز وجل، وما قيل: لعلَّه مخصوصٌ ببعضٍ دون بعض، تحجيرٌ لإحسانه الواسع جل شأنه، وقد يُستأنَسُ للتخصيص بما روي عن ابن عباس: أنَّ الذين آمنوا المهاجرون والأنصار، والذرية التابعون. لكنْ لا أظنُّ صحَته.

﴿وَمَآ أَلَتْنَٰهُم﴾ أي: وما نقصنا الآباء بهذا الإلحاقِ ﴿مِّنْ عَمَلِهِم﴾ أي: من ثواب عملهم ﴿مِّن شَيْءٍ﴾ أي: شيئاً بأنْ أعطينا بعضَ مثوباتهم أبناءَهم فتنقصُ مثوباتهم وتنحطُّ درجتُهم، وإنما رفعناهم إلى منزلتهم بمحض التفضُّلِ والإحسان.

---

(١) في (م): قيل.

(٢) الزهد لهناد (١٧٩)، وتفسير الطبري ٢١/ ٥٧٩، والمستدرك ٢/ ٤٦٨، وسنن البيهقي ١٠/ ٢٦٨، وعزاه لسعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبي حاتم السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١١٩.

(٣) مسند البزار(٢٢٦٠ - كشف)، وعزاه لابن مردويه السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١١٩، قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ١١٤: وفيه قيس بن الربيع، وثقه شعبة والثوري، وفيه ضعف.

(٤) المعجم الكبير (١٢٢٤٨)، والمعجم الصغير (٦٤٠)، وعزاه لابن مردويه السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١١٩، قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ١١٤: وفيه محمد بن عبد الرحمن بن غزوان وهو ضعيف.

وقال ابن زيد: الضميرُ عائدٌ على الأبناء، أي: وما نقصنا الأبناء الملحَقِين من جزاء عملهم الحسنِ والقبيح شيئاً، بل فعلنا ذلك بهم بعدَ مجازاتهم بأعمالهم كَمَلاً. وليس بشيء وإنْ قال أبو حيان: يُحسِّنُ هذا الاحتمال قوله تعالى: ﴿كُلُّ ٱمْرِيٍٕ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾[1].

وإلى الأول ذهب ابن عباس وابن جبير والجمهور، والآية على ما ذهب إليه المعظم في الكبار من الذرية، وقال منذر بن سعيد: هي في الصغار.

ورُوي عن الحبر والضحاك أنَّهما قالا: إنَّ الله تعالى يُلحقُ الأبناء الصغار وإنْ لم يبلُغُوا زمن الإيمان بآبائهم المؤمنين، وجعل «بإيمانٍ» عليه متعلِّقاً بـ «ألحقنا»، أي: ألحقنا بسبب إيمانِ الآباء بهم ذريَّتَهم الصغار الذين ماتوا ولم يبلُغُوا التكليفَ، فهم في الجنة مع آبائهم قيل: وكأنَّ مَن يقول بذلك يفسِّر «اتَّبعتهم ذريتُهم» بـ: ماتوا ودَرَجوا على أثرهم قبل أنْ يبلُغُوا الحُلُم.

وجوِّز أنْ يتعلَّق «بإيمان» بـ «اتَّبعتهم» على معنى: اتَّبعوهم بهذا الوصف بأنْ حُكِمَ لهم به تبعاً لآبائهم، فكانوا مؤمنين حُكماً لصغرهم وإيمانِ آبائهم، والصغيرُ يُحكم بإيمانه تبعاً لأحد أبويه المؤمنِ. والكلُّ كما ترى.

وقيل: الموصولُ معطوفٌ على «حور»، والمعنى: قرنَّاهم بالحور وبالذين آمنوا، أي: بالرُّفقاء والجُلَساء منهم، فيتمتَّعون تارةً بملاعبة الحور، وأخرى بمؤانسة الإخوان المؤمنين، وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعَتْهُمْ﴾ عطف على «زوَّجناهم»، وقولُه سبحانه: ﴿بِإِيمَٰنٍ﴾ متعلِّق بما بعده، أي: بسبب إيمانٍ عظيمٍ رفيعِ المحلِّ، وهو إيمانُ الآباء، ألحقنا بدرجاتهم ذريَّتَهم وإنْ كانوا لا يستأهلونها، تفضُّلاً عليهم وعلى آبائهم ليتمَّ سرورُهم ويكمُلَ نعيمُهم، أو بسبب إيمانٍ داني المنزلة، وهو إيمانُ الذرية، كأنَّه قيل: بشيءٍ من الإيمان لا يؤهِّلهم لدرجة الآباء ألحقناهم بهم.

---

(١) البحر المحيط ٨/ ١٤٩.

وصنيعُ الزمخشريِّ ظاهرٌ في اختيار العطف على «حور» فقد ذكره وجهاً أول[١].

وتعقَّبه أبو حيان بأنَّه لا يَتخيَّلُ ذلك أحدٌ غيرُ هذا الرجل، وهو تخيُّلُ أعجميٍّ مخالفٌ لفَهْم العربي القحِّ كابن عباس وغيره[٢]. وقيل عليه: إنَّه تعصُّبٌ منه، والإنصافُ أنَّ المتبادر الاستئنافُ، وأنَّ أحسنَ الأوجه في الآية وأوفقَهُ للمقام ما تقدَّم.

وقرأ أبو عمرو: «وأَتْبعناهم» بقطع الهمزة وفتحها، وإسكان التاء، ونون بعد العين وألف بعدها[٣]، أي: جعلناهم تابعين لهم في الإيمان، وقرأ أيضاً: «ذرياتهم» جمعاً نصباً[٤]. وابن عامر كذلك رفعاً[٥]، وقرئ: «ذِرياتهم» بكسر الذال[٦]. «وأتبعتُهم ذريتَهم» بتاء الفاعل ونصب «ذريتهم» على المفعولية[٧]. وقرأ الحسن وابن كثير: «أَلِتناهم» بكسر اللام[٨] من أَلِتَ يأْلَتُ كعَلِمَ يعلَم، وعلى قراءة الجمهور من باب ضَرَب يَضْرِب. وابن هرمز: «آلتناهم» بالمدِّ من آلَتَ يُؤْلِتُ[٩]، وابن مسعود وأبيّ: «لِتْنَاهم» من لات يليتُ، وهي قراءة طلحة والأعمش، ورُويَت عن شبل وابن كثير، وعن طلحة والأعمش أيضاً: «لَتناهم» بفتح اللام[١٠]، قال سهل: لا يجوزُ فتحُ اللام من غير ألفٍ بحال، وأنكَرَ أيضاً «آلتناهم» بالمدِّ، وقال: لا يُروَى عن أحدٍ ولا يدلُّ عليه تفسيرٌ ولا عربية[١١].

(١) الكشاف ٤/ ٢٤.
(٢) البحر المحيط ٨/ ١٤٩.
(٣) التيسير ص ٢٠٣، والنشر ٢/ ٣٧٧.
(٤) التيسير ص ٢٠٣، والنشر ٢/ ٣٧٧، وقرأ بها أيضاً يعقوب.
(٥) التيسير ص ٢٠٣، والنشر ٢/ ٣٧٧.
(٦) الكشاف ٤/ ٢٤.
(٧) الكشاف ٤/ ٢٤.
(٨) ذكرها عنهما أبو حيان في البحر المحيط ٨/ ١٤٩، وقراءة ابن كثير في التيسير ص ٢٠٣، والنشر ٢/ ٣٧٧.
(٩) القراءات الشاذة ص ١٤٦، والبحر المحيط ٨/ ١٤٩.
(١٠) القراءات الشاذة ص ١٤٦، والمحتسب ٢/ ٢٩٠، والبحر المحيط ٨/ ١٤٩.
(١١) البحر المحيط ٨/ ١٤٩.

وليس كما قال، بل نَقَل أهلُ اللغة آلت بالمدِّ كما قرأ هرمز. وقرئ: «وما وَلَتْناهم»[1] من وَلَت يَلِتُ، ومعنى الكلِّ واحد، وجاء أَلَتَ بمعنى غلُظ، يُروَى أنَّ رجلاً قام إلى عمر رضي الله عنه فوعَظَه فقال: لا تَأْلِت على أمير المؤمنين، أي: لا تُغلِظ عليه[2].

﴿كُلُّ ٱمْرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ﴾ أي: بكسبه وعمله ﴿رَهِينٌ ﴿٢١﴾﴾ أي: مرهون عند الله كأنَّ الكسبَ بمنزلة الدَّين، ونفسَ العبد بمنزلة الرهن، ولا ينفكُّ الرهنُ ما لم يُؤَدَّ الدين، فإنْ كان العمل صالحاً فقد أدَّى؛ لأنَّ العمل الصالح يقبله ربُّه سبحانه ويصعدُ إليه عز وجل، وإنْ كان غير ذلك فلا أداء فلا خلاصَ، إذ لا يصعدُ إليه سبحانه غيرُ الطَّيِّب، ولذا قال جل وعلا: ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ﴾ [المدثر: ٣٨-٣٩]، فإنَّ المرادَ: كلُّ نفسٍ رهنٌ بكسبها عند الله تعالى غير مفكوكٍ إلا أصحاب اليمين، فإنَّهم فكُّوا عنه رقابَهم بما أطابوه من كسبهم.

ووجهُ الاتصال على هذا أنَّه سبحانه لمَّا ذكر حالَ المتقين، وأنَّه عز وجل وَفَّر عليهم ما أعدَّه لهم من الثواب والتفضُّل، عقَّب بذلك الكلامِ ليدلَّ على أنَّهم فكُّوا رقابَهم وخلَّصوها، وغيرُهم بقي معذَّباً لأنَّه لم يَفُكَّ رقبتَه، وكان موضعُه من حيث الظاهرُ أنْ يكونَ عقيب قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ ليكونَ كلاماً راجعاً إلى حال الفريقَين: المدعُوعِين والمتقين، وإنما جعل متخلِّلاً بين أجزية المتقين عقيب ذكر توفيرِ ما أعدَّ لهم؛ قال في «الكشف»: ليدلَّ على أنَّ الخلاص من بعضِ أجزيتهم أيضاً، ويلزمُ أنَّ عدمَ الخلاص جزاءُ المقابلين من طريق الإيماء، وموقعه موقع[3] الاعتراض تحقيقاً لتوفير ما عدَّد؛ لأنَّه إنما يكونُ بعدَ الخلاص، وفيه إيماءٌ إلى أنَّ إلحاقَ الأبناء إنما كان تفضُّلاً على الآباء لا على الأبناء ابتداءً؛ لأنَّ التفضُّل فرعُ الفكِّ، وهؤلاء هم الذين فكُّوا فاستحقُّوا التفضُّل، وجعلُه استئنافاً بيانيّاً لهذا المعنى كما فعل الطيبي بعيدٌ.

---

(١) الكشاف ٤/ ٢٤، والنشر ٢/ ٣٧٧.
(٢) القراءات الشاذة ص ١٤٦، والبحر المحيط ٨/ ١٤٩.
(٣) في (م): وقع.

وقيل: «رهينٌ» فعيلٌ بمعنى الفاعل، والمعنى: كلُّ امرئ بما كسب راهن، أي: دائمٌ ثابت؛ وفي «الإرشاد»: أنَّه أنسبُ بالمقام، فإنَّ الدوام يقتضي عدمَ المفارقة بين المرء وعملِهِ، ومِن ضرورته أنْ لا ينقُصَ من ثواب الآباء شيءٌ، فالجملةُ تعليلٌ لِمَا قبلها[١]. وأنت تعلم أنَّ فعيلاً بمعنى المفعول أسرعُ تبادراً إلى الذهن، فاعتبارُه أولَى، ووجهُ الاتصال عليه أوفقُ وألطفُ كما لا يخفى.

﴿وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٖ وَلَحۡمٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ ۝٢٢﴾ أي: وزدناهم على ما كان لهم من مبادي التنعُّم وقتاً فوقتاً «مما يشتهون» من فنون النَّعماء وألوان الآلاء، وأصلُ المدِّ الجرُّ، ومنه المدةُ للوقت الممتدِّ، ثم شاعَ في الزيادة، وغَلَب الإمداد في المحبوب، والمدّ في المكروه، وكونُه وقتاً بعد وقتٍ [من][٢] مفهوم المدِّ نفسِه.

﴿يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأۡسٗا﴾ أي: يتجاذبونها في الجنة هم وجلساؤهم تجاذُبَ ملاعبةٍ، كما يفعل ذلك النَّدامَى بينهم في الدنيا لشدَّة سرورهم؛ قال الأخطل[٣]:

نازعتُه طيِّبَ الرَّاحِ الشَّمولِ وقد صاحَ الدجاجُ وحانَت وقعةُ الساري

وقيل: التنازعُ مجازٌ عن التعاطي، والكأسُ مؤنَّثٌ سماعيٌّ كالخمر، ولا تسمَّى كأساً على المشهور إلا إذا امتلأت خمراً، أو كانت قريبةً من الامتلاء، وقد تُطلَقُ على الخمر نفسِها مجازاً لعلاقة المجاورة.

وقال الراغب: الكأسُ: الإناء بما فيه من الشراب، ويسمَّى كلُّ واحدٍ منهما بانفراده كأساً[٤].

وفسَّرها بعضُهم هنا بالإناء بما فيه من الخمر، وبعضُهم بالخمر، والأولُ أوفقُ بالتجاذب، والثاني بقوله سبحانه: ﴿لَّا لَغۡوٞ فِيهَا﴾ أي: في شُرْبها، حيث لا يتكلَّمون في أثناء الشرب بلغو الحديثِ وسقطِ الكلام ﴿وَلَا تَأۡثِيمٞ﴾ ولا يفعلون ما يؤثَّم به

(١) إرشاد العقل السليم ٨/ ١٤٩.
(٢) ما بين حاصرتين من حاشية الشهاب ٨/ ١٠٥.
(٣) ديوانه ص ١١٦.
(٤) مفردات الراغب (كأس).

فاعلُه، أي: يُنسَب إلى الإثم لو فعله في دار التكليف، كما هو ديدَنُ الندامَى في الدنيا، وإنما يتكلَّمون بالحِكَمِ وأحاسنِ الكلام، ويفعلون ما يفعلُه الكرام.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: «لا لغوَ» «ولا تأثيمَ» بفتحهما[١].

﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: بالكأس ﴿غِلْمَانٌ لَّهُمْ﴾ أي: مماليكُ مختصُّون بهم، كما يُؤذِنُ به اللام، ولم يقل: غلمانهم، بالإضافة؛ لئلَّا يتوهَّم أنَّهم الذين كانوا يخدمونهم في الدنيا، فيُشفق كلُّ مَن خَدَم أحداً في الدنيا أنْ يكون خادماً له في الجنة، فيحزن بكونِهِ لايزال تابعاً.

وقيل: أولادهم الذين سبقوهم، فالاختصاص بالولادة لا بالملك. وفيه أنَّ التعبير عنهم بالغلمان غيرُ مناسب، وكذا نسبة الخدمة إلى الأولاد لا تُناسِب مقامَ الامتنان.

﴿كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾ مصون في الصدف لم تنلْهُ الأيدي، كما قال ابن جبير. ووجْهُ الشبه البياضُ والصفاء، وجوِّز أنْ يُراد بـ «مكنون»: مخزون؛ لأنَّه لا يُخزنُ إلا الحسنُ الغالي الثمن.

أخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر عن قتادة قال: بلغني أنَّه قيل: يا رسول الله، هذا الخادمُ مثل اللؤلؤ فكيف بالمخدوم؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «والذي نفسي بيده إنَّ فَضْل ما بينهم كفضل القمرِ ليلةَ البدْرِ على سائرِ الكواكب»[٢] وروي «أنَّ أدنَى أهلِ الجنةِ منزلةً مَن يُنادي الخادمَ مِن خُدَّامه فيُجيبُ[٣] ألفٌ ببابه: لبيك لبيك»[٤].

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾ أي: يسأل كلُّ بعضٍ منهم بعضاً آخر عن أحواله وأعماله، فيكون كلُّ بعضٍ سائلاً ومسؤولاً، لا أنَّه يسألُ بعضٌ معيَّنٌ منهم بعضاً آخر معيَّناً.

---

(١) التيسير ص ٨٢، والنشر ٢/ ٢١١.

(٢) تفسير عبد الرزاق ٢/ ٢٤٨، والطبري ٢١/ ٥٨٩-٥٩٠، وعزاه لابن المنذر السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١١٩.

(٣) في الأصل و(م): فيجيء، والمثبت من مسند الفردوس.

(٤) أخرجه الثعلبي في تفسيره ٩/ ١٢٩ من حديث عائشة رضي الله عنها.

ثم هذا التساؤل في الجنة كما هو الظاهر، وحكى الطبري عن ابن عباس أنَّه إذا بُعثُوا في النفخة الثانية(١). ولا أراه يصحُّ عنه لبعده جداً.

﴿قَالُوٓاْ﴾ أي: المسؤولون وهم كلُّ واحدٍ منهم في الحقيقة: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ﴾ أي: قبل هذا الحال ﴿فِيٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ﴾ أرقَّاءَ القلوب، خائفين من عصيان الله عز وجل، مُعتَنِين بطاعته سبحانه، أو: وَجِلِين من العاقبة، و«في أهلنا» قيل: يحتملُ أنَّه كنايةٌ عن كون ذلك في الدنيا، ويحتملُ أنْ يكونَ بياناً لكون إشفاقهم كان فيهم وفي أهلهم لِتَبَعيَّتهم لهم في العادة ويكون قوله تعالى: ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا﴾ أي: بالرحمة والتوفيق ﴿وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾ أي: عذابَ النار النافذةِ في المسامِّ نفوذَ السَّموم، وهو الريحُ الحارَّةُ المعروفة، ووجْهُ الشبه وإنْ كان في النار أقوَى لكنَّه في ريح السَّموم لمشاهدته في الدنيا أعرفُ، فلذا جُعِل مشبَّهاً به.

وقال الحسن: «السَّموم» اسمٌ مِن أسماء جهنَّم عامّاً لهم ولأهلهم، فالمرادُ بيانُ ما مَنَّ الله تعالى به عليهم مِن اتِّباع أهلهم لهم.

وقيل: ذكر «في أهلنا» لإثبات خوفهم في سائر الأوقاتِ والأحوالِ بطريق الأَولَى، فإنَّ كونهم بين أهليهم مظنَّةُ الأمنِ، ولا أرى فيه بأساً، نعم كون ذلك لأنَّ السؤالَ عما اختصُّوا به من الكرامة دون أهليهم ليس بشيءٍ.

وقيل: لعلَّ الأَولَى أنْ يجعل ذلك إشارةً إلى الشفقة على خلق الله تعالى كما أنَّ قوله عز وجل: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلُ نَدۡعُوهُۖ﴾ إلى آخره إشارةٌ إلى التعظيم لأمر الله تعالى، وتَرَك العاطفَ بجعل الثاني بياناً للأول ادعاءً للمبالغة في وجوب عدم انفكاكِ كلٍّ منهما للآخر. ولا يخفى ما فيه.

والذي يظهرُ أنَّ هذا إشارةٌ إلى الرجاء، وترك العطف لقصد تعْدَاد ما كانوا عليه، أي: إنَّا كنَّا من قبل ذلك نعبدُه تعالى ونسألُه الوقايَة.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ﴾ أي: المحسِنُ، كما يدلُّ عليه اشتقاقُه من البرِّ بسائر موادِّه، لأنَّها ترجعُ إلى الإحسان كـ : بَرَّ في يمينه، أي: صدق؛ لأنَّ الصدقَ إحسانٌ في

(١) تفسير الطبري ٢١/ ٥٩٠.

ذاته ويلزمُه الإحسانُ للغير، وأَبَرَّ الله تعالى حجَّه، أي: قبله؛ لأنَّ القبولَ إحسانٌ وزيادة، وأَبرَّ فلانٌ على أصحابه، أي: علاهم؛ لأنَّه غالباً ينشأُ عن الإحسان لهم، فتفسيرُه باللطيف كما روي عن ابن عباس، أو العالي في صفاته، أو خالق البِرِّ، أو الصادق فيما وَعَد أولياءه كما روي عن ابن جُريج، بعيدٌ، إلا أنْ يُراد بعضُ ماصَدُقَات أو غايات ذلك البِرِّ.

﴿الرَّحِيمُ﴾ الكثير الرحمة الذي إذا عُبِدَ أثاب وإذا سُئلَ أجاب.

وقرأ أبو حيوة: «ووقَّانا» بتشديد القاف[1]. والحسن وأبو جعفر ونافع والكسائي: «أنه» بفتح الهمزة لتقدير لام الجرِّ التعليلية قبلها، أي: لأنه[2].

﴿فَذَكِّرْ﴾ فاثبُت على ما أنت عليه من التذكير بما أُنزِلَ عليك من الآيات والذكرِ الحكيم، ولا تكترِث بما يقولون مما لا خيرَ فيه من الأباطيل.

﴿فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ﴾ هو الذي يُخبِرُ بالغيب بضَرْبٍ من الظنِّ، وخصَّ الراغبُ الكاهنَ بمَن يُخبِرُ بالأخبار الماضية الخفيةِ كذلك، والعرَّاف بمَن يُخبِرُ بالأخبار المستقبلةِ كذلك[3]. والمشهور في الكهانة الاستمداد من الجنِّ في الإخبار عن الغيب.

والباء في «بكاهن» مزيدةٌ للتأكيد، أي: ما أنت كاهنٌ ﴿وَلَا مَجْنُونٍ﴾ واختُلف في باء «بنعمة» فقال أبو البقاء: للملابسة؛ والجارُّ والمجرورُ في موضع الحال والعامل فيه «كاهن»، أو «مجنون»، والتقدير: ما أنت كاهنٌ ولا مجنونٌ ملتبساً بنعمة ربك[4]، وهي حالٌ لازمة؛ لأنَّه عليه الصلاة والسلام مازال ملتبساً بنعمة ربِّه عز وجل.

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ١٩٠، والبحر المحيط ٨/ ١٥٠.

(٢) البحر المحيط ٨/ ١٥٠، وقراءة أبي جعفر ونافع والكسائي في التيسير ص ٢٠٣، والنشر ٢/ ٣٧٧.

(٣) مفردات الراغب (كهن).

(٤) إملاء ما من به الرحمن ٤/ ٣٥٥، ونقله المصنف عنه بواسطة أبي حيان في البحر المحيط ٨/ ١٥١.

وقيل: للقسم، فـ «نعمة ربك» مقسَمٌ به، وجوابُ القسم ما عُلم من الكلام، وهو: ما أنت بكاهن ولا مجنون. وهذا كما تقول: ما زيدٌ والله بقائمٍ. وهو بعيدٌ.

والأقربُ عندي أنَّ الباء للسببية، وهو متعلِّقٌ بمضمون الكلام، والمعنى: انتفى عنك الكهانةُ والجنونُ بسبب نعمةِ الله تعالى عليك، وهذا كما تقول: ما أنا معسِرٌ بحمد الله تعالى وإغنائه، والمرادُ الردُّ على قائلي[1] ذلك، وإبطالُ مقالتهم فيه عليه الصلاة والسلام، وإلا فلا امتنانَ عليه ﷺ بانتفاء ما ذكر مع انتفائِهِ عن أكثر الناس.

وقيل: الامتنان بانتفاء ذلك بسبب النعمة المراد بها ما أُوتيَهُ ﷺ مِن صدق النبوة ورجاحة العقل التي لم يُؤتَها أحدٌ قبلَه، والقائلون بذلك هم الكفرة قاتَلَهم الله تعالى أنَّى يؤفكون، وممن قال كاهن: شيبةُ بن ربيعة، وممن قال مجنون: عقبة بن أبي معيط.

﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ أي: بل أيقولون: ﴿شَاعِرٌ﴾ أي: هو شاعر ﴿نَّتَرَبَّصُ﴾ أي: ننتظرُ ﴿بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ أي: الدهر، وهو فَعول مِن المنِّ بمعنى القطع؛ لأنَّه يقطعُ الأعمارَ وغيرَها، ومنه: حبلٌ مَنين، أي: مقطوع.

والريب مصدرُ رَابَهُ إذا أقلَقَه، أُريدَ به حوادثُ الدهر وصُروفُه؛ لأنَّها تُقلِقُ النفوسَ، وعبَّر عنها بالمصدر مبالغةً، وجوَّز أنْ يكونَ من رَابَ عليه الدهرُ، أي: نزل، والمرادُ بنزوله إهلاكُه.

وتفسيرُ «المنون» بالدهر مرويٌّ عن مجاهد، وعليه قول الشاعر:

تَرَبَّصْ بها ريبَ المَنون لعلَّها ... تُطَلَّقُ يوماً أو يموتُ حليلُها[2]

وبيتُ أبي ذؤيب:

أَمِنَ المنونِ وَرَيبه تتوجَّعُ ... والدهرُ ليس بمُعتِبٍ مَنْ يَجزَعُ[3]

---

(١) في (م): قائل.

(٢) البيت لفراص بن عتبة الأزدي كما في معجم الشعراء ص ١٩٢، ودون نسبة في جمهرة اللغة ١/ ٢٥٩، ومجمع البيان ٢/ ٢٢٢، والبحر المحيط ٨/ ١٥١.

(٣) ديوان الهذليين ١/ ١، وسيرة ابن إسحاق ١/ ٤٨٤.

قيل: ظاهره ذلك، وكذلك قول الأعشى:

أَأَنْ رَأَت رجلاً أعشى أضرَّ به ريبُ المنون ودهرٌ مُتْبِلٌ خَبِلُ[(١)]

ولهذا أنشدَه الجوهريُّ شاهداً له[(٢)].

وأخرج ابن جرير وغيرُه عن ابن عباس تفسيرَه بالموت[(٣)]، وهو مشتَرَك بين المعنَيَين، فقد قال المرزوقي في شرح بيت أبي ذؤيب المارِّ آنفاً[(٤)]: المنون قد يُراد به الدهرُ فيذكَّرُ وتكونُ الرواية: «ريبه»، وقد يُراد به المنية فيؤنَّث، وقد رُوي «ريبها»، وقد يرجع له ضمير الجمع لقصد أنواع المنايا، وريبُها نزولها. انتهى. فلا تغفل.

وهو أيضاً من المنِّ بمعنى القطع، فإنَّها قاطعةُ الأماني واللذات، ولذا قيل: المنيةُ تقطعُ الأُمنيةَ، و«ريب المنون» عليه: نزولُ المنية.

وجوِّز أنْ يكونَ بمعنى حادث الموت على أنَّ الإضافة بيانيةٌ، روي أنَّ قريشاً اجتمعَت في دار الندوة وكثرت آراؤهم فيه عليه الصلاة والسلام، حتى قال قائل منهم - وهم بنو عبد الدار كما قال الضحاك -: تربَّصُوا به ريب المنون، فإنَّه شاعر سيهلِكُ كما هلك زهير والنابغةُ والأعشى، فافترقوا على هذه المقالة، فنزلت[(٥)].

وقرأ زيد بن علي: «يُتَربَّصُ» بالياء مبنيّاً للمفعول، وقرأ: «ريبُ» بالرفع على النيابة[(٦)].

---

(١) ديوان الأعشى ص ١٠٥.

(٢) الصحاح (منن).

(٣) تفسير الطبري ٢١/ ٥٩٣.

(٤) كذا نقل المصنف عن الشهاب في الحاشية ٨/ ١٠٦، والذي في شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٣/ ١١٩٦، أنه قاله عند شرح بيت ليزيد بن الحكم بن أبي العاص يقول فيه:

ما بُخْلُ مَن هو للمَنو ن وريبها غَرَضٌ رجيمُ

(٥) أخرجه ابن إسحاق ١/ ٤٨١، والطبري ٢١/ ٥٩٣، عن ابن عباس رضي الله عنه دون قوله: فافترقوا على هذه المقالة، ونقله المصنف من البحر المحيط ٨/ ١٥١.

(٦) الكشاف ٤/ ٢٥، والبحر ٨/ ١٥١، والدر المصون ١٠/ ٧٦.

﴿قُلْ تَرَبَّصُوا﴾ تهكُّم بهم، وتهديدٌ لهم ﴿فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ﴾ أتربَّص هلاكَكُم كما تتربَّصُون هلاكي، وفيه عِدَةٌ كريمةٌ بإهلاكهم.

﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم﴾ أي: عقولُهم، وكانت قريش يُدْعَون أهلَ الأحلام والنُّهى، وذلك على ما قال الجاحظ[١]؛ لأنَّ جميعَ العالم يأتونَهم ويخالطونهم وبذلك يكمُلُ العقلُ، وهو يكمل بالمسافرة وزيادةِ رؤية البلاد المختلفةِ والأماكن المتباينة ومصاحبةِ ذوي الأخلاق المتفاوتة، وقد حصل لهم الغرض بدون مشقَّة.

وقيل لعمرو بن العاص: ما بالُ قومك لم يؤمنوا وقد وَصَفَهم الله تعالى بالعقل؟! فقال: تلك عقولٌ كادها الله عز وجل، أي: لم يَصْحَبْها التوفيقُ، فلذا لم يؤمنوا وكفروا.

وأنا لا أرى[٢] في الآية دلالةً على رجحان عقولهم ولعلَّها تدلُّ على ضدِّ ذلك.

﴿بِهَٰذَآ﴾ التناقض في المقال، فإنَّ الكاهن والشاعرَ يكونان ذا عقلٍ تامٍّ وفطنة وقَّادة، والمجنون مغطَّى عقلُه مختلٌّ فكرُه، وهذا يُعربُ عن أنَّ القومَ لتحيُّرهم وعصبيتهم وقعوا في حَيْصَ بَيْصَ، حتى اضطربَت عقولُهم وتناقضَت أقوالُهم وكذَّبوا أنفسَهم من حيث لا يشعرون، وأمرُ الأحلام بذلك مجازٌ عن التأدية إليه بعلاقة السببية كما قيل، وقيل: جعلت الأحلام آمرةً على الاستعارة المكنية فتُشَبَّه الأحلامُ بسلطانٍ مطاعٍ تشبيهاً مضمَراً في النفس، وتثبت له الأمر على طريق التخييل.

﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ مجاوزون الحدودَ في المكابرة والعناد، لا يحومون حولَ الرُّشد والسَّداد، ولذلك يقولون ما يقولون من الأكاذيب المحضةِ الخارجة عن دائرة العقول. وقرأ مجاهد: «بل هم»[٣].

---

(١) ينظر البيان والتبيين ١/ ١١.
(٢) في الأصل: أدري.
(٣) المحتسب ٢/ ٢٩١، والبحر المحيط ٨/ ١٥١.

﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ﴾ أي: اختلَقَه من تلقاء نفسه. وقال ابن عطية: معناه: قال عن الغير أنَّه قاله، فهو عبارةٌ عن كذب مخصوص(١). وضمير المفعول للقرآن.

﴿بَل لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ فلكفرهم وعنادِهم يَرمون بهذه الأباطيل، كيف لا وما رسول الله ﷺ إلا واحدٌ من العرب، فكيف أتى بما عجزَ عنه كافَّةُ الأمم من العرب والعجم؟!

﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ﴾ مماثلٍ القرآن في النعوت التي استقلَّ بها من حيث النظم ومن حيث المعنى ﴿إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾ فيما زعموا، فإنَّ صدْقَهم في ذلك يَستدعي قدرتَهم على الإتيان بمثله، بقضيةِ مشاركتهم له عليه الصلاة والسلام في البشرية والعربية، مع ما بهم من طول الممارسة للخُطَب والأشعار، وكثرة المزاولة لأساليب النَّظْم والنثر، والمبالغةِ في حِفْظ الوقائع والأيام؛ ولا ريبَ في أنَّ القدرة على الشيء من موجبات الإتيان به ودواعي الأمر بذلك، فالكلام ردٌّ للأقوال المذكورة في حقِّه عليه الصلاة والسلام والقرآنِ بالتحدِّي، فإذا تحدَّوا وعجزُوا عُلم ردُّ ما قالوه وصحة المدعَى.

وجوِّز أنْ يكونَ ردّاً لزعمهم التقوُّلَ خاصةً، فإنَّ غيرَه مما تقدَّم حتى الكهانة كما لا يخفى أظهرُ فساداً منه، ومع ذلك إذا ظهَرَ فسادُ زعمِ التقوُّل ظهرَ فسادُ غيرِه بطريق اللزوم.

وقرأ الجحدري وأبو السمال: «بحديثِ مثلِهِ» على الإضافة(٢)، أي: بحديثِ رجلٍ مثلِ الرسول ﷺ في كونه أمياً لم يصحَب أهلَ العلم ولا رَحلَ عن بلده، أو مثله في كونه واحداً منهم فلا يُعْوِزُ أنْ يكون في العرب مثلُه في الفصاحة فليأتِ بمثل ما أَتَى به، ولن يَقدِرَ على ذلك أبداً.

﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾ أي: أم أُحدِثُوا وقُدِّرُوا هذا التقدير البديع من غير مقدِّرٍ

(١) المحرر الوجيز ٥/ ١٩٢.
(٢) المحتسب ٢/ ٢٩٢، والمحرر الوجيز ٥/ ١٩٢، والبحر المحيط ٨/ ١٥٢.

وخالقٍ، وقال الطبري: المرادُ: أم خُلِقُوا من غير شيءٍ حيٍّ، فهم لا يؤمَرُون ولا يُنهَون كالجمادات[١].

وقيل: المعنى: أم خُلِقوا من غير علَّةٍ ولا لغايةِ ثوابٍ وعقابٍ، فهم لذلك لا يسمعون.

و«مِن» عليه للسببية، وعلى ما تقدَّم لابتداء الغاية، والمعوَّل عليه من الأقوال ما قدَّمنا، وسيأتي إن شاء الله تعالى زيادة إيضاح له، ويؤيده قوله سبحانه: ﴿أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ أي: الذين خَلَقُوا أنفسَهم فلذلك لا يعبدون الله عز وجل ولا يَلتفِتُون إلى رسوله ﷺ، إذ على القولَين لا يظهرُ حُسنُ المقابلة.

وإرادةُ خَلَقُوا أنفسَهم يُشعرُ به قوله تعالى: ﴿أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ إذ لو أُريد العمومُ لعُدِمِ ذكر المفعول لم يَظهر حُسْنُ المقابلة أيضاً.

وقال ابن عطية: المرادُ: أَهُمُ الذين خَلَقُوا الأشياء فهم لذلك يتكبَّرون، ثم خصَّ مِن تلك الأشياءِ السماوات والأرض لعظمهما وشرفهما في المخلوقات[٢]. وفيه ما سمعتَه.

﴿بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ أي: إذا سُئلوا: مَن خَلَقَكم وخَلَق السماوات والأرضَ؟ قالوا: الله، وهم غيرُ موقنين بما قالوا، إذ لو كانوا موقنين لَمَا أعرضُوا عن عبادته تعالى، فإنَّ مَن عَرَف خالقه وأيقَنَ به امتَثَل أمرَه وانقاد له.

﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ﴾ أي: خزائنُ رزقه تعالى ورحمتِهِ حتى يَرزُقُوا النبوَّة مَن شاؤوا، ويمسكوها عمَّن شاؤوا.

وقال الرُّمَّاني: خزائنُه تعالى مقدوراتُه سبحانه.

وقال ابن عطية: المعنى: أم عندَهم الاستغناءُ عن الله تعالى في جميع الأُمور؛ لأنَّ المال والصحةَ والعزَّة وغيرَ ذلك من الأشياء من خزائن الله تعالى[٣].

---

(١) تفسير الطبري ٢١/ ٥٩٦، ونقله المصنف عنه بواسطة أبي حيان في البحر المحيط ٨/ ١٥٢.
(٢) المحرر الوجيز ٥/ ١٩٢.
(٣) المحرر الوجيز ٥/ ١٩٢.

وقال الزهراوي[١]: يريدُ بالخزائن العلمَ. واستحسنه أبو حيان[٢]، وسيأتي إن شاء الله تعالى ما يعلم حاله منه.

﴿أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ﴾ الأربابُ الغالبون حتى يُدبِّروا أمرَ الربوبية ويَبنُوا الأمورَ على إرادتهم ومشيئتهم، فالمسيطرُ الغالب، وفي معناه قولُ ابن عباس: المسلَّط القاهرُ، وهو مِن سَيطَر على كذا: إذا راقبه وأقامَ عليه، وليس مصغَّراً كما يُتوهَّم، ولم يأتِ على هذه الزِّنَةِ إلا خمسةُ ألفاظٍ: أربعةٌ من الصفات، وهي: مهيمن ومسيطر ومُبيقر ومبيطر، وواحدٌ من الأسماء، وهو: مُجيمِر[٣] اسمُ جبل.

وقرأ الأكثر: «المصيطرون» بالصاد؛ لمكان حَرْف الاستعلاء وهو الطاء، وأشمَّ خلفٌ عن حمزة وخلّاد عنه بخلافٍ الزايَ[٤].

﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ﴾ هو ما يُتوصَّلُ به إلى الأمكنة العالية فيُرجَى به السلامة، ثم جُعل اسماً لكلِّ ما يُتوصَّل به إلى شيءٍ رفيع كالسبب، أي: أم لهم سلَّمٌ منصوبٌ إلى السماء.

﴿يَسْتَمِعُونَ فِيهِ﴾ أي: صاعدين فيه، على أنَّ الجارَّ والمجرور متعلِّقٌ بكونٍ خاصٍّ محذوفٍ وَقَع حالاً، والظرفية على حقيقتها، وقيل: هو متعلِّقٌ بـ «يستمعون» على تضمينه معنى الصمود.

وقال أبو حيان: أي: يستمعون عليه أو منه، إذ حروف الجرِّ قد يَسُدُّ بعضُها

---

(١) في الأصل و(م): الزهري، والمثبت من المحرر الوجيز ٥/ ١٩٢، والبحر ٨/ ١٥٢، وعنه نقل المصنف، والزهراوي: هو محدِّث الأندلس مع ابن عبد البر، أبو حفص عمر بن عبيد الله بن يوسف القرطبي، المتوفى سنة (٤٥٤هـ). شذرات الذهب ٥/ ٢٣٠.

(٢) في البحر المحيط ٨/١٥٢، وكذا ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ١٩٢.

(٣) في الأصل: مجيمن، ومجيمر: على لفظ تصغير «مِجْمَر» أرضٌ لبني فزارة، قال ابن دريد: هو جبل لهم، قال امرؤ القيس:

كأنَّ طُمَيَّةَ المُجَيْمِرِ غُدوَةً ... من السَّيلِ والأغثاءِ فلْكَةُ مِغْزَلِ

وقال أبو عبيدة في غريب القرآن: مُجَيمِر: ماءٌ دون المدينة، ولم يوجد على بنائه إلا أربعة: مهيمن ومسيطر ومبيقر ومبيطر. ينظر معجم ما استعجم ٤/ ١١٨٨.

(٤) التيسير ص ٢٠٤، والنشر ٢/ ٣٧٨.

مَسَدَّ بعضٍ، ومفعول «يستمعون» محذوفٌ[1]، أي: كلامَ الله تعالى، قيل: ولو نُزِّلَ منزلةَ اللازم جاز.

﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ أي: بحُجَّة واضحةٍ تُصدِّق استماعه.

﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ ﴿٣٩﴾﴾ تسفيةٌ لهم وتَرْكِيْكٌ لعقولهم[2]، وفيه إيذانٌ بأنَّ مَن هذا رأيُه لا يكادُ يُعَدُّ من العقلاء، فضلاً عن الترقِّي إلى عالَم الملكوت وسماع كلام ذي العزة والجبروت، والالتفاتُ إلى الخطاب لتشديد الإنكار والتوبيخ.

﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا﴾ أي: على تبليغ الرسالة، وهو رجوعٌ إلى خطابه ﷺ وإعراضٌ عنهم ﴿فَهُم﴾ لأجل ذلك ﴿مِّن مَّغْرَمٍ﴾ مصدرٌ ميميٌّ من الغُرْم والغَرامة وهو ـ كما قال الراغب ـ ما ينوبُ الإنسانَ في ماله من ضررٍ لغير جنايةٍ منه[3]. فالكلامُ بتقدير مضافٍ، أي: مِن التزام مَغرَمٍ.

وفسَّره الزمخشريُّ بالتزام الإنسان ما ليس عليه[4]، فلا حاجةَ إلى تقدير، لكن الذي تقتضيه اللغة هو الأول.

﴿مُّثْقَلُونَ﴾ أي: محمَّلون الثقل، فلذلك لا يتَّبعونك.

﴿أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ﴾ أي: اللوحُ المحفوظ المثبَتُ فيه الغيوب ﴿فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ منه ويُخبرون به الناس؛ قاله ابن عباس.

وقال ابن عطية: أم عندهم علمُ الغَيب فهم يُثبِتُون ما يزعمون للناس شرعاً، وذلك عبادةُ الأوثان وتَسْييبُ السوائبِ وغيرُ ذلك من سيرهم[5]. وقال قتادة: «أم عندهم الغيب» فهم يعلمون متى يموتُ محمد ﷺ الذي يتربَّصُون به. وفسَّر بعضُهم «يكتبون» بـ: يحكمون.

---

(١) البحر المحيط ٨/ ١٥٢.
(٢) في الأصل: لقولهم، والمثبت من (م) وتفسير أبي السعود ٨/ ١٥١.
(٣) مفردات الراغب (غرم).
(٤) الكشاف ٤/ ٢٩.
(٥) المحرر الوجيز ٥/ ١٩٣.

﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا﴾ بك وبشرعك وهو ما كان منهم في حقِّه ﷺ بدار الندوة مما هو معلومٌ من السِّيَر، وهذا من الإخبار بالغيب، فإن قصةَ دار الندوة وقعت في وقت الهجرة، وكان نزولُ السورة قبلَها كما تدلُّ عليه الآثار.

﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ هم المذكورون المريدون كيدَه عليه الصلاة والسلام، ووضع الموصول موضع ضميرهم للتسجيل عليهم بما في حيِّز الصلة من الكفر وتعليل الحكمِ به، وجوِّز أنْ يُراد جميعُ الكفرة وهم داخلون فيه دخولاً أولياً.

﴿هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾ أي: الذين يحيق بهم كيدُهم ويعودُ عليهم وبالُه، لا مَن أرادُوا أنْ يكيدوه، وكان وبالُه في حقِّ أولئك قتلَهم يومَ بدر في السنة الخامسة عشر من النبوة؛ قيل: ولذا وَقَعت كلمةُ «أم» مكررةً هنا خمسَ عشرة مرةً للإشارة لِمَا ذكر، ومثلُه ـ على ما قال الشهاب ـ لا يُستبعَدُ من المعجزات القرآنية، وإنْ كان الانتقالُ لمثله خَفِيًّا[1] ومناسبته أخفى.

وجوِّز أنْ يكونَ المعنى: هم المغلوبون في الكيد، مِن كايدتُه فكدْتُه.

﴿أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ﴾ يُعينُهم ويحرسُهم من عذابه عز وجل.

﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: عن إشراكهم، على أنَّ «ما» مصدرية، أو عن شِرْكة الذي يُشركونه، على أنَّها موصولة وقبلها مضافٌ مقدَّر والعائدُ محذوف.

﴿وَإِن يَرَوْا كِسْفًا﴾ قطعةً، فهو مفردٌ، وقد قرئ في جميع القرآن «كِسَفاً» و«كِسْفاً» جمعاً وإفراداً إلا هنا فإنَّه على الإفراد وحده[2]، وتنوينُه للتفخيم، أي: وإنْ يَرَوا كسفاً عظيماً ﴿مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا﴾ لتعذيبهم ﴿يَقُولُوا﴾ مِن فَرْط طغيانهم وعنادهم ﴿سَحَابٌ﴾ أي: هو سحاب ﴿مَّرْكُومٌ﴾ متراكمٌ ملقًى بعضُه على بعضٍ، أي: هم في الطغيان بحيث لو أَسقَطْنا عليهم حسبما قالوا: ﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾ [الإسراء: ٩٢] لقالوا: هو سحاب متراكم يُمطرُنا، ولم يُصدِّقوا أنَّه كِسْفٌ ساقطٌ لعذابهم.

---

(١) في الأصل و(م): خفيٌّ، والمثبت من حاشية الشهاب ٨/١٠٨.
(٢) النشر ٢/٣٠٩، وحاشية الشهاب ٨/١٠٨.

﴿فَذَرْهُمْ﴾ فدعهم غيرَ مكترثٍ بهم، وهو على ما في «البحر» أمرُ موادعةٍ منسوخٌ بآية السيف[(١)].

﴿حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟﴾ وقرأ أبو حيوة: «يلْقَوا»[(٢)] مضارع لَقِيَ ﴿يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ على البناء للمفعول، وهي قراءة عاصم وابن عامر وزيد بنِ علي وأهل مكة في قول شبل بن عباد[(٣)]، من صعَقَتْه الصاعقةُ، أو مِن أَصْعَقته، وقرأ الجمهور وأهل مكة في قول إسماعيل: «يَصعَقون» بفتح الياء والعين[(٤)]، والسُّلَمي بضم الياء وكسر العين من أصعق رباعياً[(٥)].

والمرادُ بذلك اليوم يومُ بدر، وقيل: وقتُ النفخة الأولى، فإنَّه يُصعَقُ فيه مَن في السماوات ومَن في الأرض.

وتعقِّب بأنَّه لا يُصعَقُ فيه إلا مَن كان حيّاً حينئذٍ، وهؤلاء ليسوا كذلك، وبأنَّ قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾ - أي: شيئاً من الإغناء - بدلٌ من «يومهم»، ولا يخفى أنَّ التعرُّض لبيان عدمِ نفع كيدهم يَستدعي استعمالَهم له طمعاً بالانتفاع به، وليس ذلك إلا ما دبَّروه في أمره ﷺ من الكيد الذي مِن جملته مناصبتُهم يوم بدر، وأما النفخةُ الأُولَى فليسَت مما يجري في مدافعته الكيد والحيل.

وأُجيبَ عن الأول: بمنع اختصاص الصَّعْقِ بالحيِّ فالموتَى أيضاً يصعَقُون، وهم داخلون في عموم «من» وإنْ لم يكن صعقُهم مثلَ صَعْقِ الأحياء مِن كل وَجْهٍ، وهو خلافُ الظاهر فيحتَاجُ إلى نقلٍ صحيح.

وعن الثاني: بأنَّ الكلام على نَهْج قوله:

---

(١) البحر المحيط ٨/ ١٥٣.

(٢) البحر المحيط ٨/ ١٥٣، وهي قراءة أبي جعفر من العشرة كما في النشر ٢/ ٣٧٠.

(٣) قراءة عاصم وابن عامر في التيسير ص ٢٠٤، والنشر ٢/ ٣٧٩، والكلام من البحر المحيط ٨/ ١٥٣.

(٤) التيسير ص ٢٠٤، والنشر ٢/ ٣٧٩، والبحر ٨/ ١٥٣، والكلام منه.

(٥) البحر المحيط ٨/ ١٥٣.

عـلـى لاحِـبٍ لا يُـهـتـدَى بـمَـنـارِهِ(١)

فالمعنى: يومَ لا يكونُ لهم كيدٌ ولا إغناءٌ، وهو كثيرٌ في القرآن، وبابٌ من أبواب البلاغة والإحسان.

وقيل: هو يوم القيامة. وعليه الجمهور، وفيه بحثٌ.

وقيل: هو يومُ موتهم. وتُعقِّب بأنَّ فيه ما فيه، مع أنَّه تأباه الإضافة المُنبئةُ عن اختصاصه بهم، فلا تغفل.

﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ من جهة الغير في دَفْع العذاب عنهم.

﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي: لهم، ووضع الموصول موضعَ الضمير لِمَا ذكر قبلُ، وجُوِّز العمومُ وهم داخلون دخولاً أولياً ﴿عَذَابًا﴾ آخر ﴿دُونَ ذَٰلِكَ﴾ دون ما لاقَوه من القتل، أي: قبله، وهو ـ كما قال مجاهد ـ القَحْطُ الذي أصابهم سبْعَ سنين، وعن ابن عباس: هو ما كان عليهم يومَ بدر والفتح. وفسِّر «دون ذلك» بـ : قَبْل يوم القيامة، بناءً على كون يومهم الذي فيه يُصعَقون ذلك.

وعنه أيضاً وعن البراء بنِ عازب أنَّه عذابُ القبر، وهو مبنيٌّ على نحو ذلك التفسير، وذهب إليه بعضُهم بناءً على أنَّ «دون ذلك» بمعنى: وَرَاء ذلك، كما في قوله:

يُـريـك الـقـذَى مِـن دونـهـا وَهْـوَ دونَـهـا(٢)

وإذا فسِّر اليومُ بيوم القيامة ونحوه، و«دون ذلك» بقبله، وأُريدَ العمومُ من الموصول، فهذا العذابُ عذابُ القبر، أو المصائبُ الدنيوية، وفي مصحف عبد الله: «دون ذلك قريباً»(٣).

---

(١) صدر بيت لامرئ القيس، وهو في ديوانه ص ٦٦، وعجزه:

إذا سـافَـهُ الـعَـوْدُ الـنَّـبـاطـيُّ جـرجـرا

وسلف ١/ ٤٥٧.

(٢) البيت للأعشى، وهو في ديوانه ص ٢٦٩، وبدون نسبة في اللسان (دون)، وتفسير أبي السعود ٨/ ١٥٢-١٥٣، ولفظ البيت في الديوان واللسان:

تـريـك الـقَـذَى مِـن دونـهـا وهْـيَ دونَـهُ ... إذا ذَاقَـهـا مَـن ذاقـهـا يَـتَـمَـطَّـقُ

(٣) الكشاف ٤/ ٢٦، والمحرر الوجيز ٥/ ١٩٤.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ أنَّ الأمر كما ذكر، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ فيهم مَن يعلم ذلك وإنَّما يُصِرُّ على الكفر عناداً، أو لا يعلمون شيئاً.

﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ﴾ بإمهالهم إلى يومهم الموعودِ وإبقائك فيما بينَهم، مع مقاساة الأحزان ومعاناة الهموم ﴿فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَا﴾ أي: في حفظنا وحراستنا، فالعينُ مجازٌ عن الحفظ، ويُتجوَّزُ بها أيضاً عن الحافظ، وهو مجازٌ مشهور، وفي «الكشاف»[١]: هو مَثَلٌ، أي: بحيث نراك ونَكْلَؤُك، وجَمَع العينَ هنا لإضافته إلى ضمير الجمع، ووحّد في «طه»[٢] لإضافته إلى ضمير الواحد. ولوَّح الزمخشريُّ في سورة المؤمنين إلى أنَّ فائدةَ الجمع الدلالة على المبالغة في الحفظ، كأنَّ معه مِن الله تعالى حُفَّاظاً يكلؤونه بأعينهم[٣].

وقال العلامة الطيبي: إنه أفردَ هنالك لإفراد الفعل وهو كلاءَةُ موسى عليه السلام، وهاهنا لمَّا كان لتصبير الحبيبِ على المكايد ومَشاقِّ التكاليف والطاعات ناسبَ الجمع؛ لأنَّها أفعالٌ كثيرة كلٌّ منها يحتاج إلى حراسةٍ منه عز وجل. انتهى.

ومَن نظر بعين بصيرته عَلِمَ من الآيتَين الفرقَ بين الحبيب والكليم عليهما أفضلُ الصلاة وأكملُ التسليم، ثم إنَّ الكلامَ في نظير هذا على مذهب السلف مشهورٌ.

وقرأ أبو السمال: «بأعينَّا» بنونٍ مشددة[٤].

﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ﴾ أي: قل: سبحان الله، ملتبساً بحمده تعالى على نَعمائه الفائتةِ الحَصْر، والمرادُ: سبِّحْه تعالى واحْمَدْه ﴿حِينَ تَقُومُ﴾ من كلِّ مجلسٍ؛ قاله عطاء ومجاهد وابن جبير، وقد صحَّ من رواية أبي داود والنسائي وغيرهما عن أبي برزة الأسلمي أنَّ رسول الله ﷺ كان يقولُ إذا أرادَ أنْ يقومَ من المجلس: «سُبحانَكَ اللهمَّ وبحمْدِكَ، أشهدُ أنْ لا إله إلا أنتَ، أستغفرُكَ وأتوبُ إليك» فسئل

---

(١) ٤/ ٢٦.
(٢) آية رقم (٣٩).
(٣) الكشاف ٣/ ٣٠.
(٤) المحرر الوجيز ٥/ ١٩٤، والبحر المحيط ٨/ ١٥٣.

عن ذلك فقال: «كفارةٌ لِمَا يكون في المجلس»[١] والآثار في ذلك كثيرة.

وقيل: حين تقومُ إلى الصلاة، أخرج أبو عبيد وابنُ المنذر عن سعيد بن المسيب قال: حقّ على كلِّ مسلم حين يقومُ إلى الصلاة أنْ يقولَ: سبحانَ الله وبحمْدِهِ؛ لأنَّ الله تعالى يقول لنبيِّه ﷺ: (وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ)[٢].

وأخرج سعيدُ بن منصور وغيرُه عن الضحاك أنَّه قال في الآية: حينَ تقومُ إلى صلاةٍ تقولُ هؤلاء الكلمات: سُبحانك اللهمَّ وبحمدك وتبارَك اسمُك وتعالى جَدُّك ولا إله غيرُك[٣]. وحكاه في «البحر» عن ابن عباس[٤]. وأخرج عنه ابن مردويه أنَّه قال: سَبِّح بحمد ربِّك حينَ تقومُ من فراشِكَ إلى أنْ تدخُلَ في الصلاة[٥]. وروي نحوه عن ابن السائب.

وقال زيد بن[٦] أسلم: حين تقوم من القائلة، والتسبيحُ إذ ذاك هو صلاة الظهر.

و قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ﴾ إفرادٌ لبعض الليل بالتسبيح لِمَا أنَّ العبادة فيه أشقُّ على النفس وأبعدُ عن الرياء كما يلوِّح به تقديمه على الفعل.

﴿وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾ أي: وقتَ إدبارها من آخر الليل، أي: غيبتها بضوء الصباح.

وقيل: التسبيحُ من الليل صلاةُ المغرب والعشاء، وإدبار النجوم ركعتا الفجر.

وعن عمر رضي الله عنه وعليٍّ كرم الله تعالى وجهه وأبي هريرة والحسن رضي الله عنهما: التسبيحُ من الليل النوافلُ، وإدبار النجوم ركعتَا الفجر.

وقرأ سالم بنُ أبي الجعد والمنهالُ بنُ عمرو ويعقوب: «أدبار» بفتح الهمزة[٧]

---

(١) سنن أبي داود (٤٨٥٩)، والسنن الكبرى للنسائي (١٠١٨٧).

(٢) الدر المنثور ٦/ ١٢١.

(٣) عزاه لسعيد بن منصور السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٢٠، وأخرجه الطبري ٢١/ ٦٠٦.

(٤) ينظر البحر ٨/ ١٥٣.

(٥) عزاه لابن مردويه السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٢١.

(٦) قوله: بن، ساقط من (م)، والأثر في البحر المحيط ٨/ ١٥٣.

(٧) المحتسب ٢/ ٢٩٢، والمحرر الوجيز ٥/ ١٩٤، والبحر المحيط ٨/ ١٥٣، وهي خلاف المشهور عن يعقوب.

جمع دبر بمعنى عقب، أي: في أعقابها إذا غَربَت، أو خَفِيَت بشعاع الشمس.

هذا ونظمُ الآيات من قوله تعالى: (أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ) إلى قوله سبحانه: (أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ) إلخ فيه غرابةٌ، ولم أرَ أحداً كشَفَ عن لِثَامه كصاحب «الكشف» جزاه الله تعالى خيراً، ولغاية حُسْنِه وكونِه مما لا مزيدَ عليه أحببتُ نقلَه بحذافيره لكنْ مع اختصارٍ ما، فأقول:

قال: أَوْمَأ الزمخشريُّ إلى وجهَين في ذلك في قوله تعالى: ﴿بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾ [الأنبياء:٥]: أحدهما: أنَّه حكايةُ قولهم المضْطَرب على وجهه، والثاني: أنَّه تدرُّجٌ منه سبحانه في حكاية ما قالوه من المنكر إلى ما هو أَدخَلُ فيه، والأولُ ضعيفٌ فيما نحن فيه؛ لأنَّ ما سيق له الكلام ليس اضطرابَ أقوالهم فتُحكَى على ما هي عليه، بل تسليتُهُ عليه الصلاة والسلام، وأنَّه لا محالةَ ينتقمُ له منهم، وأنَّ العذاب المكذَّبَ به واقعٌ بهم جزاءً لتكذيبهم بالمُنبِئ والنَّبأ والمُنبَّأ به، فالمتعيِّنُ هو الثاني، ووجْهُه ـ والله تعالى أعلم ـ أنَّ قوله: «فذكِّر» معناه: إذ ثَبَت كونُ العذاب واقعاً، وكونُ الفريقَين المصدِّقين والمكذِّبين مَجزيِّين بأعمالهم، وأنَّك على الحقِّ المبين الذي مَن كذَّب به استحقَّ الهوان، ومَن صدَّق استحقَّ الرضوان، فدُمْ على التذكير ولا تُبالِ بما تُكايَد، فإنك أنت الغالبُ حُجَّةً وسيفاً في هذه الدار، ومنزلةً ورفعةً في دار القرار.

ومِن قوله تعالى: (فَمَآ أَنتَ) إلى قوله سبحانه: (هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ) تفصيلُ هذا المجمَل مع التعريض بفساد مقالاتهم الحمقاء، وأنَّهم بمرأًى من الله تعالى ومسمَعٍ، فلا محالةَ ينتقمُ لنبيه عليه الصلاة والسلام منهم، وفيه أنَّ النبي ﷺ من الله تعالى بمكانٍ لا يُقادَر قدرُه، فهو شدٌّ مِن عَضُد التسلِّي.

وقوله سبحانه: (فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ) إلخ فيه أنَّ مَن أُنعِمَ عليه بالنبوة يستحيلُ أنْ يكونَ أحدَ هذَين، وبدأ بقولهم المتناقضِ ليُنبِّه أولاً على فساد آرائهم ويجعلَه دستوراً في إعراضهم عن الحقِّ وإيثارِ اتِّباع أهوائهم، فما أبعدَ حال مَن كان أَتقَنَهم رأياً وأرجحَهم عقلاً وأبينَهم آياً، منذ ترعرَع إلى أنْ بَلَغ الأَشُدَّ عن الجنون والكهانة،

على أنَّهما متناقضان؛ لأنَّ الكهَّان كانوا عندهم من كامليهم، وكان قولهم إماماً متَّبعاً عندهم، فأين الكهانةُ من الجنون؟

ثم تَرقَّى مُضْرِباً إلى قولهم فيه ـ وحاشاه ﷺ ـ أنَّه شاعر؛ لأنَّه أدخلُ في الكذب من الكاهن والمجنون، وقِدماً قيل: أحسنُ الشعر أكذبُه، ليبيِّن حال تَلَجْلُجِهم واضْطِرابهم.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ تَرَبَّصُوا﴾ من باب المجازاة بمثل صنيعهم، وفيه تَتْميمٌ للوعيد، فهذا بابٌ من إنكارهم هدَمَه سبحانه أولاً تلويحاً بقوله تعالى: ﴿بِنِعْمَتِ رَبِّكَ﴾ وثانياً تصريحاً بقوله جل وعلا: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم﴾ كأنَّه قيل: دَعْهم وتلك المقالة وما فيها من الاضطراب ففيها عبرة، ثم قيل: لا بل ذلك من طُغيانهم؛ لأنَّه أدخلُ في الذمِّ من نقصان العقل وأبلغُ في التسلية؛ لأنَّ مَن طغَى على الله عز وجل فقد باء بغضبه، ثم أخذ في بابٍ أوغل في الإنكار، وهو نسبةُ الافتراء إليه ﷺ، وذلك لأنَّ الافتراء أَبعدُ شيءٍ من حاله لاشتهاره بالصدق، على أنَّ كونه افتراءً وعَجْزَهم عن الإتيان بأقصر سورةٍ مِن هذا المفتَرَى متنافيان، لدلالته على الصدق على ما مرَّ في «الأحقاف»[١]؛ ولأنَّ الشاعر لا يتعمَّد الكذبَ لذاته، ثم قد يكونُ شعرُه حِكَماً ومواعظَ وهو لا يُنسَبُ فيه إلى عارٍ، والتدرُّجُ عن الشعر هاهنا عكس التدرُّج إليه في «الأنبياء»[٢]، لأنَّ بناءَ الكلام هاهنا على التدرُّج في المناقضة والتوَغُّلِ في القَدْح فيه عليه الصلاة والسلام ونَفْي رسالته، وهنالك على[٣] القدح في بعضٍ من الذكر متجدِّدِ النزول، فقيل: إنَّ افتراءه لا يَبعُدُ ممن هو شاعرٌ ذو افتراءات كثيرة، وأين هذا من ذاك؟

وللتنبيه على التوغُّل جيء بصريح حَرْف الإضراب في الرد فقيل: ﴿بَل لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ وعقَّب بقوله تعالى: ﴿فَلْيَأْتُوا﴾ ثم مَن لا يؤمن أشدُّ إنكاراً له من الطاغي، كما أنَّ المفتري أدخلُ في الكذب من الشاعر.

---

(١) آية رقم (٨).
(٢) آية رقم (٥٠).
(٣) في (م): عن.

ثم أخذ في أسلوبٍ أبلغَ في الردِّ على مقالاتهم الجنون والكهانة لتقاربهما، ثم الشعر، ثم الافتراء، حيث نزَّلَ القائلين منزلةَ مَن يدَّعي أنَّه خُلِق مِن غير شيءٍ، أي: مقدِّرٍ وخالق، وإلا لأهمَّهم البحثُ عن صفاته وأفعاله فلم يُنكروا منك ما أنكروا، ومَن حَسِب أنَّه مستغنٍ عن الموجِد نَسَب رسولَه إلى الجنون والكهانة، لا بل كمن يدَّعي أنَّه خالقُ نفسِهِ فلا خالقَ له ليبحثَ عن صفاته، فهو ينسبُه إلى الشعر إذ لا يرسَلُ إليه البتة، والشعرُ أَدخَلُ في الكذب، لا بل كمن يدَّعي أنَّه خَلَقَ السماوات والأرضَ وما بينهما، فهو ينسبُه إلى الافتراء حيث لم يرسله.

ثم أَضربَ صريحاً عنه بقوله تعالى: ﴿بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ ومَن لا إيقانَ له بمثل هذا البديهي لا يبعدُ أنْ يَزِنَّكَ بما زَنَّ[1]، فكأنه قيل: مقالتُهم تلك تؤدِّي إلى هذه، لا أنَّهم كانوا قائلين بها إظهاراً لتماديهم في العناد، ثم بُولِغَ فيه فجيء بما يدلُّ على أنَّ الرسول لابدَّ أنْ يكونَ مفترياً غيرَ صالحٍ للنبوة في زعمهم، فالأول: لمَّا لم يمنع تعدُّد الآلهة إنما يدلُّ على افترائه من حيث إنَّ أحدَ الخالقين لا يدعو الآخرَ إلى عبادته، والثاني: يمنعه بالكلِّية لأنَّه إذا كان عندهم جميعُ خزائن ربِّه وهم ما أَرسَلُوه لَزِمَ أنْ يكون مفترياً ألبتة، وأَدْمَجَ فيه إنكارَهم للمعاد، ونسبتَهم إياه ﷺ في ذلك أيضاً خاصةً إلى الافتراء، والحملُ على خزائن القدرة أظهرُ؛ لأنَّ «أم عندهم الغيب» إشارةٌ إلى خزائن العلمِ. ولمَّا كان المقصودُ هنالك أمرَ البعث على ما سيحقَّق إن شاء الله تعالى كانَ هذا القولُ أيضاً من القبول بمكانٍ، ولا يخفَى ما في قوله تعالى: ﴿أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ﴾ من الترقِّي.

ثم لمَّا فرغ من ذلك وبيَّن فسادَ ما بنَوا عليه أمرَ الإنكار بدليل العقل قيل: لم يبق إلا المشاهدة والسماع منه تعالى، وهو أظهرُ استحالةً، فتهكَّم بهم وقيل: «أم[2] لهم سلَّمٌ يستمعون».

(١) أي: يتَّهمك بما اتَّهم.

(٢) في الأصل و(م): بل، والمثبت موافق لما في الآية.

وذَيَّل بقوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ﴾ إشعاراً بأنَّ مَن جعل خالقَه أدونَ حالاً منه لم يُستبعَدُ منه تلك المقالات الخرقاء، كأنَّه سلَّى ﷺ، وقيل: ناهيك بتساوي الطعنَين في البطلان وبما يَلقَون مِن سوء مغبَّتهما.

ثم قيل: «أم تسألهم أجراً» أي: إنَّ القومَ أربابُ ألبابٍ، وليسُوا مِن تلك الأوصاف في شيء، بل الذي زَهَّدَهم فيك أنَّك تسألهم أجراً، مالاً أو جاهاً أو ذكراً، وفيه تهكُّمٌ بهم وذمٌّ لهم بالحسد واللؤم، وأنَّهم مع قصورِ نَظَرهم عن أمر الميعاد لا يبنون الأمرَ على المتعارَف المعتادِ، إذ لا أحدَ مِن أهل الدنيا وذوي الأخطار يَجْبَهُ الناصحَ المبرَّأَ ساحته عن لَوْث الطمعِ بتلك المقالات، على أنَّه حسدٌ لا موقعَ له عند ذويه، فليسوا في أنْ يحصُلَ لهم نعمةُ النبوة، ولا هو ممن يَطمَعُ في نِعَمهم إحدى الثلاث.

ثم قيل: «أم عندهم الغيب» على معنًى: بل أعندَهم اللوحُ فيعلمون كلَّ ما هو كائن، ويكتبون فيه تلك المعلوماتِ، وقد علموا أنَّ ما تدَّعيه من المعاد ليس من الكائن المكتوب! والمقصودُ من هذا نَفْيُ المُنْبَأ به، أعني: البعثَ على وجهٍ يتضمَّن دفْعَ النبوة أيضاً إدماجاً عكس الأول، ولهذا أخَّره عن قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ﴾ فقد سلفَ أنَّ مصبَّ الغرض حديثُ النبأ والمُنبِئ[1] والمنبأ به، فقضى الوَطَرَ من الأولَين مع الرمز إلى الأخير، ثم أخذَ فيه مع الرمز إليهما قضاءً لحقِّ الإعجاز، ففي الغيب إشارةٌ إلى الغيب أعني الساعةَ أول كلِّ شيءٍ، وفيه تَرَقٍّ في الدفع مِن وَجْهٍ أيضاً؛ لأنَّ العلمَ أشملُ مورداً من القدرة؛ ولأنَّ الأول إنكارٌ من حيث إنَّهم لم يرسلوه، وهذا من تلك الحيثية، ومِن حيث إنَّهم ما علموا بإرسال غيرِه إياه أيضاً مع إحاطة عِلْمهم لكنَّه غيرُ مقصودٍ قصداً أوليًّا.

ثم خَتَم الكلامَ بالإضراب عن الإنكار إلى الإخبار عن حالهم بأنَّهم يريدون بك كيداً، فهم يَنصبون لك الحبائلَ قولاً وفعلاً، لا يقفون على هذه المقالة وحدَها، وهم المكيدون لا أنتَ قولاً وفعلاً وحُجَّةً وسيفاً، وحقَّق ما ضمَّنه من الوعيد بقوله

---

(١) في (م): المنبأ.

سبحانه: ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ فيُنجيهم من كيده وعذابه، لا والله سبحان الله عن أنْ يكونَ إلهٌ غيرُه، ومنه يظهرُ أنَّ حَمْل الذين كفروا على المريدين به كيداً أظهرُ في هذا المساق. انتهى.

وكأنَّ ما بعد تأكيدٌ[١] لأمر طغيانهم، ومزيدُ تحقيقٍ للوعيد، ومبالغةٌ في التسلية. ويُعلَم مما ذكره ـ لازالت رحمةُ الله تعالى عليه متصلةً ـ أنَّ «أم» في كلِّ ذلك منقطعةٌ، وهي مقدَّرة بـ «بل» الإضرابية ـ والإضرابُ هاهنا واقعٌ على سبيل الترقي ـ وبالهمزة وهي للإنكار، وهو ما اختاره أبو البقاء[٢] وكثير من المفسرين، وحكى الثعلبيُّ عن الخليل أنَّها متَّصلةٌ، والمرادُ بها الاستفهامُ[٣]، وعليك بما أفاده كلام ذلك الهمام والله تعالى أعلم.

❁ ❁ ❁

ومما ذكروه من باب الإشارة في بعض الآيات: ﴿وَٱلطُّورِ﴾ إشارةٌ إلى قالب الإنسان ﴿وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ﴾ إشارةٌ إلى سرِّه ﴿فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ﴾ إشارةٌ إلى قلبه ﴿وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ﴾ إشارةٌ إلى روحه، ﴿وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ﴾ إشارة إلى صفته، ﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ﴾ إشارةٌ إلى نفسه المسجورة بنيران الشهوة والغضبِ والكِبْر.

وقيل: «الطور» إشارة إلى ما طار من الأرواح من عالم القدسِ والملكوت حتى وَقَع في شباك عالم الملك، والكتاب المسطور في الرق المنشور إشارةٌ إلى النقوش الإلهية المدرَكَة بأبصار البصائر القدسية المكتوبة في صحائف الآفاق، «والبيت المعمور» إشارة إلى قَلْب المؤمن المعمور بالمعرفة والإخلاص «والسقف المرفوع» إشارةٌ إلى العالم العلويِّ المرفوع عن أرض الطبيعة «والبحر المسجور» إشارة إلى بحر القدرة المملوءِ من أنواع المقدورات التي لا تتناهى، وقيل: إشارةٌ إلى الفضاء الذي فيه الملائكةُ المهيمون؛ ووصفه بـ «المسجور» إما لأنَّه مملوءٌ منهم، وإما لأنَّه سُجِرَ بنيران الهيام، ولذا لا يعلم أحدُهم بسوى الله عز وجل، وقيل غير ذلك.

---

(١) في (م): تأكيداً.

(٢) في إملاء ما من به الرحمن ٤/ ٣٥٥.

(٣) تفسير الثعلبي ٩/ ١٣٢، والبحر المحيط ٨/ ١٥١-١٥٢، وعنه نقل المصنف.

﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ * ٱلَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ﴾ أي: يخوضون في غمرات البحر اللُّجِّي الدنيوي، ويلعبون فيها بزَبَدِها الباطل ومتاعها القليل، ويكذِّبون المستخلَصين عن الأكدار المتحلِّين بالأنوار إذا[1] أنذروهم أنَّ المتقين هم أضداد أولئك.

﴿فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ مما لا عينٌ رأت ولا أُذنٌ سمعَت ولا خطر على قلب بشر ﴿وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ وهو عذابُ الحجاب ﴿كُلُوا۟﴾ من ثمرات المعارفِ المختصَّة باللطيفة النفسية ﴿وَٱشْرَبُوا۟﴾ من مياه العيون المختصَّة باللطيفة القلبية.

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ أي: مقام العبودية ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ أي: عند نزول السكينة عليك ﴿وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾ أي: عند ظهور نورِ شمس الوَجْه، وتسبيحُه سبحانه عند ذلك بالاحتراز عن إثبات وجودٍ غيرِ وجوده تعالى الحقِّ، فإنَّ إثباتَ ذلك شركٌ مطلَقٌ في ذلك المقام، أعاذنا الله تعالى وإياكم من الشرك بحرمة الحبيب عليه الصلاة والسلام.

---

(١) في (م): إذ.